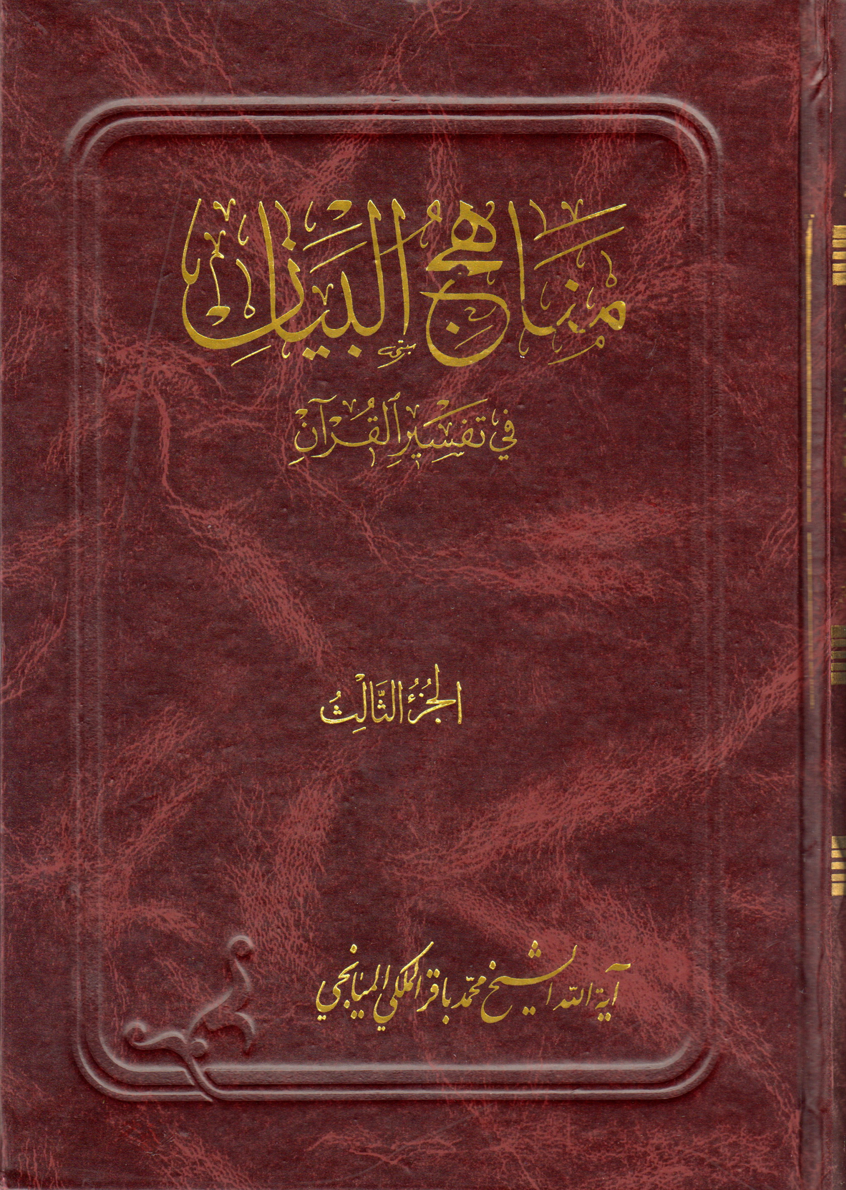


مناهج البيان
في تفسير القرآن
الجزء الثالث
آية الله الشيخ محمد باقر الملكي الميانجي

بسم الله الرحمن الرحيم

مناهج البيان

في تفسير القرآن

آية الله الشيخ محمد باقر الملكي الميانجي

تنظيم

محمد البياباني الأسكوئي

إشراف

حسين درگاهي

تصحيح

عزيز آل طالب

الجزء الثالث



مؤسّسة النبأ الثّقافيّة

سرشناسه	: ملکی میانجی، محمدباقر، ۱۲۸۴ ـ ۱۳۷۷.
عنوان و نام پدیدآور	: مناهج البیان فی تفسیرالقرآن / محمدباقر الملکی میانجی؛ تنظیم محمد البیابانی الاسکویی؛ اشراف حسین درگاهی؛ تصحیح عزیز آل طالب.
مشخصات نشر	: تهران : نبأ، ۱۴۳۴ ق.= ۲۰۱۳ م.، ۱۳۹۲.
مشخصات ظاهری	: ج.۳
شابک	: ج.۳: ۵ ـ ۰۱۸ ـ ۲۶۴ ـ ۶۰۰ ـ ۹۷۸
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا
یادداشت	: عربی
موضوع	: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴
شناسه افزوده	: بیابانی اسکوئی، محمد، ۱۳۴۱ - ، گردآورنده
شناسه افزوده	: درگاهی، حسین، ۱۳۳۱ - ، ویراستار
شناسه افزوده	: آل طالب، عزیز، مصحح
رده بندی کنگره	: ۱۳۹۲ ۸ م ۷ م / ۹۸ BP
رده بندی دیویی	:۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۳۲۱۷۴۱۸



اسم الكتاب : مناهج البيان في تفسير القرآن

المؤلّف: آية الله الشيخ محمّد باقر الملكي الميانجي

التنظيم: محمّد البياباني الاسكوئي. إشْراف: حُسَيْن دَرْگاهي. التصحيح: عزيز آلْ طالِبْ

عدد النسخ : ۱۰۰۰ نسخة. الطبعة: الأولى (۱۴۳۴ هـ ـ ۲۰۱۳ م). المطبعة: دالاهو

النّاشر: المؤسّسة النبأ الثقافيّة / طهران، شارع شريعتى، شارع مقدم، شارع اديبى، ۲۶

هاتف: ۷۷۵۰۶۶۰۲ ـ ۷۷۵۰۴۶۸۳ ـ الشابك : ۵ ـ ۰۱۸ ـ ۲۶۴ ـ ۶۰۰ ـ ۶۷۸

مراكز التوزيع: ايران ـ مشهد ـ منشورات الولاية ـ هاتف: ۰۰۹۸۹۱۵۱۵۷۶۰۰۳

ايران ـ قم ـ مجتمع الامام المهدى (عج) الطابق الارضى ـ رقم ۱۱۶ ـ

هاتف: ۰۰۹۸۲۵۳۷۸۳۳۶۲۴

بيروت لبنان ـ الرويس ـ مفرق محلات محفوظ ستورز ـ بناية رمال ـ هاتف: ۵۴۲۲۱۱

بسمه تعالى

تعدّ مهمّة نشر وإشاعة معارف (الثقلين) الأصيلة من الواجبات التى لا يمكن بأىّ حالٍ من الأحوال تبرير الغفلة عنها أو التقصير فيها، وهى مهمّة من الضخامة والاتّساع بما يجعلها تتجاوز القدرات الفرديّة المحدودة والإمكانات المتاحة أمام كلّ واحدٍ من العاملين فى ميادين الثقافة الدينيّة.

من هنا تبرز ضرورة تعاون المؤسّسات والمراكز الثقافيّة والتنسيق فى ما بينها باعتباره خطوة مباركة لا يخفى ما لها من الآثار فى تقديم الثمار اليانعة لعشّاق العلم والثقافة وطالبيهما.

ومن تلك الثمار القيّمة كتاب «مناهج البيان فى تفسير القرآن»، وهو تفسيرٌ ألّفه آية اللّه الشيخ محمّد باقر الملكى الميانجى، وقامت مؤسّسة الطباعة والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامى فى العام ١٤١٧ هـ بطباعة ألف نسخة منه ضمن الطبعة الأُولى.

وسعيا من «مؤسّسة عالم آل محمّد (عليهم السلام) العالميّة» و «مؤسّسة معارف أهل البيت(عليهم السلام)» و «مؤسّسة النبأ الثقافيّة» إلى توفير هذا السفر التفسيرىّ القيّم بين يدى القرّاء المهتمّين فقد صمّمت هذه المؤسّسات على التعاون وتشريك جهودها فى سبيل طباعته طبعةً ثانيةً عسى أن تسهم فى تلبية بعض ما

ينشده طلاّب المعرفة من البحوث والدراسات الأصيلة.

وهنا نجد لزاما علينا أن نتقدّم بالشكر والتقدير إلى سماحة الأُستاذ حسين الدرگاهى الذى تفضّل بالموافقة على تجديد طباعة الكتاب، متمنّين له مزيد التوفيق ودوام الصحّة.









فهرس المطالب

قال تعالىٰ :

۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

قد جرت سنّةُ الله المقدّسة الحميدة في إرسال الرّسل والأنبياء، وتشريع الأحكام والشرائع والسنن اللّازمة؛ لإصلاح الخلق وإبطال المفاسد والخرافات، والخسارات الواردة من هذه الناحية، مع التفاضل والتفاوت بين الأنبياء والرّسل الكرام، وكذلك العلوم والمعارف، والأحكام والشرائع الخاصّة بكلّ واحد منهم. ويحتاج تحقيق ذلك إلىٰ بسط الكلام في كلّ واحد منهم من خلال الوظائف الّتي قام بها في زمانه، وهو خارج عن البحث التفسيريّ.

قوله تعالىٰ : «منهم مَن كلّم اللهُ» .

هذا الكليم هو موسى بن عمران عليه السلام، فإنّ له مقامات كريمة، كلّمه

الله تعالىٰ فيها بصرح آيات القرآن. قال تعالىٰ :

«وكلّم الله موسىٰ تكليماً». [النساء (٤)/١٦٤]

و«ولمّا جاءَ موسىٰ لميقاتنا وكلّمهُ ربُّه قال ربِّ أَرني أَنظر إليكَ». [الاعراف (٧)/١٤٣]

قوله تعالىٰ : «ورفع بعضهم درجاتٍ».

القرآن الكريم مشحون بآياتٍ كثيرة تتحدث عن إكرام الله سبحانه وتعالىٰ أنبياءَه ورسلَه بكرامات ومقامات، وألطاف وفيوضات، ونوّه القرآن الكريم بأسمائهم كرامةً لهم، وصرّح بصدق ماهدوا الله عليه، ووفائهم بما عهده إليهم، وقيامهم بالوظائف الّتي يعلمونها بتعليمه ـ تعالىٰ ـ لهم. على اختلاف درجاتهم في هذه المقامات والكرامات.

قوله تعالىٰ : «وآتينا عيسى ٱبنَ مريمَ البيّنات»، من إحياء الموتىٰ، وإبراء الأكمه والأبرص، ونيله كرامة النبوّة وهو طفل، وعمله من الطين شكل طير، ثم نفخه فيه فيصير طيراً بإذن الله، وغيرها من الآيات البيّنات. قال تعالى :

«إذ قالت الملائكة يا مريم إنَّ الله يبشّرك بكلِمةٍ منه ٱسمه ٱلمسيح عيسى ٱبنُ مريم وجيهاً في الدّنيا والآخرة ومنَ المُقرّبين ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين * ... ورسولاً إلى بني إسرائيل أنّي قد جئتكم بآيةٍ من ربّكم أنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئُ الأكمه والأبرص وأُحيي الموتىٰ بإذن الله وأُنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم إنّ في ذلكَ لآيةً لكم إنْ كنتم مؤمنين». [آل عمران (٣)/ ٤٥ و ٤٦ و ٤٩]

قوله تعالى : «وأيّدناه بروح القدس».

المراد من روح القدس هو العلم الصريح، الّذي يفيضه ـ تعالى ـ على أنبيائه ورسله وأوصيائهم، فبهذا العلم يعرّفون نبوّتهم وإمامتهم وما عهده الله إليهم، وبهذا العلم يعلّمون ويبلّغون. قال تعالى :

« وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ماكنت تدري ما ٱلكتاب ولا

الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنّك لتهدي إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ». [الشورى (٤٢)/٥٢]

في الكافي ٢٧٢/١، عن محمّد بن يحيىٰ مسنداً عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن علم العالم، فقال لي:

«إنّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس وروح الإيمان وروح القوّة وروح الشهوة، فبروح القدس يا جابر عرفوا تحت العرش إلى ما تحت الثرى، ثمّ قال: يا جابر إنّ هذه الأربعة أرواح يصيبها الحدثان إلّا روح القدس فإنّها لا تلهو ولا تلعب».

وفيه أيضاً ٢٧٣/١، عن العدّة مسنداً عن أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قوله تبارك وتعالىٰ: « **وكذلك أَوحينا إليكَ روحاً من أَمرنا ماكنت تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ**». قال:

«خلق من خلق الله عزّوجلّ أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلّى الله عليه وآله يخبره ويسدّده وهو مع الأئمّة من بعده».

وفيه أيضاً، عن محمّد بن يحيىٰ مسنداً عن أسباط بن سالم قال: سأله رجل من أهل هيت ـ وأنا حاضر ـ عن قوله الله عزّ وجلّ: « **وكذلك أَوحينا إليك روحاً من أمرنا**» فقال: «منذ أَنزل الله عزّ وجلّ ذلك الرّوح على محمّد صلّى الله عليه وآله ما صعد إلى السماء، وإنّه لفينا».

وقد تقدّم بعض الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى: «**وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيّناتِ وأيّدناه بروح القدس**». [البقرة (٢)/٨٧]، وكتبنا في ذلك رسالة «الروح في القرآن» المطبوعة في الجزء الثلاثين ذيل سورة النبأ

«قوله تعالىٰ: «ولو شاء الله ما اقتتل الّذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البيّنات».

أي لو شاء الله ما اقتتل الّذين من بعد الرسل بعدما جاءتهم الحجج القاطعة والبراهين النيّرة على الرّسل ويشهدها الناس ويرونها علانية مثل البيّنات التي

أكرم الله بها عيسى ابن مريم عليه السلام وغيره من الأنبياء الكرام.

قوله تعالىٰ: «ولكن اختلفوا فمنهم مَن آمن ومنهم مَن كفر».

فإنّهم بعدما قامت الحجج الإلهيّة عليهم اختلفوا فمنهم من شملته الألطاف الإلهيّة فآمن ومنهم من عصىٰ وطغىٰ. وكان إيمان المؤمنين وكفر الكافرين باختيار منهم وعلم.

قوله تعالىٰ: «ولو شاء الله ما اقتتلوا».

أي إنّ الله تعالىٰ لم يلجئهم على الاقتتال، وكذلك لم يجبرهم على عدمه بل الله سبحانه أرسل إليهم حججه وأنبياءه وأوضح بهم المحجّة وكلّفهم بالايمان به تعالى وبرسله وأنبيائه وشرائعه وجعلهم مختارين في ذلك ليحيىٰ من حيّ بيّنة ويهلك من هلك عن بيّنة.

قوله تعالىٰ: «ولكنّ الله يفعل ما يريد». (٢٥٣)

قال في نفحات الرحمٰن ١٧٦/١: ولكن الله بقدرته الكاملة يفعل ما يريد من الخذلان والعصمة عدلاً وفضلاً.

قوله تعالىٰ: «يا أيّها الّذين آمنوا انفقوا ممّا رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خُلّة ولا شفاعة».

الآية الكريمة في مقام الموعظة والنصيحة للنّاس، وتأمرهم بإنفاق المال في سبيل الله ومرضاته، وترغّبهم في ذلك، وتحذّرهم من تفويت الفرصة، وإتلاف الوقت فيحلّ قضاء الله عليهم بالموت الذي يحول بينهم وبين الخيرات، فيصير المال حسرة وندامة ووبالاً في يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة. والعجب أنّ امتثال هذا الأمر قد صعب على بعض الناس، ويحرّمون أنفسهم من هذه الفريضة العظيمة والسنّة الحسنة الجميلة بالبخل والعصيان.

قوله تعالىٰ: «والكافرون هم الظّالمون». (٢٥٤)

الكافرون لعدم إيمانهم بشيء ممّا ذكر في الآيات الكريمة هم الظّالمون لأنفسهم.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

قوله تعالىٰ: «الله لا إلٰه إلّا هو الحيّ القيّوم».

قد تقدّم البحث في لفظ الجلالة وكلمة التوحيد في سورة الفاتحة وسيجيء أيضاً في قوله تعالىٰ: «الله لا إلٰه إلّا هو الحي القيّوم». [آل عمران (٣)/٢]

قوله تعالىٰ: «لا تأخذه سِنة ولا نوم».

تنزيه لله سبحانه عن النعاس والنوم.

في مجمع البحرين ٣٢٥/٦: «لا تأخذه سنة ولا نوم» السنة فتور يتقدّم النوم.

وفي لسان العرب ٤٤٩/١٣: «لا تأخذه سنة ولا نوم» أي لا يأخذه نعاس ولا نوم، وتأويله أنّه لا يغفل عن تدبير أمر الخلق تعالىٰ وتقدّس... والسِنَة: نعاس يبدأ في الرأس، فإذا صار إلى القلب فهو نوم.

وقال في آلاء الرحمٰن/٢٢٧: «لا تأخذه» لا تغلبه وتستولي عليه «سِنَة» بل «ولا نوم».

قوله تعالىٰ: «له ما في السمٰوات وما في الأرض».

تمجيد لله تعالىٰ بالمالكيّة المطلقة، وقد تقدّم في سورة الفاتحة أنّ المالكيّة نعت وجر ديّ لله سبحانه، وأنّ تفسيره بالقيّوميّة ليس بصحيح، فإنّ القيوميّة هو قوام ما

سواه تعالىٰ به سبحانه. وقد تقدّم في تفسير قوله تعالىٰ: «والله يؤتي ملكه من يشاء». [البقرة (٢)/٢٤٧]، أنّ المالكيّة من نعوته وكمالاته الّتي يجب إثباتها فيه تعالىٰ، وأنّ مع فرض المالكيّة في مرتبة الذّات علىٰ كلا طرفي الفعل والترك ترد المالكية والقدرة على المرجّحات فيكون إيجاده تعالى المخلوقات، وتركه لها عن اختيار ورأي منه سبحانه بالمالكيّة الذاتيّة للاختيار والرأي.

قوله تعالىٰ: «مَن ذا الّذي يشفع عنده إلّا بإذنه».

الشفاعة مأخوذة من الشفع وهو ما يقابل الوتر.

قال في لسان العرب ١٨٣/٨: الشفع: خلاف الوتر؛ وهو الزوج.

وقال في مجمع البحرين ٣٥٤/٤: وشفعت الشيء شفعاً من باب نفع: ضممته إلى الفرد.

وقال في أساس البلاغة /٢٣٨: وكان وتراً فشفعته بآخر؛ وهو مشفوع به.

أقول: لا يخفىٰ عند أولي الألباب أنّ تفرّده ـ تعالىٰ ـ وتوحّده ـ سبحانه ـ في جميع شؤون الوهيّته وربوبيّته يقضي ويحكم بأنّ أمر الخلق وجميع ما يرجع إليه من حيث التكوين والتشريع، ملك طلق له تبارك وتعالى ـ أزلاً وأبداً، في الدنيا والآخرة، إلّا أنّه يكون ظهور تلك المالكيّة في الآخرة أشدّ وأجلىٰ، لإبطال الاختيارات والمالكيّات، ورجوع الأمانات من القدرة والسلطة والنعمة الىٰ مالكها وواهبها الملك الحقّ القيّوم، فخشعت له الأصوات وعنت الوجوه لله الواحد القهّار مطيعين مقنعي رؤوسهم لا يرتدّ إليهم طرفُهُم.

إذا تقرّر ذلك فنقول: الآيات المتعرضة لأمر الشفاعة على طوائف:

منها ما يدّل علىٰ أنّ اليوم انقطعت بهم الأسباب: وخذلتهم الحيل، وخانهم التناصر، لا بيع ولا خلّة ولا شفاعة ولا فداء. قال تعالىٰ:

«واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون». [البقرة (٢)/٤٨]

ومنها ما يدلّ على مالكيته ـ تعالى ـ لأمر الشفاعة وتوحّده ـ سبحانه ـ فيها. قال تعالىٰ:

«قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السّمٰوات والأرض ثمّ إليه ترجعون».
[الزمر (٣٩)/ ٤٤]

ومنها ما يدلّ علىٰ إبطال الشركاء والأضداد والأنداد والأصنام، وإبطال الاعتماد على شفاعتهم. قال تعالى:

«ولقد جئتمونا فرادىٰ كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم وما نرىٰ معكم شفعاءكم الذين زعمتهم أنهم فيكم شركاء لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون». [الانعام (٦)/ ٩٤]

لا يخفىٰ أنّ هذه الطوائف الثلاث من الآيات وما يجري مجراها غير ناهضة لنفي الشفاعة، بمعنى نفي إذنه ـ تعالىٰ ـ أو استحالة إذنه ـ سبحانه ـ لأحد من عباده المقرّبين أن يشفع في من أذن له بالشفاعة فيه. ضرورة أنّ نفي التناصر والتعاضد والخلّة والفداء، وانقطاع الأسباب والحيل، حقّ الكفّار يوم القيامة، وظهور سطوته على أعدائه، وذلّتهم وهوانهم في ذلك اليوم كما هو مفاد بعض هذه الآيات. ومفاد بعض آخر التحفّظ على أصول التوحيد من مالكيّته ـ تعالى ـ لأمر الشفاعة، ولجميع شؤون الخلق تشريعاً وتكويناً في الدّنيا والآخرة، ومفاد بعض آخر تقبيح عقائد المشركين من عبادة الأصنام من دون الله، وجعلها شفعاء من دون الله، ومن دون إذنه بالاستقلال، فلا مساس لهذه الطوائف الثلاث لأمر الشفاعة بإذن الله نفياً وإثباتاً، وإمكاناً واستحالةً.

وأمّا الآيات الّتي تدلّ علىٰ إمكان الشفاعة وإثباته بإذن الله لمن ارتضى الله ـ تعالى ـ فكثيرة. قال تعالىٰ:

«وقالوا اتخذ الرّحمٰن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلمُ ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ وهم من خشيته مشفقون». [الانبياء (٢١)/ ٢٦ ـ ٢٨]

فإنّ هؤلاء المقرّبين يشفعونَ لمن ارتضى الله تعالى. إذ الاستثناء من النفي

إثبات لشيء من الأمر المنفي.

و«**يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمٰن فلا تسمع إلّا همساً يومئذٍ لا تنفع الشفاعة إلّا من أذن له الرحمٰن ورضي له قولاً**». [طه (٢٠)/١٠٨ و ١٠٩]

و«**وكم من ملكٍ في السّمٰوات لا تُغني شفاعتهم شيئاً إلّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاءُ ويرضىٰ**». [النجم ٢٦/٥٣]

فالآيات الكريمة صريحة في جواز الشفاعة وقبولها، ورضائه تعالىٰ بها، فإنّ الله ـ سبحانه ـ مالك العفو ووليّه، فله ـ تعالى ـ العفو عن ذنوب عباده ابتداءً وتفضّلاً، وله ـ تعالى ـ الأخذ عدلاً ومجازاةً، ولا يجب القيام بالوعيد وإعماله في كل مورد، كما أنّ له ـ تعالىٰ ـ العفو عن عباده المذنبين بالأسباب الّتي ذكرها في كتابه الكريم، وجعلها طريقاً إلى عفوه ووصلةً إلىٰ غفرانه مثل التوبة والشفاعة وغيرهما من الأسباب. قال تعالىٰ:

«**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً**». [النساء (٤)/٣١]

و«**قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفرلهم ما قد سلف**». [الانفال (٨)/٣٨]

وغيرهما من الآيات، فله ـ تعالى ـ العفو وغفران الذنوب بالتوسّل بكلّ واحد من هذه الأسباب، وله ـ تعالى ـ إعمال الفضل والرحمة وابتداءً من دون التوسّل بها. والظاهر من هذه الآيات أنّ مورد الشفاعة هو المؤمن المذنب، وأنّ الشفاعة عامّة وشاملة لجميع المواطن وليست مختصّة بموطن دون آخر.

ومقتضى إطلاق بعض هذه الآيات، وصريح بعضها في الجملة، أنّه لا ينحصر مورد الشفاعة ومتعلّقها بغفران الذنوب فقطّ، بل الأعمّ منها، ومن نيل الطلبات وكشف الكربات ورفع الدرجات وقضاء الحاجات.

والآيات الكريمة صريحة في أنّ الشفاعة أمرٌ اختياري للمقرّبين فالأنبياءُ والصدّيقون إنّما يشفعون بأمر الله وإذنه باختيار منهم، لا أن تكون الشفاعة أمراً

تكوينيّاً، وعبارة عن تأثير نفوس الأنبياء -عليهم السلام- في متعلّق الشفاعة.

وقد تقدّم بعض الكلام في الشفاعة في تفسير قوله تعالى: **«واتقوا يومًا لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة»**. [البقرة (٢)/٤٨]

فلنرجع إلىٰ تفسير الآية المبحوث عنها، فقوله تعالىٰ: **«مَن ذا الّذي يشفع عنده»** الاستفهام إنكاريّ أي لا يقدر أحد، ولا يمكن له أن يشفع عنده تعالىٰ؛ لأنّ الشفاعة مداخلة وتصرّف في شؤون التكوين، فلا يمضىٰ ولا ينفذ إلّا بإنفاذه تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: **«إلّا بإذنه»** استثناء من النفي المطلق. وضروريّ أنّ الاستثناء من الأمر المنفي إثبات لشيء منه. فالآية المباركة ناصّة وصريحة في نفوذ الشفاعة وجوازها، والترخيص فيها بإذنه -تعالىٰ- وبعد تمليكه -تعالى- الشفاعة لمن أذن له من عباده الصالحين. فإذنه تعالى هو تخلية السبيل لنفوذ شفاعة الشافعين، وجعلهم مجازين في الشفاعة فإنّه لا يمكن لأحد التصرّف في شؤون التكوين إلّا بمشيئته وإرادته، وقدره وقضائه وإذنه تعالىٰ.

في الكافي ١٤٩/١، عن العدّة مسنداً عن حريز بن عبدالله، وعبدالله بـه مسكان جميعاً عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال:

> لا يكون شيء في الأرض ولا في السّماء إلّا بهذه الخصال السبع: بمشيئة إرادة وقدر وقضاء وإذن وكتاب وأجل، فمن زعم أنّه يقدر على نقض واحدة فقد كفر.

وفي الخصال/ ٣٥٩، عن أبيه مسنداً عن زكريّا بن عمران، عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام قال:

> لا يكون شيء في السّماوات والأرض إلّا بسبعة: بقضاء وقدر وإرادة ومشيئته وكتاب وأجل وإذن، فمن قال غير هذا فقد كذب على الله [أ] وردّ على الله عزّ وجلّ.

قوله تعالىٰ: «يعلم ما بين أيديهم وماخلفهم».

في تفسير القمي ٨٤/١، عن أبيه، عن الحسين بن خالد أنّه قرأ أبو الحسن الرضا عليه السلام... قال:

«ما بين أيديهم». فأمور الأنبياء وما كان **«وما خلفهم»**أي، مالم يكن بعد.

أقول: ما كان ومالم يكن بعدُ كلاهما من جملة الغيوب، وقد أحصىٰ علمُه ـسبحانه ـ جميع ما كان، وجميع مالم يكن وهما من الأعدام، بعبارة أخرى المعلوم عين هذه الحوادث، ولا حوادث الآن، فهو ـسبحانه ـ علم وعيان وشهادة بالحقيقة بهذه الحوادث، ولا حوادث الآن بوجه من الوجوه.

في التوحيد/ ١٣٥، عن أبيه مسنداً عن منصور بن حازم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له:

أرأيت ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أَليس كان في علم الله؟

قال: فقال: بلىٰ قبل أن يخلق السّماوات والأرض.

قوله تعالىٰ: «ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء».

حيث إنّ الله ـتعالىٰ ـ علم وكشف وعيان بذاته لجميع ما سواه في عرض سواء في شدّة غير متناهية، كليّاته وجزئيّاته، أعيانه وحوادثه ولا معلوم خارجاً بوجه، والذات المقدسة والعلم غير المتناهي آب عن التعيّن والتحديد بشيء من النظامات الموجودة وغيرها، فلابدّ من أن يكون المراد من قوله تعالىٰ: **«من علمه»** هو غير هذا العلم من الصحف النوريّة من العرش والكرسي والكتاب المبين والكتاب المكنون، الّتي هي علم وانكشاف حقيقيّ. وحمّل الله ـتعالىٰ ـ ذلك العلم لعدّة خاصّة من أوليائه الصالحين.

قوله تعالىٰ: «وسع كرسيّه السّمٰوات والأرض».

لا يخفىٰ عند أولي الألباب أنّ كرسيّه ـتعالى ـ الّذي وسع السّماوات والأرض ليس هو الكرسي المصنوع من الخشب أو الحديد أو الذهب والفضّة. وسعته تكون من باب إحاطة العلم والعيان أو من باب إحاطة القدرة والسلطان، وبديهيّ أنّ إحاطة القدرة بشيء إنّما تكون بإحاطة العلم بذلك الشيء.

وحيث إنّ قوله تعالىٰ: **«يعلم ما بين أيديهم»** تمجيد له ـتعالى ـ بالعلم، وقوله تعالىٰ: **«وسع كرسيّه ...»** متّصل به وواقع في سياقه، فله ظهور قويّ في أنّ المراد من الكرسي هو العلم، ومن سعته هو إحاطته بالسّماوات والأرض.

في التوحيد/٣٢٧، عن أبيه مسنداً عن حفص بن غياث قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: « **وسع كرسيّه السمٰوات والأرض**» قال: علمه.

وفيه أيضاً، عن أبيه مسنداً عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السّلام في قوله الله عزّ وجل: «**وسع كرسيّه السمٰوات والأرض**» فقال:

السماوات والأرض وما بينهما في الكرسي، والعرش هو العلم الّذي لا يقدّر أحد قدره.

في التوحيد/٣٢٨، عن محمد بن الحسن بن أحمد مسنداً عن زرارة قال: سألت ابا عبدالله عليه السلام عن قوله الله عزّ وجلّ: «**وسع كرسيّه السمٰوات والأرض**» السماوات والأرض وسعن الكرسيّ أم الكرسيّ وسع السماوات والأرض؟ فقال:

إن كلّ شيء في الكرسي.

وفي الكافي ١٣٠/١، عن العدّة، عن أحمد بن محمّد البرقي رفعه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

... فالكرسيّ محيط بالسماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرىٰ، وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السرّ وأخفىٰ.

أقول: هذه الروايات تدلّ على ما استظهرناه من الآية الكريمة، من أنّ المراد من الكرسيّ في الآية المباركة هو العلم الّذي وسع السماوات والأرض وما فيهما، وهذا الكرسي الرفيع محيط بما علم به من السّماوات والأرض إحاطة عيان وانكشاف، لا علىٰ نحو الانطباع والعلم الحصوليّ. وليس قوله تعالىٰ: «**وسع كرسيّه السمٰوات والأرض**». ولا الروايات الواردة في تفسيرها مسوقة لبيان كينونة الأشياء في الكرسيّ بنحو من أنحاء الوجود.

قوله تعالى: «ولا يؤوده حفظهما».

قال في لسان العرب ٧٤/٣: آده الأمر أوْداً وأُوُوداً: بلغ منه المجهود والمشقّة...

لايتآداه: لا يثقله.

أقول: حيث إنّ ظاهر الآية في مقام التقديس والتنزيه فالأنسب بالمقام، والأصرح في إفادة التقديس هو المعنى الأوّل. وإنْ كان الثاني صريحاً في التنزيه أيضاً. ويمكن أن يراد كلا المعنيين لتلازمهما عادة... والحفيظ هو المهيمن على كلّ نفس بما كسبت والقائم عليها، والحافظ هو الّذي يحفظ الشيء من أن يفنىٰ ويزول ويتشتّت، فسبحان الّذي لا يثقل عليه حفظ السّماوات والأرض ولا يجهده جلّ ثناؤه، فإنّ الثقل والتواني من لوازم الجسم.

قوله تعالىٰ: «وهو العليّ العظيم». (٢٥٥)

في النهج، الخطبة /٢١٣، قال عليه السلام:

الحمد لله العليّ عن شَبَه المخلوقين.

الظاهر أنّ هذا الاسم الكريم تنزيه لله ـ تعالىٰ ـ عمّا يتوهّم من لوازم الأجسام والأشخاص فيه ـ سبحانه ـ من الاستثقال والتواني والجهد والمشقّة، فهو العليّ عن الأنداد والأضداد، وأن يشترك في أمره معين أو يساعده عليه وزير.

وقوله تعالىٰ: «**العظيم**» لم أقف فيه على نصّ بخصوصه أنّ المراد بهذا الاسم الشريف التمجيد أو التنزيه.

في التبيان ٣١١/٢، «**العظيم**» معناه عظيم الشأن بأنّه قادر ولا يعجزه شيء، وعالم لا يخفىٰ عليه شيء، فلا نهاية لمقدوره ومعلومه.

أقول: حيث لم يوجد نصّ في الآية حتّىٰ يوقفنا على كون المراد من العظيم التمجيد، فيكون حمل هذا الاسم الشريف على التنزيه أولىٰ، فإنّا لا ندري ما أريد من هذا الاسم، وتفسيره بما يرجع إلىٰ معاني الأسماء المقدّسة الأخرىٰ من الكبرياء والجلال ونحوهما لا يرجع إلىٰ محصول، فإنّه التزام بالترادف وهو كما ترىٰ.

قال في الميزان ٣٣٦/٢: وجملة «وهو العليّ العظيم» لا تخلو عن الدلالة على الحصر، وهذا الحصر إمّا حقيقيّ كما هو الحقّ، فإنّ العلوّ والعظمة من الكمال وحقيقة كلّ كمال له تعالىٰ...

أقول: لا كلام في توحده ـ سبحانه ـ في معاني الأسماء المقدّسة وتفرّده بها

بالحقيقة بالاشتراك اللّفظي، نعم بناءً على الاشتراك المعنوي لابدّ من إثبات أنّ أصل العلوّ والعظمة وكلّ كمال وجودي، وحقيقتها لله ـ تعالىٰ ـ وحده لا شريك له. إلّا أنّ الكلام في أصل الاشتراك المعنوي، وأنّ المواهب والكمالات الّتي مَنَّ اللهُ علىٰ عباده، وصاروا واجدين لها مشتركة مفهوماً بينه ـ تعالىٰ ـ وبين عباده لا مصداقاً، إذ لا شباهة بينه ـ تعالىٰ ـ وبين عباده في شيء لا مفهوماً ولا مصداقاً. وهذا لا يوجب التعطيل كما فصّلناه في تفسيره سورة الفاتحة.

لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

قوله تعالىٰ: «لا إكراه في الدين».

قال في لسان العرب ١٣/٥٣٤: ابن سيده: الكَرْه الإباء والمشقّة تكلّفها فتحتملها والكُرْه ـ بالضّم ـ المشقّة تحتملها من غير أن تكلّفها... وإنّما سمّي الشرّ مكروهاً لأنّه ضدّ المحبوب... وأكرهته: حملته على أمر هو له كاره.

أقوله: الظاهر أنّ المراد من قوله تعالىٰ: «لا إكراه» هو الإكراه التكويني من الله تعالىٰ وهو ما يقابل الاختيار. واستعمال الإكراه في هذا المعنىٰ كثير جدًّا.

في التوحيد /٣٤٨، عن محمّد بن الحسن بن أحمد مسنداً عن علي بن أسباط عن الرضا عليه السلام قال:

... ولم يطع الله بإكراه ولم يعص بلغبة.

وفيه أيضاً/ ٣٥٣، عن أحمد بن محمد مسنداً عن حريز، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

رفع عن أُمّتي تسعة: الخطأ والنسيان، وما أكرهوا عليه...

فعلىٰ هذا يكون معنىٰ قوله تعالىٰ: **«لا إكراه في الدين»** أي إنّ دين الله لا يتديّن بإكراه وإلجاءٍ تكويناً مثل قوله تعالىٰ: **«إنّا هديناهُ السّبيلَ إمّا شاكراً وإمّا كفوراً»**. [الدهر (٧٦)/٤]

في التوحيد/ ٤١١، عن محمّد بن عليّ ماجيلويه مسنداً عن حمزة بن الطيّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

... **«إنّا هديناه السّبيلَ إمّا شاكراً وإمّا كفوراً»** قال: عرّفناه إمّا آخذاً وإمّا تاركاً.

وفيه أيضاً /٣٤١، عن تميم بن عبدالله مسنداً عن أبي الصلت عبدالسلام بن صالح الهرويّ قال: سأل المأمون يوماً علي بن موسى الرضا عليهما السلام فقال له: يا ابن رسول الله ما معنىٰ قول الله عزّ وجلّ: **«ولو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلّهم جميعاً أفانت تكره النّاس حتّىٰ يكونوا مؤمنين * وما كان لنفس أن تؤمن إلّا باذن الله»**. [يونس (١٠)/٩٩ ـ ١٠٠]، فقال الرّضا عليه السلام:

حدّثني أبي موسىٰ بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمّد، عن أبيه محمّد ابن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن عليّ، عن أبيه علي بن أبي طالب عليهم السلام أنّ المسلمين قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وآله: لو أكرهت يا رسولَ الله مَن قدرتَ عليه من الناسِ على الإسلامِ لَكثُر عددُنا وقوينا علىٰ عدوِّنا.

فقال رسولُ الله صلىٰ عليه وآله: ما كنتُ لألقىٰ اللهَ عزّ وجلّ ببدعة لم يحدث إليّ فيها شيئاً وما أنا من المتكلّفين.

فأنزل اللهُ تبارك وتعالىٰ: يا محمّد **«ولو شاء ربّك لآمن مَن في الأرض كلّهم جميعاً»**. على سبيل الإلجاء والاضطرار في الدّنيا. كما

يؤمنون عند المعاينة ورؤية البأس في الآخرة، ولو فعلت ذلك بهم لم يستحقّوا منّي ثواباً ولا مدحاً، لكنّي أُريد منهم أن يؤمنوا مختارين غير مضطرّين؛ ليستحقّوا منّـي الزلفىٰ والكرامة ودوام الخلود في جنّة الخلد...

قال البيضاوي في تفسير ١٣٤/١: «**لا إكراه في الدين**»... قيل إخبار في معنى النهي، أي لا تكرهوا في الدّين؛ وهو إمّا عامّ منسوخ بقوله: «**جاهد الكفّارَ والمنافقين واغلظ عليهم**». [التوبة (٦)/٧٣] أو خاصّ بأهل الكتاب؛ لما روي أنّ أنصاريًّا كان له ابنان، تنصّرا قبل المبعث، ثمّ قدما المدينةً فلزمهما أبـوهما وقـال: واللهِ، لا أدعكما حتىٰ تسلما فأبيا، فاختصموا إلىٰ رسول الله (ص) فقال الأنصاري: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر إليه فنزلت فخلّاهما.

وقال في الميزان ٣٤٣/٢: فقوله «**لا إكراه في الدين**» إن كان قضيّة إخباريّة حاكية عن حال التكوين، أنتج حكما دينيًّا بنفي الإكراه على الدّين والاعتقاد. وإن كان حكماً إنشائيًّا تشريعيًّا كما يشهد به ما عقّبه ـ تعالىٰ ـ بقوله: «**قد تبيّنَ الرشدُ مِنَ الغيّ**» كان نهياً عن الحمل على الاعتقاد والإيمان كرهاً، وهو نهي متّكٍ علىٰ حقيقة تكوينيّة.

أقول: الآية الشريفة ظاهرة في نفي الإكراه التكويني كما ذكرنا لا التشريعيّ. والمراد، رفع الإكراه في الدّين سواء قلنا: باختصاصه بالأحكام التكليفيّة، أو الأعمّ منها ومن الوضعيّة، فإنّ الدّين عبارة عن مجموع العقائد الحسنة، الّتي تجب معرفتها والإقرار والاعتراف بها، وكذلك الأحكام والفرائض والوظـائف المـقرّرة مـن الله ـ سبحانه ـ على عباده، فعلىٰ هذا يشمل إطلاق الآية جميع المكلّفين، ولا اختصاص بهذا الامتنان ورفع الإكراه للكفّار فقط. ولو تكلّف متكلّف وقال: إنّ المـراد، لا إكراه على الدين، فلا يجـوز إكراه الكفّار على الدّين بالسيف فنقول: هذا خـلاف ظاهر سياق الآية أوّلاً. وثانياً يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّه أيضاً إكراه على الدّين لا في الدّين.

فالظاهر من جميع ما ذكرنا ـ والله العالم ـ أنّه لا إكراه في الدين مطلقاً أصولاً

وفروعاً، فريضة أو فضيلة، فإنّ الله تعالىٰ لا يطاع بإكراه وغلبة كما لا يعصىٰ كذلك، فمن غلب الله عليه وأكرهه في أفعاله، أو فعل من أفعاله فهو له عذر مؤمناً كان أو كافراً.

فعلىٰ هذا لا منافاة بين هذه الآية وآيات القتال، فلا تكون الآية منسوخة بها ولا مخصّصة، فإنّه قد تقدّم البحث في آيات القتال في وجوب الجهاد، وأنّ الدّعوة إلىٰ الحقّ حقٌّ مشروع لله -تبارك وتعالىٰ- ولأوليائه، ولهم المطالبة بهذا الحقّ الثابت المشروع من كلّ فرد وفرد.

قوله تعالىٰ: «قد تبيّنَ الرشدُ مِنَ الغيّ».

أقول: تبيّن أمّهات المسائل وأصول الدعوة، ووضوحها بالنسبة إلىٰ جميع المكلّفين من الأمور اللّازمة في الدّعوة إلى الله سبحانه، فدين الله هو الدّين القيم المتّكي في دعوته علىٰ إيثار دفائن العقول، وإيقاظ الفطرة، والتذكير بما فطر الله الناس عليها، وبإتقان الصّنع وبدائع الخلقة. ومآل التذكير بالآيات هو أنّها مخلوقات، وعليها آثار الصّنع وعلامات التدبير العمدي، فسبحان من تجلّى بخلقه لخلقه. ونتيجة التذكير رفع الغفلات، وإيجاد التوجّه بما أودع الله في ذوات الناس من المعرفة الفطرية. قال تعالىٰ:

«ولئن سألتهم من خلق السّمٰوات والأرض ليقولنّ الله». [الزمر (٣٩)/٣٨]

في التوحيد/ ٨٣، عن محمّد بن محمّد بن عصام الكليني مسنداً عن أبي هاشم الجعفريّ: قال: سألتُ أبا جعفر الثاني عليه السلام: ما معنى الواحد؟ قال:

الّذي اجتماع الألسن عليه بالتوحيد، كما قال الله عزّ وجلّ: «ولئن سألتهم ...».

وهذا غير ما نهج به الألسن من إقامة الدليل، والبرهان الاصطلاحي والفنّي الّذي اختصّ به قوم من الحذّاق المتضلّعين بهذا الفنّ. وليس أكثر هذه البراهين إن لم يكن جلّها مما ارتكزت عليه عقول العموم وأفكارهم.

والظاهر من موارد الاستعمال أنّ الرّشد هو الهداية والعلم، مع عناية الإقدام

للعمل طبق العلم. قال تعالىٰ: «فإن آنستم مِنهم رشداً» [النساء (٤)/٦] فإنّ استيناس الرشد إنّما يحصل من تتبّع أعمالهم وأقوالهم، فيكون الغيّ أيضاً نفس الضلال بعناية الإقدام والجري العملي طبق جهله وعماه، فعلىٰ هذا يكون المتبيّن هو نفس العمل الحقّ من الباطل.

قوله تعالى: «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله».

قال في لسان العرب ٩/١٥: والطاغوت يقع على الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث، وزنه فَعَلُوت إنّما هو طَغَيُوت قدّمت الياء قبل الغين، وهي مفتوحة وقبلها فتحة فقلبت ألفاً.

قال في مجمع البيان ٣٦٤/٢: «**فمن يكفر بالطاغوت**» فيه أقوال: أحدها أنّه الشيطان عن مجاهد وقتادة؛ وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام...

قال في الميزان ٣٤٤/٢: وإنّما قدّم الكفر على الإيمان في قوله: «**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله**»، ليوافق الترتيب الّذي يناسبه الفعل الواقع في الجزء، أعني الاستمساك بالعروة الوثق، لأنّ الاستمساك بشيء إنّما يكون بترك كلّ شيء والأخذ بالعروة، فهناك ترك ثمّ أخذ فقدّم الكفر وهو ترك على الإيمان وهو أخذ ليوافق ذلك.

أقول: لا احتياج في تحقّق عنوان الكفر إلىٰ تقدّم الإيمان ولا في تحقّق عنوان الإيمان إلىٰ تقدّم الكفر، وإنّما يحتاج تحقّق كلّ واحد منهما إلىٰ تبيّن الحجّة ووضوح المحجّة، ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيّ عن بيّنة، وباختيار من المكلّف ومشيئة منه. نعم، التحلّي والتولّي لا يتحقّقان إلّا بعد التخلية والتبرّي[1]، إلّا أنّ استفادة هذا من ظاهر الآية تحتاج إلىٰ نصّ خارجيّ لا بمجرّد الذوق والاستحسان.

والإيمان هو الإذعان بما عرف من الحقّ والتسليم في مقابله، وليس المراد أنّ مجرد الإذعان لله من دون اشتراط الأعمال والفرائض وترك الجنايات يضمن

---

١ ـ التحلّي: هو التلبس، والمراد به ما يساوي الحلول؛ ويقابله الخلو والتفرغ.

فلاحهم، بل الإيمان بالله مع الشرائط المأخوذة فيه المقرّرة في الكتاب والسنّة يوجب الفلاح والسعادة، كما أنّ الكفر بالطاغوت لا يتحقّق إلّا بالخلاص من حبائلهم ومصائدهم، ولو في الجملة في مهامّ الجنايات وأصولها.

قوله تعالىٰ: «فقدِ استمسكَ بالعروة الوثقىٰ لا انفصامَ لها».

الاستمساك هو الأخذ بعنوان الطلب، وبعناية الإدامة والإبقاء، وقد حصل له بالتصدّي والاجتهاد، لا بالصدفة من دون طلب وإعمال عمل، وتبصّر وتفهّم.

قال في لسان العرب ٤٨٧/١٠: الجوهري: أمسَكْت بالشيء وتمسّكتُ به واستمسكت به، وامتَسَكْتُ، كلّه بمعنى اعتصمت.

وفيه أيضاً ٤٥/١٥: وعروة الدّلو والكوز ونحوه: مقبضه.

أقول: من كفر بالطاعوت وآمن بالله فقد اعتصم بالعروة الوثقى الّتي لا تنقطع ولا تنكسر، ولا تزول من قبل نفسه أصلاً، فإنّ الحقّ ثابت لا يزول إلّا من رفع يده منها وأعرض عنها وأدبر عنها.

قوله تعالىٰ: «**والله سميعٌ عليم**». (٢٥٦) أي سميع مقال القائلين وعليم بالضمائر والسرائر. وفيه تشويق للمؤمنين المعتصمين بالعروة الوثقىٰ والكافرين بالطاغوت، وتهديد لمَن كفر بالله وأطاع الطاغوت.

في البحار ٨٤/٢٤، عن المناقب، عن موسىٰ بن جعفر، عن آبائه عليهم السلام وأبو الجارود عن الباقر عليه السلام، وزيد بن عليّ عليه السلام في قوله تعالىٰ: «**فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ**» قال:

«مودّتنا أهل البيت».

وفي معاني الأخبار/٣٦٨، عن محمّد بن عليّ ماجيلويه مسنداً عن عبد الله ابن عباس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

مَن أحبّ أن يتمسّك بالعروة الوثق الّتي لا انفصام لها، فليتمسّك بولاية أخي ووصيّي عليّ بن أبي طالب، فإنّه لايهلك مَن أحبّه ولاينجو مَن أبغضه وعاداه.

وفي العيون ١٢٢/٢، عن عبدالواحد بن عبدوس مسنداً عن الفضل بن

شاذان، عن الإمام الرضا عليه السلام فيما كتبه للمأمون من محض الإسلام:

... وأنّ الأرض لا تخلو من حجّة الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ خلقه في كلّ عصر وأوان، وأنّهم العروة الوثقىٰ، وأئمّة الهدىٰ...

وفي البحار ٢٧٩/٣، عن المحسّن بن أحمد مسنداً عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

عروة الله الوثقىٰ: التوحيد...

قوله تعالىٰ: «الله وليّ الّذين آمنوا».

بيان: الوليّ من أسماء الله الحسنىٰ، وقد مجّد الله ـ سبحانه ـ نفسه القدّوس بهذا الاسم الشريف في عدّة موارد من آيات القرآن. قال تعالىٰ:

«وهُوَ الّذي يُنزّل الغيثَ مِن بَعدِ ما قَنَطوا ويَنشرُ رحمتَه وهو الوليُّ الحميدُ». [الشورىٰ (٤٢)/٢٨]

و**«إنّ وليّيَ اللهُ الّذي الكتابَ وهُو يـتولّى الصـالحينَ».** [الاعـراف (٧)/١٩٦]

و**«ربِّ قد آتيتني من المُلكِ وعلّمتني من تأويـل الأحـاديثِ فـاطرَ السّمٰواتِ والأرضِ أنتَ وليّي في الدّنيا والآخـرة تـوفَّني مُسـلِماً وأَلحقني بالصّالحين».** [يوسف (١٢)/١٠١]

و**«إنّما وليّكم اللهُ ورسولُهُ والّذينَ آمنوا الّـذينَ يُـقيمونَ الصّـلاةَ ويَؤتونَ الزكوٰةَ وهُم راكعون».** [المائدة (٥)/٥٥]

وغيرها من الآيات والظاهر أنّ ولاية الله لعباده من إعمال مالكيّته الذاتيّة، من حيث عطفه وحنانه علىٰ عباده الصالحين؛ من هدايتهم وكفالتهم وإرشادهم وتوفيقهم وعصمتهم وقضاء آمالهم وحوائجهم، وبالجملة بما ينجيهم من خزي الدنيا وهوان الآخرة. وطريق استظهار ذلك هو النظر إلىٰ متعلّقات الولاية المنسبة إليه ـ سبحانه ـ في إطلاقات الكتاب والسنّة، مثل إخراجهم من ظلمات المعاصي إلىٰ أنوار التوبة والخوف والخشية والحياء، ومثل توفّيهم مسلمين وإلحاقهم بالصالحين، فهو ـ جلّ وعزّ ـ متوحّد بالولاية لا شريك له وحده، ولا يقدر أحد

أن يخرج أحداً من ظلمات المعاصي إلىٰ أنوار الخشية، ولا يقدر أحد أن يلحق أحداً بالصالحين، وأن يتوفّاه مسلماً، إلىٰ غير ذلك من الموارد الّتي يتولّاها الله ـ تعالىٰ ـ ويتصدّى لها، ويتفضّل بها علىٰ عباده.

قوله تعالىٰ: «يخرجهم من الظلمات إلى النور».

ذهب أكثر المفسّرين إلىٰ أنّ الإخراج المنسوب إلى الله ـ تعالىٰ ـ ليس بالحقيقة بل المراد توفيق الله ـ تعالىٰ ـ المؤمنين للإطاعة والإيمان كي لا يقعوا في ظلمات الكفر والطغيان.

أقول: معلوم أنّه لا دليل علىٰ صرف الآية عن ظاهرها وارتكاب المجاز.

قال في الميزان ٣٤٦/٢: إنّ الإنسان بحسب خلقته علىٰ نور الفطرة، هو نور إجماليّ يقبل التفصيل، وأمّا بالنسبة إلى المعارف الحقّة والأعمال الصالحة تفصيلاً فهو في ظلمة بعدُ، لعدم تبيّن أمره... والمؤمن بإيمانه يخرج من هذه الظلمة إلىٰ نور المعارف والطاعات تفصيلاً، والكافر بكفره يخرج من نور الفطرة إلىٰ ظلمات الكفر والمعاصي التفصيليّة.

أقول: تقييد ولايته تعالىٰ للمؤمنين من حيث إخراجهم من نور الفطرة الّتي هي ظلمة بالنسبة إلى المراتب العالية، لا وجه له، فإنّه يوجب خروج جمع مهمّ من المؤمنين والمتّقين الّذين لا يصلون المراتب العالية والكمالات التفصيليّة عن ولاية الله ـ تعالىٰ ـ فيختلّ معنى الآية رأساً.

والحقّ أنّ الآية الكريمة ظاهرة في تحقّق الإيمان، وشمول الولاية الإلٰهيّة للمؤمنين. والظلمات الطارئة لاتزاحم أصل الإيمان والنور، الّذي تحقّق في سرائرهم وضمائرهم وظواهرهم. والمراد من هذه الظلمات هي الظلمات الحاصلة من المعاصي الزلّات والعثرات، فيخرج اللهُ المؤمنين من هذه الظلمات بنور التوبة، فتدركهم العناية الإلٰهيّة، ويتولّى بنفسه القدّوس، فيستنقذهم بنظرته الرحيميّة من شفا جرف الهلكات، ويغشاهم نور الخوف والخشية والحياء، ويضجّون إلىٰ ربّهم عن مقام ندم واعتراف.

قوله تعالىٰ: «والّذين كفروا أَولياؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى

الظلمات».

فأولياء الكفّار يخرجونهم من نور الإسلام والتوحيد ـ بارتكاب بعض الجنايات والفواحش ـ إلىٰ ظلمات الشرك والكفر. قال تعالىٰ:

«ثمّ كان عاقبةَ الّذينَ أساءُوا السُّوآى أن كذَّبُوا بآياتِ اللهِ وكانوا بِها يَستهزءونَ». [الروم (٣٠)/١٠]

مثل من نصب وليًّا من أوليائه ـ تعالىٰ ـ وتولّىٰ عدوًّا من أعدائه ـ سبحانه ـ ودان بولايته وتشريعه. فالمعنىٰ أنّ الّذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من نور الإسلام، لا أنّ للكافرين نوراً يخرجونهم منه.

في البحار ٣٢٢/٢٣، عن غيبة النعماني، عن الكليني مسنداً عن ابن أبي يعفور قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّي أُخالط الناس فيكثر عجبي من أقوام لا يتوالونكم، ويتوالون فلاناً وفلاناً، لهم أمانة وصدق ووفاء. وأقوام يتوالونكم ليس لهم تلك الأمانة ولا الوفاء ولا الصدق. قال: فاستوىٰ أبو عبدالله عليه السلام جالساً، وأقبل عليّ كالمغضب ثمّ قال:

لا دين لمن دان بولاية إمام جائر ليس من الله، ولا عتب علىٰ مَن دان بولاية إمام عادل من الله. قلت لا دين لأولـئك، ولا عتب علىٰ هؤلاء؟ ثمّ قال: ألا تسمع قول الله عزّ وجلّ: **«الله وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور»** من ظلمات الذنوب إلىٰ نور التوبة والمغفرة، لولايتهم كلّ إمام عادل من الله. قال: **«والّذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظلمات»** فأيّ نور يكون للكافر فيخرج منه؟ إنّما عنىٰ بهذا أنّهم كانوا علىٰ نور الإسلام، فلمّا توالوا كلّ جائر ليس من الله، خرجوا بولايتهم إيّاهم من نور الإسلام إلىٰ ظلمات الكفر، فأوجب الله لهم النّار مع الكفّار فقال: **«أولـئكَ أصحاب النّار هم فيها خالدون»**.

قوله تعالىٰ: «أولـئكَ أصحابُ النّار هم فيها خالدون». (٢٥٧)

فإنّ المسلم بعدما خرج من نور الإسلام إلىٰ ظلمات الكفر، أي الكفر

العملي، بحيث محّض فيه ولاية الطواغيت، وتبرّأ من أوليائه ـ تعالىٰ ـ وأحلّ باستحلال الطواغيت، وحرّم بتحريمهم، فلابدّ من أن يلحق بهم ويحشر معهم، وأن يدعىٰ بمن تولّاهم وتدّين بدينهم.

في تفسير العيّاشي ١٣٩/١، عن مهزم الأسدي قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول:

قال الله تبارك وتعالىٰ: لأُعذّبنَّ كلّ رعيّة دانت بإمام ليس من الله، وإن كانت الرعيّة في أعمالهم برّة تقيّة. ولأغفرنَّ عن كلّ رعيّة دانت بكلّ إمام من الله، وإن كانت الرعيّة في أعمالها سيّئة. قلت: فيعفو عن هؤلاء ويعذّب هؤلاء؟ قال: نعم، إنّ الله يقول: «اللهُ وليُّ الّذينَ آمنوا يخُرجهم من الظلماتِ إلى النور»... فأعداء عليّ أمير المؤمنين هم الخالدون في النّار، وإن كانوا في أديانهم على غاية الورع والزهد والعبادة. والمؤمنون بعليّ عليه السلام هم الخالدون في الجنّة، وإن كانوا في أعمالهم [مسيئة] علىٰ ضد ذلك.

وفيه أيضاً ٣١٧/١، عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول:

عدوّ[1] عليّ هم المخلّدون في النّار. قال الله: «وما هُم بخارجينَ مِنها». [المائدة (٥)/٣٧]

وفيه أيضاً، عن منصور بن حازم قال: قلتُ لابي عبدالله عليه السلام: «وما هُم بخارجينَ مِنَ النّار» [البقرة (٢)/١٣٧] قال:

أعداء عليّ هم المخلّدون في النّار أبدَ الآبدين ودهرَ الداهرين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ

---

١ ـ في البحار ١٣٥/١٢، أعداء عليّ.

وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

قوله تعالى: «ألم تر إلىٰ الّذي حاجّ إبراهيمَ في ربِّه».

بيان: الّذي حاجّ إبراهيمَ عليه السلام هو نمرود، وهذا الموقف، موقف جهاد إبراهيم عليه السلام على الأصنامَ وعبدتها. وبديهيّ أنّه كان بعدما تنبّأ، وتشرّف بمقام الرسالة، كما أنّ استبصاره واستيضاحه بالنجوم كان بعد نبوّته ورسالته، وبعد إراءة الملكوت، وبعدما كان حاملاً لعرش العلم، وعارفاً باسم الله الأعظم، فيكون استدلاله عليه السلام لإبطال ما دار في عصره من عبادة الشمس وغيرها من النجوم.

وأمّا نمرود فلم يعلم بعدُ أنّه كان يعتقد إلهاً من آلهة قومه، أو كان يعتقد آلهة قومه مع إله إبراهيم عليه السلام، والظاهر من محاجّته أنّه كان يحصر الربوبيّة لنفسه، ويعتقد أنّ الألوهيّة وقف خاصّ لشخصه لا ينالها أحد سواه، فعلىٰ هذا يكون موقف إبراهيم عليه السلام موقف الجهاد ضد الجاحد لا المشرك.

والظاهر أنّ الملوك كانوا في بدو أمرهم يعبدون الأصنام مثل أقوامهم، وبعد ما تعزّزوا وتجبّروا تفرّدوا بدعوى الألوهيّة كما أنّ هذا ظاهر في فرعون، فإنّه كان في بدو أمره يدافع عن آلهة قومه، ويحرّض قومه علىٰ دفع موسىٰ عليه السلام، وبعد ما تعزّز وتجبّر ادّعى الربوبيّة والألوهيّة. قال تعالى:

«وقالَ فرعونُ ذَروني أَقتُلْ مُوسىٰ وَليَدْعُ رَبَّهُ إنّي أَخافُ أن يُبَدِّلَ دِينَكُم أو أن يُظهِرَ في الأَرضِ الفَسَادَ». [المؤمن (٤٠)/٢٦]

و«وقالَ الملأُ مِن قَوْمِ فِرعَون أَتَذَرُ مُوسىٰ وقَومَهُ لِيُفسِدُوا في الأَرْضِ ويَذَركَ وآلِهَتَكَ ...». [الاعراف (٧)/١٢٧]

و«قَالَ لَئِنِ اتّخَذتَ إلهاً غَيري لأَجعلَنَّكَ مِنَ المَسجونينَ».

[الشعراء (٢٦)/٢٩]

و«وقالَ فرعونُ يا أيُّها المَلأُ مَا عَلِمتُ لكُم مِن إلٰهٍ غيري فأوقِـد لي ياهامانُ علىٰ الطينِ فَاجعلْ لِي صَرحاً لعلّي أَطّلعُ إلىٰ إلٰهِ مُوسىٰ وإنّـي لأظنُّهُ مِنَ الكاذبينَ». [القصص (٢٨)/٣٨]

إذا تقرّر ذلك فنقول: إنّ مورد الحجاج والخصام ـ كما هو صريح الآية ـ أنّ نمرود حاجّ إبراهيم عليه السلام في ربّه. والظاهر أنّه كان الحامل له علىٰ ذلك تعزّز السلطنة وعظمة الملك. ومن هنا يعلم أنّ موضوع المحاجّة ليس هو الملك كي يكون النفي والإثبات والنقض والإبرام في الملك، فلا ينبغي الترديد في أنّ الّـذي حـاجّ إبراهيم عليه السلام هو نمرود الجبّار، وهذه المحـاجّة مـنه كـفران لمـا أعـطاه الله ـ تعالىٰ ـ من البسط في المال والجاه.

وهذا قريب من قوله تعالى: «أَفبِهَذا الحديثِ أَنتُم مـدهِنونَ * وتجـعلُونَ رِزقَكُم أنّكُم تُكذِّبونَ». [الواقعة (٥٦)/٨١ و ٨٢]، فيكون الاستفهام في قوله: «ألم تَرَ إلى الّذي حاجَّ» للإنكار والتوبيخ والتعجيب من رداءة فهمه وغباوته، بأنّه كيف تجاوز عن حدّه، ولم يعرف موقع نفسه، وادّعىٰ مع عجزه وذلّته المـشهودة المعلومة له ما ليس له من المقام والكبرياء.

قوله تعالىٰ: «أن آتاه اللهُ الملكَ».

الضمير راجع إلىٰ الموصول والمراد منه ـ كما ذكرنا ـ هو نمرود. ولا إطلاق لهذا الملك حتىٰ يشمل الولاية الحقّة الّتي يملكها أولياؤه ـ تعالىٰ ـ بتمليكه سبحانه. ويكفي في دفع هذا الإطلاق صريح العقل بقبح إعطاء مقام الخلافة لأمثال هؤلاء الظالمين. والأدلّة الشرعيّة مؤيّدة لحكم العقل بأنّ عهد الله لا ينال الظالمين، فمعنىٰ إيتائه ـ تعالى ـ الملك لهؤلاء الظالمين المتصرّفين في أرض الله ومال الله، المسلّطين علىٰ رقاب النّـاس، هـو تخـلية سـبيلهم إلىٰ حـدّ مـعيّن مـقدّر إمـلاءً وسـخطاً واستدراجاً، لا أن يكون هذا الإيتاء علىٰ نحو الكرامة. قال تعالىٰ:

«ولا يحسبنّ الّذين كفروا أنّما نملي لهم خير لأنـفسهم إنّمـا نمـلي لهـم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين». [آل عمران (٣)/١٧٨]

في البحار ٢١٦/٥، عن خلف بن حمّار مسنداً عن الحسين بن الحسن قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام:

إنّي تركت ابن قياما من أعدى خلق الله لكَ. قال: ذلك شرّ له. قلت: ما أعجب ما أسمع منك جعلت فداك! قال: أعجب من ذلك إبليس، كان في جوار الله ـ عزّ وجلّ ـ في القرب منه فأمره فأبى، وتعزّز وكان من الكافرين، فأملى الله له. واللهِ، ما عذّبَ الله بشيء أشدّ من الإملاء. واللهِ، يا حسين ما عذّبهم الله بشيء أشدّ من الإملاء.

وفي النهج، الكلمات القصار /١١٦ و ٢٦٠، قال عليه السلام:

كم من مستدرج بالإحسان إليه، ومغرور بالستر عليه، ومفتون بحسن القول فيه، وما ابتلى اللهُ ـ سبحانه ـ أحداً بمثل الإملاء له.

قوله تعالىٰ: «إذ قال إبراهيم ربّي الّذي يحيي ويميت قال أنا أُحيي وأُميت».

الإحياء والإماتة من آيات الله المشهودة المعلومة. والظاهر أنّ مرجع قول إبراهيم عليه السلام، هو الاستدلال بالآيات، فإنّ كلّ من نظر في العلم نظرَ المتدبّر المستبصر، يرىٰ ويشهد أنّ الحياة والموت من أعجب النواميس الموجودة في العالم، فجميع الأحياء يتقلّبون ويتصرّفون بالحياة من دون اختيار منهم، في وجدانها وفقدانها، فتكون هذه التصرّفات والتقلّبات من مالك الحياة وقيّومها. وهذا النحو من الاستدلال إنّما هو من باب التذكّر بالآيات المشهودة المعلومة؛ وهو من سنّة القرآن المبين، وليس من باب برهان الإنّ المنتهي إلى الدور والتسلسل، ولهذا أمر الله تعالى بالتدبّر والتفكّر في الآيات والعلامات. ونتيجة هذا البرهان هو التذكّر بالحقّ القيّوم الظاهر بآياته وعلاماته وخلقه. وهذا الطور من الاستدلال الصانع، في عين أنّه تذكرة وإرشاد وإيقاظ للمتسلّم المتعلّم، احتجاج وجدال مع الخصوم المكابر فقد أخذ صلوات الله عليه في الاستدلال علىٰ نحو العامّ بافتقار العالم افتقاراً ضروريًّا ذاتيًّا للحيّ القيّوم، بديع السماوات والأرضين، وهذا الاستدلال بالنسبة إلى الكلّ تامّ لا يتطرّق إليه ريب ولا وهن.

وأمّا ما أجابه نمرود علىٰ نحو المَغْلطَة بقول: «أنا أحيي وأميت» وقد خلط

وغلط في الإحياء والإماتة بالقتل والإطلاق، فإنّه ليس الموت قتلاً ولا الإحياء إطلاقاً، فإنّما هو تشبّث ولجاج؛ لأنّ إبراهيم عليه السلام استدلّ من حيث إنّ الإماتة والإحياء آيتان من آيات الله، فلا يبطل هذا بما فعله من القتل والإطلاق.

وقد أدحض عليه السلام هذه المَغْلَطة الّتي أبرزها بصورة الحجّة بعدم تخصيص الاستدلال بالآيات بمورد خاصّ وآية واحدة، بل يجري في جميع الآيات؛ ومن جملتها إتيان الشمس من المشرق.

قوله تعالىٰ: قال إبراهيم فإنّ الله يأتي بالشّمس من المشرق فأتِ بها من المغرب».

استدلال آخر بالآيات أيضاً مع التعرّض لإبطال المغلطة وأنّ الشمس وما معها من النظام الوثيق لا يقدر الخصم علىٰ إبراز المغالطة فيها، كما أبرزها في الإحياء والإماتة. وليس هذا انتقالاً من حجّة إلىٰ أخرى، ورفع اليد عن الأولى والتشاغل بغيرها، بل هي حجّة أخرىٰ وجواب عن حجّة الخصم أيضاً.

قوله تعالىٰ: «فبُهت الّذي كفر».

فإنّ الشمس وما معها من النظام الوثيق والصنع المتقن مقدّمة بالضرورة على الجبّار نمرود، فيكون هذا البهت بهتاً واقعيّاً ضروريّاً. فمَن زعمَ أنّ له موقع للمغالطة بأن يقول: أنا آتي بالشمس من المشرق فليأت ربّك بها من المغرب، فقد وَهَم ولم يدرك مفاد الحجّة، وأنّ نمرود ما بقي له مجال بهذا القول.

قوله تعالى: «والله لا يهدي القوم الظالمين». (٢٥٨)

قال في الميزان ٣٥٥/٢: **«والله لا يهدي القوم الظالمين»** ظاهر السياق أنّه تعليل لقوله: **«فبهت الّذي كفر»** فبهته هو عدم هداية الله ـ سبحانه ـ إيّاه لا كفره. وبعبارة أخرىٰ معناه أنّ الله لم يهده فبهت لذلك، ولو هداه لغلب علىٰ إبراهيم في الحجّة.

أقول: ما معنىٰ الهداية إلى المغالبة؟ فإن أراد اللجاج والشيطنة والسفسطة والمغالطة فلا تكون مغالبة، وإن أراد الغلبة بحسب الواقع فلا كلام في استحالته؛ لأنّ الحقّ لا يغلب، وهو عليه السلام علىٰ برهان من ربّه.

والحقّ أنّ الجملة في موقع التعليل للقصّة، وعلىٰ عناد نمرود وتظاهره في قبال الحقّ والبرهان الساطع، وهو محروم من ولاية الله ـ سبحانه ـ وهدايته بما ظلم وانحرف عن سواء السبيل. ولا يخفىٰ أنّ المراد من الهداية المنفيّة هي الهداية الخاصّة لعباده الصالحين لا مطلق الهداية.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

قوله تعالىٰ: «أو كالّذي مرّ علىٰ قرية».

الظاهر أنّ الآية عطف علىٰ الآية السابقة : «ألم تـر إلى الّـذي حـاجّ ...»، والكاف اسميّة بمعنىٰ المثل.

لم يذكر الله ـ سبحانه ـ هذا المارّ وهذه القرية وهذا الموت؛ لأنّها خارجة عن الغرض المسوق له الكلام، وعن موقع العبرة بالقصّة، إلّا أنّ الآية صـدراً وذيـلاً تشعر أنّ هذا المـارّ كان صدّيقا أو نبيّاً ذا كرامةٍ عليه ـ تعالىٰ ـ ومستظّلاً في ظـلّ ولاية الله سبحانه، وقد أكرمه ـ سبحانه ـ بإراءته كـيفيّة إحـياء المـوتى وإنشـاز العظام، وهذا من جملة ما سترة الله في الغيب المحجوب، وما جرت سنّته أن يُطلع أحداً عليه إلّا مَن ارتضاه من أصفيائه وأمنائه. وبعد ما تبيّن له وشاهد ما شاهد قال : «أعلم أنّ الله علىٰ كل شيء قدير» وصار الغيب له شهادة والخبر عياناً، ولم يقل : «علمت» لما في ذلك البيان من المسبوقيّة بالجهل والشكّ مالا يخفىٰ.

وقد أكرمه ـ تعالىٰ ـ أيضاً بالمخاطبة والمكالمة وقال : «كم لبثت» والظاهر أنّ القول قول وحي.

قول تعالىٰ : «وهي خاوية علىٰ عروشها».

قال في لسان العـربا ٢٤٥/١٤ : خَـوَت الدار : تهـدّمت وسـقطت... وفي حديث سهل : فإذا هم بدارٍ خـاوية عـلىٰ عـروشها؛ خـوىٰ إذا سـقط وخـلا. وعروشها سقوفها.

فالمـعنىٰ أنّ هذا الرجل مرّ علىٰ قرية وهي واقعة أو ساقطة علىٰ عـروشها وسقوفها.

قوله تعالىٰ : «قال أنّى يُحيي هذه اللهُ بعد موتها».

أراد التبصّر والتثبّت والاستطلاع علىٰ السرّ المستسرّ تحت حجب الغيوب، وأن يشاهد الإحياء بعد الموت برأي العين، فإنّ الاستدلال وإقامة الحجّة والتعبّد بالوحي كلُّها حقّ وصدق، إلّا أنّ مقام الرؤية برأي العين فيما يمكن أن يكون مرئيّاً ومحسوساً بالعين أعلىٰ وأجلّ. ومنه يعلم أنّ هـذه القـصّة غـير قـصّة أصـحاب الكهف. فإنّ قصّة أصحاب الكهف حجّة وآية للنّاس في أمر البعث، كما أنّ هذه القصّة ورجوع هذا الشخص إلىٰ الدّنيا بعد موته مائة عام حـجّة وآيـة للـنّاس،

وحجّة على المنكرين والمرتابين، وأمّا بالنسبة إلىٰ نفس الشخص فليس من باب الحجّة عليه، بل هو أعلىٰ وأفضل وهي الرؤية.

والفرق بين هذه القصّة وقصّة إبراهيم عليه السلام حين سأل ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى، هو أنّ ما وقع في قصة إبراهيم عليه السلام إحياء مطلق الموْتىٰ حيواناً كان أو إنساناً، بخلاف هذه القصّة فإنّها لبعث الإنسان بعد موته المصرّح به بقوله: «أنّى يحيي هذه اللهُ بعد موتها»، فإنّه يقول حين رأى الدّيار خالية عن سكّانها، والأجساد ملقاة فيها وفي عرصاتها. فتفضّل الله عليه وأكرمه وهداه إلىٰ أن رأى إحياء نفسه؛ ليكون علىٰ رؤية وعيان من إحياء الموتى.

ثمّ إنّ المشاهد المرئيّ المعلوم في إحياء الموتى، هو حيث الإحياء بمعنى الاسم المصدري، فإنّ الإحياء وإفاضة الحياة من الله ـ سبحانه ـ لا كيف له بحسب الواقع، فلا معنىٰ لكونه معلوماً ومشهوداً برأي العين.

قوله تعالىٰ: «فأماته الله مائة عام».

غاية للفعل أي أماته وأبقاه وألبثه ميّتاً مائة عام، وليس ظرفاً للفعل كي يكون الموت في هذا الزمان تدريجاً.

قال في المنار ٢/ ٤٩: قالوا: معناه ألبثه مائة عام ميّتاً. وذلك أن الموت يكون في لحظة واحدة. قال الأستاذ الإمام: وفاتهم أنّ من الموت ما يمتدّ زمناً طويلاً وهو مَا يكون من فقد الحسّ والحركة والإدراك من غير أن تفارق الروح البدن بالمرّة، وهو ما كان لأهل الكهف. وقد عبّر عنه تعالىٰ بالضرب علىٰ الآذان.

أقول: ظاهر قوله تعالى: «فأماته الله مائة عام» هو الموت الحقيقي بمعنىٰ تفرّق الروح عن البدن، ويدلّ علىٰ هذا رثّ البدن وتفرّق عظامه المدلول بقوله: «وأُنظر إلى العظام كيف ننشزها ثمّ نكسوها لحماً» إلّا أنّ المفسّر كما أَوّل الموت بالسبات أوّل ذلك أيضاً بخلاف ما هو الظاهر منه. وهل هذا إلّا تحريف الكلم عن مواضعه؟! وليت شعري أي مجوّز له في ذلك؟ وإذا كان الأمر في هذه الآية كذلك، فلِمَ لم يكن في مئاتٍ من الآيات الّتي تدلّ على المعاد الجسماني كذلك؟!

قوله تعالىٰ: «ثمّ بعثه».

قال في لسان العرب ١١٧/٢ : والبعث أيضاً : الإحياء من الله للموتىٰ... وبعث الموتىٰ: نشرهم ليوم البعث... ومن أسمائه عزّ وجلّ : الباعث، هو الّذي يبعث الخلق، أي يحييهم بعد الموت يوم القيامة.

أقول : لفظ البعث من الألفاظ الدائرة في الكتاب والسنّة، والمراد منه هو الحياة بعد الموت، إلّا أن تقوم قرينة علىٰ استعماله في الاستيقاظ من النوم.

قوله تعالىٰ : «قال كم لبثت» .

القول منه ـ سبحانه ـ إلىٰ هذا المبعوث من الموت تكليم وتشريف منه سبحانه، يريد أن يهديه إلىٰ ما أراد من هدايته إلىٰ أسرار القصّة، وأن يذكّره أنّ هذا اللّبث والبعث ليس لبثا وبعثاً عاديّاً.

قوله تعالىٰ : «قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثتَ مائة عام» .

في تفسير العياشي ١٤٠/١، عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

... فتزوّد عصيراً وتيناً وخرج، فلمّا أن غاب مدّ البصر التفت إليها فقال : «**أنّىٰ يُحيي هذه اللهُ بعد موتها فأماته الله مائة عام**» أماته غدوة، وبعثه عشيّة قبل أن تغيب الشمس، وكان أوّل شيء خلق منه عيناه في مثل غرقى البيض، ثمّ قيل له: «**كم لبثت قال لبثت يوماً**» فلمّا نظر إلى الشمس لم تغب قال : «**أو بعض يوم قال بل لبثتَ مائة عام فانظر إلىٰ طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلىٰ حمارِكَ ولنجعلَكَ آية للنّاس وانظر إلى العظام كيف نُنشزها ثمّ نكسوها لحماً**» قال : فجعل ينظر إلىٰ عظامه كيف يصل بعضها إلىٰ بعض، ويرىٰ العروق كيف تجري، فلمّا استوىٰ قائماً قال:«**أعلم أنّ اللهَ كلّ شيء قدير**» .

وفي تفسير علىٰ بن إبراهيم ٩٠/١، عن أبيه مسنداً عن هارون بن خارجة عن أبي عبدالله عليه السلام قال :

... فخرج إرميا علىٰ حماره ومعه تين قد تزوّده، وشيء من عصير، فنظر إلىٰ سباع البرّ وسباع الجوّ تأكل من تلك الجيف، ففكّر في نفسه

ساعة ثمّ قال: «أنّىٰ يحيي هذه الله بعد موتها» وقد أكلتهم السباع، فأماته الله مكانه وهو قول الله تبارك وتعالى: «أو كالّذي مرّ قرية وهي خاوية علىٰ عروشها قال أنّى يحيي هذه اللهُ بعد موتها فأماته الله مائة عام ثمّ بعثه»... وبقي إرميا ميّتاً مئة سنة ثمّ أحياه الله ـ تعالىٰ ـ فأوّل ما أحييٰ منه عيناه في مثل غرقى البيض، فنظر فأوحى الله ـ تعالىٰ ـ إليه «كم لبثتَ قال لبثتُ يوماً» ثمّ نظر إلىٰ الشمس وقد ارتفعت فقال: «أو بعض يوم» فقال الله تعالىٰ: «بل لبثت مائة عام فانظر إلىٰ طعامك وشرابك لم يتسنّه» أي لم يتغيّر «وأنظر إلىٰ حمارك ولِنجعلَك آية للنّاس وأُنظر إلىٰ العظام كيف نُنشزها ثمّ نكسوها لحماً».

فجعل ينظر إلى العظام البالية المتفطّرة تجمع إليه، وإلى اللّحم الّذي قد أكلته السباع، يتألّف إلى العظام من هاهنا وهاهنا، ويلتزق بها حتىٰ قام وقام حماره فقال: «أعلم أنّ اللهَ علىٰ كلِّ شيء قدير».

قوله تعالىٰ: «فانظر إلىٰ طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلىٰ حمارك».

العطف بالفاء دليل ارتباط هذه الجملة بما قبلها، وهذه دليل طول اللبث والشاهد عليه، فإن التسنّه بمعنىٰ التغيّر، وبديهيّ أنّ عدم تغيّر الشراب والطعام لا يكون آية لذلك، إلّا بعد ضمّ آية أخرىٰ فأتى بقوله: «وانظر إلىٰ حمارك». والعناية في «انظر» ثانياً غير العناية فيه أوّلاً، فالأوّل لعدم تغيّر الشراب والطعام، وبقاؤهما طريّين. وفي الثاني هو موت الحمار وتفتّت أعضائه وتفرّق أجزائه. فلو كانت العناية في الثاني عين الأوّل يكون الحمار أيضاً باقياً سالماً إلى الحين، ولما يحتاج إليه ثانياً، علىٰ أنّه لا يكون دليلاً وشاهداً علىٰ طول مدة اللبث بل يدلّ علىٰ عكسه.

قوله تعالى: «ولنجعلك آية للناس».

فإنّ إحياءه بعد موته حجّة وآية للناس في عصره وفي القرون الآتية، وآية لنفس هذا المبعوث أيضاً، إلّا أنّ غرض القصّة بالنسبة إليه من حيث رؤيته بالعين ومشاهدته عياناً ليس حيث الآيتيّة كما ذكرنا.

قوله تعالىٰ: «وأنظر إلى العظام كيف ننشزها ثمّ نكسوها لحماً».

الظاهر أنّ العظام عظام المبعوث لا عظام حماره، فإنّه لا كلام في موت الحمار وإحيائه، إلّا أنّ المناسب للقرآن، وأدبه البارع، ومقامه الشامخ، أنّ ذكر موت الحمار وإحيائه إنّما هو من حيث الدلالة علىٰ طول اللّبث له، لا لكونه آية للناس، والآية للناس هو نفس هذا المبعوث. والعناية في إنشاز العظام هي مشاهدة هذا المبعوث عظامَ نفسه كيف ينشزها اللهُ ـ سبحانه ـ ويكسوها لحماً حتّىٰ قام حيًّا وقام حماره أيضاً.

فإن قيل: إنّ مشاهدة هذا المبعوث إنشاز عظامه متوقّف علىٰ بعثه وإحيائه، وإحياؤه متوقف علىٰ إنشاز عظامه، فلا محالة لا يكون المراد من العظام عظام نفسه، بل عظام حماره أو موتىٰ أهل القرية.

قلتُ: كلّا فإنّ مشاهدة الإنسان كيفيّة إنشاز عظامه ليس ممّا يستغرب ويستشكل. ولعلّ عدم تعرّض الآية لهذا الحيث من جهة خروجه عن غرض الآية. وقد تقدّم في رواية العيّاشي وعليّ بن إبراهيم أنّ أوّل ما أحياه الله ـ تعالىٰ ـ من هذا المبعوث هو عيناه، ولا بأس بالالتزام بذلك.

قوله تعالىٰ: «فلمّا تبيّنَ له قال أعلم أنّ الله علىٰ كلّ شيء قدير». (٢٥٩)

أي بعدما أقام اللهُ له الحججَ القيّمة والبراهينَ الساطعة، وأراه إحياءَ نفسه وإحياءَ حماره عياناً، علم وتيقّن بصحّة إحياء الموتى فقال: **«أعلم أنّ الله علىٰ كلّ شيء قدير».**

قوله تعالىٰ: «وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى».

الظاهر أنّ الآية عطف علىٰ قوله: **«أو كالّذي مرّ علىٰ قرية».** ويمكن أن تكون للاستيئاف.

والخليل عليه السلام مجّد الله تبارك وتعالى بالرّبوبيّة، وسأله أن يريه إحياء الموتىٰ. وقد ذكر المفسّرون وجوهاً لهذا السؤال، إلّا أنّ الآية الكريمة نصّت بقوله: **«ليطمئنّ قلبي»** علىٰ وجه السؤال، علىٰ ما سيأتي توضيحه.

والمتبادر من الرؤية هو الرؤية بالحسّ والمعاينة بالعين، فإنّ الحسّ باب من

أبواب العلم.

والكيف معنى حادث من علامات الشيء المحدث المخلوق، فيجب تنزيه الصانع ـ جلّ شأنه عنه، وكذلك يجب تنزيه فعله ـ تعالىٰ ـ عنه أيضاً، فعلىٰ هذا يكون مورد السؤال غير الموارد الّتي قامت الضرورة والبرهان علىٰ استحالة تكيّفه بكيف وطور، فلا يقال له تعالىٰ: كيف؟ لأنّه هو الّذي كيّف الكيف. ولا يقال أيضاً لأمره ـ سبحانه ـ وهو كلمة «كن» كيف؟ إذ به خلق الكيف، والكيف متأخّر عنه رتبة، فيستحيل أن يكون مقدماً عليه، أو يكون في عرضه. وحيث إنّ إحياء الموتىٰ بالمعنى المصدري فعل من الله ـ تعالىٰ ـ منزّه عن التصوّر والتعقّل والتفكّر فضلاً عن الكيف، فلا محالة يكون مورد سؤال الخليل عليه السلام هو الإحياء بالمعنى الاسم المصدري؛ وهو حصول الحياة، وصيرورة الشيء حيّاً علىٰ مرأى منه عليه السلام.
فمفاد الآية ومورد السؤال إراءة حصول الحياة للموتىٰ بالحسّ والعيان.

قال في الميزان ٣٦٧/٢: وهذا السؤال متصوّر علىٰ وجهين:

الوجه الأوّل: أن يكون سؤالاً عن كيفيّة قبول الأجزاء الماديّة الحياة...

الوجه الثاني: أن يكون عن كيفية إفاضة الله الحياة على الأموات، وفعله بأجزائها الّذي به تلبّس الحياة...

وإنّما سأل إبراهيم عليه السلام عن الكيفيّة بالمعنىٰ الثاني دون المعنى الأوّل:

أمّا أولاً فلأنّه قال: «كيف تُحيي الموتىٰ» ـ بضمّ التاء من الإحياء ـ فسأل عن كيفيّة الإحياء الّذي هو فعل ناعت لله ـ وهو سبب حياة الحيّ بأمره تعالىٰ، ولم يقل: كيف تحيى الموتىٰ ـ بفتح التاء من الحياة ـ حتّىٰ يكون سؤالاً عن كيفيّة تجمع الأجزاء وعودها إلىٰ صورتها الأولىٰ وقبولها الحياة. ولو كان السؤال عن الكيفيّة بالمعنىٰ [الأوّل] لكان من الواجب أن يرد على الصورة الثانية.

وأمّا ثانياً، فلأنّه لو كان سؤاله عن كيفيّة قبول الأجزاء للحياة لم يكن لإجراء الأمر بيد إبراهيم وجه، ولكفىٰ في ذلك أن يريد الله إحياء شيء من الحيوان بعد موته.

وأمّا ثالثاً، فلأنّه كان اللّازم علىٰ ذلك أن يختم الكلام بمثل أن يقال: وأعلم

أنّ الله علىٰ كلّ شيء قدير، لا بقوله : «وأعلم أنّ الله عزيز حكيم» علىٰ ما هو المعهود من دأب القرآن الكريم، فإنّ المناسب للسؤال المذكور هو صفة القدرة دون صفتي العزّة والحكمة فإنّ العزّة والحكمة ـ وهما وجدان الذات كلّ ما تفقده وتستحقّه الأشياء، وإحكامه في أمره ـ إنّما ترتبطان بإفاضة الحياة لا استفاضة المادّة لها.

أقول : هذا الّذي ذكره لا ينهض في إثبات ما هو بصدده، إذ الإيجاد وإن كان عين التحقّق الخارجي إلّا أنّ ما به الوجود وهي كلمة «كن» مقدّس عن الكيف بحسب الدّليل الّذي ذكرناه.

وأمّا الاستظهار بكلمة تُحيي ـ بالضّم ـ فالجواب عنه أنّ حصول الحياة ليس خارجا عن أمر الله ـ سبحانه ـ فالعبارة الدائرة الجامعة بحسب توحيده ـ تعالىٰ ـ في أفعاله من الخلق والحياة والرزق وغيرها هو استناد الأمر إليه ـ تعالىٰ ـ علىٰ كلا الفرضين، سواء كان المراد حيث الإفاضة أو حيث الاستفاضة، فعلى هذا لو عبّر بـ «تَحيى» ـ بالفتح ـ فلابدّ من تأويله بـ «تحيي» ـ بالضم ـ وإلّا فات لحاظ ما يجب حفظه من توحيده في أمر الحياة. والشاهد علىٰ ذلك قوله تعالىٰ في الآية السابقة: «وانظر إلى العظام كيف نُنشزها ثم نكسوها لحماً». فإنّ هذا المورد من موارد الاستفاضة قطعاً. وهذه سنّة القرآن الكريم من نسبة أفعاله ـ تعالىٰ ـ إلى نفسه القدّوس بالعنايات المختلفة المتنوّعة ولو كانت في موارد الاستفاضة.

وأمّا إجراء الأمر بيد إبراهيم الخليل عليه السلام فنقول : الآية الكريمة لا تفيد إلّا أنّ إبراهيم عليه السلام استدعىٰ من ربّه إحياء الموتىٰ ليطمئنّ قلبه، فاستجاب الله دعوته، فأراه إحياء الموتىٰ. وأمّا أنّ الله ـ تعالىٰ ـ قد أجرىٰ أمر الحياة بيد إبراهيم عليه السلام فلا شاهد لاستظهار ذلك واستكشافه من ظاهر اللّفظ.

وأمّا ارتباط المقام باسم «العزيز الحكيم» فإن كان مراده أنّ إبراهيم عليه السلام دعا ربّه أن يعاينه ويعرف كونه عزيزاً حكيماً من طريق برهان الإنّ، فهو خلاف ظاهر الآية، فإنّ الظاهر أنّ مراده عليه السلام إراءة الله ـ تعالىٰ ـ آية من

آياته العجيبة. فإن كان مراده أنّ إبراهيم (عليه السلام) أراد معرفة الاسمين الكريمين بالآيات، فقد كان عليه السلام واجداً للبرهان، فلا معنىٰ لاستظهار ذلك عن طريق الآيات. وإن كان مراده معاينة إبراهيم عليه السلام ما يرتبط بالاسمين الكريمين من أفعاله ـ تعالىٰ ـ كما هو الظاهر من كلامه، ففيه أنّ هذا لا ينهض حجّةً له، إذ الأفعال مرتبطة بهذين الاسمين تارة من حيث الإفاضة، وتارة من حيث الاستفاضة. وتعليل الفعل بالعزّة والحكمة لا دليل فيه أنّ مورد السؤال والدعاء هو الأوّل أو الثاني، وتفسير العزيز سيجيىء في ذيل الآية إن شاء الله تعالىٰ.

فالحقّ أنّ الآية ظاهرة في أنّ الله ـ تعالى ـ استجاب دعوة إبراهيم عليه السلام فأراه آية معجبة باهرة من آياته، وهو إحياء الطيور الموتى المتفرّقة المختلطة، فهذه المشاهدة إنّما هي بالنسبة إلى الطيور، وأمّا بالنسبة إلى الإنسان فتكون حجّة قطعيّة وآية باهرة، بخلاف المارّ علىٰ القرية الخاوية، فإنّه شاهد وعاين إحياء الله ـ تعالى ـ الإنسان بإنشاز العظام وكَسْوها باللّحم.

قوله تعالىٰ: «قال أو لم تؤمن».

الاستفهام وقع لغرض التقرير، ومورد الاستفهام أمر متحقّق مثبت، والجواب عن هذا الاستفهام مثبت دائماً مثل قوله تعالىٰ: **«ألستُ بربّكم قالوا بلى»**. [الأعراف (٧)/١٧٢]، و**«ألم نشرح لكَ صدرَكَ»**. [الانشراح (٩٤)/١] و**«ألم يجدكَ يتيماً فآوىٰ»**. [الضحى (٩٣)/٦]، وغيرها من الموارد.

وفي سؤال إبراهيم عليه السلام رؤية إحياء الموتى ومشاهدته مع كونه مؤمناً دلالة علىٰ أنّه لا ينبغي الاستغناء عن كرامة الله ـ سبحانه ـ ودلالة ـ أيضاً ـ علىٰ أنّ الرغبة والاشتياق وطلب المزيد من الله ـ سبحانه ـ فضيلة ومنقبة، وللسعي والاجتهاد والطلب دخل عظيم في نيل المعارف الإلهيّة العالية، قال تعالىٰ:

«والّذينَ اهتدَوا زادَهمُ هُدىً وآتاهُم تَقْوَاهُم». [محمد (٤٧)/١٧]

و«والّذينَ جاهدُوا فِينا لَنهدِينَّهم سُبلَنا». [العنكبوت (٢٩)/٦٩]

وفي الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام مزيد إيضاح وبيان لهذه الآية، ودفع ما قد يتوهّم من أنّ غرضه عليه السلام من السؤال

الاستظهار والاستبصار.

في البحار ١٧٦/٧٠، عن المحاسن، عن محمّد بن عبد الحميد، عن صفوان قال:

سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله لإبراهيم: «أولم تؤمن قال بلىٰ ولكن ليطمئنّ قلبي». أكان في قلبه شك؟ قال: لا، كان علىٰ يقين، ولكنّه أراد من الله الزيادة في يقينه.

في الكافي ٣٩٩/٢، عن علىٰ بن إبراهيم مسند عن الحسين بن الحكم قال:

كتبت إلى العبد الصالح عليه السلام، أخبره أنّي شاكّ وقد قال إبراهيم عليه السلام: «ربّ أرني كيف تحيي الموتىٰ» وإنّي أحبّ أن تريني شيئاً، فكتب عليه السلام:

إنّ ابراهيم كان مؤمناً وأحبّ أن يزداد إيماناً، وأنت شاكّ والشاكّ لا خير فيه. وكتب إنّما الشكُّ ما لم يأت اليقين، فإذا جاء اليقين لم يجز الشكّ.

وفي معاني الأخبار /١٢٩، عن علىٰ بن أحمد بن محمّد بن عمران مسنداً عن المفضّل بن عمر، عن الصادق جعفر بن محمّد عليهما السلام قال في معنى الكلمات الّتي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام:

... ثمّ استجاب اللهُ ـ عزّ وجلّ ـ دعوته حيث قال: «ربّ أَرني كيف تحيي الموتىٰ»، وهذه آية متشابهة، معناها أنّه سأل عن الكيفيّة، والكيفيّة من فعل الله ـ عزّ وجلّ ـ متىٰ لم يعلمها العالم لم يلحقه عيبٌ، ولا عرض في توحيده نقص. فقال الله عزّ وجلّ: «أَولم تؤمن قال بلى» هذا شرط عام من آمن به متىٰ سئل واحد منهم «أَو لم تؤمن» وجب أن يقول: بلىٰ كما قال إبراهيم. ولمّا قال الله ـ عزّ وجلّ ـ لجميع أرواح بني آدم: «ألست بربّكم قالوا بلىٰ». [الأعراف (٧)/١٧٢] كان أوّل من قال: بلىٰ، محمّد صلّى الله عليه وآله فصار بسبقه إلىٰ «بلىٰ» سيّد الأوّلين والآخرين، وأفضل النبيّين والمرسلين. فمَن لم

يجب عن هذه المسألة بجواب إبراهيمَ فقد رغب عن ملّته. قال الله عزّ وجلّ: «وَمَن يرغَبُ عن ملّةِ إبراهيمَ إلّا مَن سَفِه نفسَه». [البقرة (٢)/١٣٠]...

وفي العلل / ٥٨٥، عن محمّد بن الحسن مسنداً عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

لمّا رأى إبراهيمُ ملكوتَ السماوات والأرض... ثمّ التفت فرأىٰ جيفة على ساحل البحر بعضها في الماء وبعضها في البرّ، تجيء سباع البحر فتأكل ما في الماء، ثمّ ترجع فيشتمل بعضها علىٰ بعض فيأكل بعضها بعضاً، وتجيىء سباع البرّ فتأكل منها، فيشتمل بعضها علىٰ بعض فيأكل بعضها بعضها، فعند ذلك تعجّب إبراهيمُ ممّا رأى وقال: ياربّ أرني كيف تحيي الموتىٰ، هذه أمم يأكل بعضها بعضاً؟ قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلىٰ ولكن ليطمئنّ قلبي، فتحيي حتّىٰ أرىٰ هذا كما رأيت الأشياء كلّها. قال: خذ أربعة من الطير فقطّعهنّ واخلطهنّ كما اختلطت هذه الجيفة في هذه السباع الّتي أكل بعضها بعضاً، فاخلطهنّ ثمّ اجعل علىٰ كلّ جبل منهنّ جزءاً، ثم ادعهنّ يأتينك سعياً، فلمّا دعاهنّ أجبنه. وكانت الجبال عشرة. قال: وكانت الطيور الديك والحمامة والطاووس والغراب.

أقول: قد تبيّن من جميع ماذكرنا أنّ المراد من الرؤية هو العلم الخاصّ، الأجلّ الأعلىٰ من العلم الحاصل بالاستدلال، بل هو علم زائد على العلم الحاصل بالنبإ الصّادق أيضاً. ولا ينافي ذلك قوله عليه السلام: كما رأيت الأشياء كلّها، إذ الكلّ الّذي أراه الله ـ تعالىٰ ـ إنّما هو ملكوت السماوات والأرض، ولم يعلم بعد أنّ علم البدء والعود داخل في ملكوت السماوات والأرض أو لا.

فالمتحصّل من الآية الكريمة مع ماورد في بيانها وشرحها من الروايات، أنّ المراد طلب الزيادة علىٰ سبيل الرؤية، وإن كان عليه السلام واجداً لقسمة عظيمة من العلم الحضوري والعياني لعدّة من الحقائق.

قد يتوهّم في بدو النظر أنّه يكفي في المقام رؤية إحياء ميّت واحد في إشباع غرضه عليه السلام، إلّا أنّ التدبّر وإمعان النظر في الآية صدراً وذيلاً، ولا سيّما بمعونة الجواب «فخذ أربعة من الطير» وإحياء الطيور الموتى المتفرّقة المختلطة، وبعد تصريح الرّوايات الشريفة في مورد الآية الكريمة، يعطي أنّ مورد السؤال هو إحياء الموتى، الّتي أكل بعضها بعضاً واختلط بعضها مع بعض.

فاتّضح أنّ إتيان الموتى بصيغة الجمع فيه عناية خاصّة في المقام، أراد عليه السلام أن يريه الله كيفيّة إحياء الموتى، الّتي اختلط بعضها مع بعض، وأكل بعضها بعضاً. والجواب بإحياء الطيور بعد اختلاطها جواب عن هذا الغرض.

قوله تعالىٰ: «قال بلىٰ ولكن ليطمئنّ قلبي».

قال في مجمع البحرين ٦/٢٧٧: اطمأنّ الرجل إطمئناناً وطُمَأنينةً ـ بضمّ التاء ـ سكن ولم يقلق.

وفي أساس البلاغة /٢٨٤: ورأيته قَلِقاً فَرِقاً فطأمنتُ منه حتّى اطمأنّ وتطأمنَ. واطمأنّ إليه: سكن إليه ووثق به.

أقول: الّذي يظهر من موارد الاستعمال أنّ الاطمئنان والطمأنينة بمعنى القرار والإقامة بالمكان بعد الحركة والطلب، لا مطلق الإقامة والسكون. قال تعالىٰ:

«وَما جعلَه اللهُ إلّا بُشرىٰ لكُم وَلِتطمئنَّ قُلوبُكم بِهِ ومَا النّصرُ إلّا مِن عندِ اللهِ العزيزِ الحكيمِ». [آل عمران (٣)/١٢٦]

و«قالوا نُريدُ أَن نأكُلَ مِنها وتَطمئنَّ قُلوبُنا ونَعلمَ أَن قَد صَدَقتَنا ونكونَ عليها من الشاهِدينَ». [المائده (٥)/١١٣]

و«إذ تَستِغيثونَ ربَّكُم فاستجابَ لكُم أنّي مُمِدُّكُم بأَلفٍ مِنَ الملائكِةِ مُردِفِينَ وَمَا جعلَه اللهُ إلّا بُشرىٰ ولِتطمئنَّ بِهِ قُلوبُكم وَمَا النَّصرُ إلّا مِن عندِ اللهِ إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ». [الانفال (٨)/٩ و ١٠]

وبديهيّ عند أُولي الأبصار أنّ طلب النفس وشوقها لا يقرّ دون الوصول والنيل إلىٰ ما يطلبه، والاستبصار إلىٰ فهم الحقائق مع ما فيه من رفعة المقام، وعلوّ المحلّ لا يكون ريّاً لعطش العلماء، ولا ربيعاً لقلوب الفقهاء، بل هم في الاضطراب

والانزعاج والقلق إلىٰ أن يدركوا الشيء علىٰ ما هو عليه، ويعلموا أنّهم أدركوه واقعاً، ويعلموا أنّهم أصابوه واقعاً، وهذا العلم هو الّذي له العصمة الذاتيّة، وهذا من الفروق بين العلم الحقيقي والعلوم الحاصلة من البراهين المنطقيّة، والكشف المصطلح عند المتصوّفة، فإنّك كثيراً ما ترىٰ أنّهم قد اختلفوا في كشفهم وشهودهم وقطعهم الحاصل من البراهين، فلا أمان لهم في كشفهم وقطعهم عن الخطإ والجهل المركّب، فلا تطمئنّ النفس بأمثال هذه العلوم، بل حصول الاطمئنان إنّما هو بالعلم الواقعيّ الذي لا يحصل إلّا بهداية الله سبحانه.

في النهج، الخطبة/ ٢٢٠، قال عليه السلام في وصف السالك الطريق إلى الله سبحانه:

قد أحْيَا عقلَهُ، وأَماتَ نفسَهُ، حتّى دقَ جليلُهُ، ولَطُفَ غليظُهُ، وَبَرقَ لَهُ لامِعٌ كثيرُ البَرقِ، فأبانَ لَه الطريقَ، وسلكَ به السبيلَ، وتدافعتْهُ الأبوابُ إلى بابِ السّلامةِ، ودارِ الإقامةِ، وثَبتتْ رِجلاهُ بطُمأنينةِ بدنهِ في قرار الأمنِ والراحةِ، بما اَستعملَ قلَبه، وأرضىٰ ربَّه.

قوله عليه السلام: وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه، يمكن أن يكون المراد منه بعد الدخول في الجنّة والاستقرار فيها، ومشاهدة ما علمها في الدنيا بالعيان هناك، ويمكن أن يكون المراد أن يرتقي إلىٰ أواخر مراتب الكمال بحيث يسلم نفسه من الغوائل والآفات، وشهد بالفوز والصلاح واطمأنّت نفسه. والظاهر أنّ الطمأنينة ليست هي الطمأنينة المكانيّة، فإنّ السياق أجلّ من التعرّض لحيث المكان، وإن كان المراد من باب السلامة ودار الإقامة هي الجنّة الموعودة.

قوله تعالىٰ: «فخذ أربعةً من الطير».

تصريح بإجابة دعاء إبراهيم عليه السلام وإبراز لكرامته ـ تعالىٰ ـ عليه.

قوله تعالىٰ: «فصرهنّ إليك».

قال في لسان العرب ٤٧٤/٤: وصاره يَصُوره، ويَصيره أي أماله. وفي التنزيل العزيز: «**فصُرهنّ إليك**»... أي وجِّههنّ؛ وذكره ابن سيّدة في الياء أيضاً؛ لأنّ صُرْت وصِرْت لغتان؛ قال اللّحياني: قال بعضهم: معنىٰ صُرهنّ وجِّههنّ،

ومعنى صِرهنّ قطّعهنَّ وشقّقهن، والمعروف أنّهما لغتان بمعنىٰ واحد... الجوهري: وصُرتُ الشيء أيضاً قطعتُه وفصلته.

قال في الميزان ٣٦٩/٢: إنّ معنىٰ صُرهنّ قطّعهنّ، وتعديته بـإلىٰ لمكـان تضمينه معنى الإمالة.

أقول: لو تمّ هذا الوجه من حيث الاستظهار الأوّلي فهو حسن، فعلىٰ هذا يكون «إليك» متعلّقاً له ولا إشكال.

قوله تعالىٰ: «ثم اَجعل علىٰ كلّ جبل منهنّ جزءاً».

هذا يدلّ علىٰ أنّ الله ـ تعالىٰ ـ أمر إبراهيم عليه السلام بأخـذ أربـعة مـن الطيور، ثمّ تقطيعهنّ وتخليطهنّ، ثمّ أمره بتجزيتهنّ وجعل كلّ جزء منها علىٰ واحد من الجبال. فلولا التقطيع والتخليط لكان المناسب أن يقال: فاجعل علىٰ كلّ جبل منهنّ واحداً، فيفوت معنى التقطيع والتخليط، ولا يدلّ علىٰ كون الطيور موتىٰ، أو يقال: فاجعل علىٰ كلّ جبل من كلّ واحد منهنّ جزءاً فيكون علىٰ كلّ جبل أربعة أجزاء.

قوله تعالىٰ: «ثمّ ادعهنَّ يأتينكَ سعياً».

لا إشكال في رجوع الضمائر إلى الطيور سواء كانت ميّـتة أو حيّة، وكذلك لا إشكال في دعائهنّ حال كونهنّ ميّـتة، وهذا كما في قوله تعالىٰ: **«فقال لها وللأرض ائتيَا طَوعاً أو كرهاً قالتَا أتينا طائعينَ»**. [فصّلت (٤١)/١١].

قوله تعالىٰ: «واَعلم أنّ الله عزيز حكيم». (٢٦٠)

أي لا يمتنع عليه شيء. فإحياء الموتىٰ وغيره أهون من أن يمـتنع عـليه ـ تعالىٰ ـ إذ هو الّذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده، وله المثل الأعـلىٰ في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. وقد ذلّت له الصعاب ودانت له الأمور. وبحكمته أتقن صنع ما صنع وأحكم خلق ما خلق.

والعزيز من أسماء الله الحسنىٰ، وكثيراً ما أطلق في القرآن الكـريم مـقروناً بالحكيم، وقد استعمل مقروناً بغيره من أسمائه ـ تعالىٰ ـ مثل الرحيم، القوي، ذي انتقام والغفور.

واختُلف في معناه، قال في التوحيد / ٢٠٦ : العزيز معناه أنّه لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء أراده، فهو قاهر للأشياء، غالب غير مغلوب.

وقال في علم اليقين ١١٣/١ : من يستحيل مثله ويحتاج إليه كلّ شيء في كلّ شيء، ويستحيل الوصول إليه علىٰ معنى الإحاطة بكنهه.

وقال في المنار ٥٨/٣ : العزيز هو الغالب الّذي لا ينال.

وقال في رياض السالكين /٣٣٤ في شرح دعائه عليه السلام في ذكر التوبة: العزيز فعيل من العزّة، وهي الرفعة والامتناع والشدّة والقوّة والغلبة.

وقال الراغب: العزيز الذي يأبىٰ تحمّل المذلّة؛ واشتقاقه من العزاز وهو الأرض الصلبة الشديدة... وفرّق بعضهم بين العزيز والكريم فقال: العزيز يأبىٰ أن يقضىٰ عليه، والكريم يأبى أن يقضىٰ له.

وفي مجمع البحرين ٢٦/٤ : فيقال عزّه يعزّه عزًّا: إذا غلبه.

أقول: الظاهر أن معنى العزيز هو الّذي لا يمتنع عليه شيء كما ذكرناه.

تنبيه: قال في المنار ٥٥/٣ : ملخّص معنى الآية عند الجمهور: أنّ إبراهيم صلّى الله عليه وآله وسلّم طلب من ربّه أن يطّلعه علىٰ كيفيّة إحياء الموتىٰ، فأمره تعالىٰ بأن يأخذ أربعة من الطير، فيقطّعنّ أجزاءً، يفرّقها علىٰ عدّة جبال هناك، ثمّ يدعوها إليه فتجيئه، وقالوا: إنّه فعل ذلك. وخالفهم أبو مسلم المفسّر الشهير فقال: ليس في الكلام ما يدلّ علىٰ أنّه فعل ذلك، وما كلّ أمر يقصد به الامتثال، فإنّ من الخبر ما يأتي بصيغة الأمر، لاسيما إذا أريد زيادة البيان... وفي القرآن كثير من الأمر الّذي يراد به الخبر. والكلام ههنا مَثَل لإحياء الموتىٰ، ومعناه: خذ أربعة من الطير فضمّها إليك، وآنسها بك حتّىٰ تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك، فإنّ الطيور من أشدّ الحيوان استعداداً لذلك، ثمّ اجعل كلّ واحد منها علىٰ جبل، ثم ادعها فإنّها تسرع إليك، لا يمنعها تفرّق أمكنتها وبعدها من ذلك. كذلك أمر ربّك إذا أراد إحياء الموتىٰ يدعوهم بكلمة التكوين «كونوا أحياءً» فيكونون أحياءً كما كان شأنه في بدء الخلق.... وجملة القول: أنّ تفسير أبي مسلم للآية هو المتبادر الّذي يدلّ عليه النظم... ولله درّ أبي مسلم ما أدقّ فهمه وأشدّ استقلاله فيه.

أقول : يكفي في بطلان هذا الوجه أنّ المَثَل لكيفيّة إحياء الموتىٰ لا يكون رؤية لإبراهيم عليه السلام لكيفيّة الإحياء، فإنّ المَثَل إنّما يتوسّل به المتكلّم في مقام الإفاده، وتقريب انتقال المخاطب إلى مراده، وغاية ما يدلّ عليه المثل هو العلم والفهم العاديّ للمتعلّم والمستمع العادي، فإبراهيم عليه السلام أجلّ شأناً وأرفع مقاماً من أن تلقّن له كيفيّة الإحياء بالمثل، وقد كان عالماً به من طريق الوحي ومن طريق الاستدلال، وقد أراه الله ـ تعالىٰ ـ ملكوت السماوات والأرض بنصّ القرآن، وما كان محتاجاً بالعلم الحاصل من ضرب الأمثال.

علىٰ أنّ هذا لا يجوز أن يكون مثلاً لإرادة الله ـ سبحانه ـ وتحقّق الحياة بكلمة التكوين، فإنّ الحقائق المنزّهة عن الكيفية والمتعالية عن الطور لا يمكن أن يعلم بالمثل، فإنّ المَثَل لا يكون إلّا بالتشبيه والتقريب وإيجاد المناسبات بين المثل والممثّل، وإذا كان الممثّل منزّها عن المثل والشبه، والتصوّر والتعقّل لا يبقى للمثل معنىٰ. وما نحن فيه من هذا القبيل.

ثمّ إنّه لا يخفىٰ علىٰ أولي البصيرة والإنصاف أنّ القرآن الكريم قد صرّح في موارد بإحياء الموتىٰ، بأمر الله سبحانه إقامة للحجّة وآية للناس وكرامة لبعض أوليائه، وأشهدهم وأراهم في الدنيا أنّه كيف يحيي الموتىٰ، فممّن عاين كيفيّة استفاضة بعض الأموات الحياة من الله ـ سبحانه ـ إبراهيم الخليل وعيسىٰ والّذي مرّ علىٰ قرية سلام الله عليهم. فهذا حجّة علىٰ سائر الخلق، وآية قاطعة لعموم الناس، فلا يبقىٰ للمؤمنين بالقرآن موقع ترديد وتشكيك في أمر المعاد، إذ وقوع شيء أدلّ دليل علىٰ إمكانه، فهذه الآيات صريحة في إبطال الفرضيّات الّتي زعموها من استحالة المعاد وعود الأرواح على الأبدان. فلا يجوز تأويل هذه الآيات البيّنات بأنّ المُعاد في المعاد هو البدن المنشأ بإنشاء النفس وأنّه مجرّد عن المادّة، متوسط بين العالمين، جامع للتجرد والتجسّم، مسلوب عنه كثير من لوازم هذه الأبدان الدنيويّة، إذ البدن الأخروي كظلّ لازم للرّوح وكحكاية ومثال له، بل هما متحدّان في الوجود بخلاف هذه الأبدان المستحيلة الفاسدة، وأنّ الدار الآخرة وأشجارها وأنهارها وغرفاتها ومساكنها، والأبدان الّتي فيها، كلّها صور إدراكيّة

وجودها عين مدركيتها ومحسوسيّتها[١]. وليت شعري ما المجوّز لهم في تأويل كلام الله ـ سبحانه ـ وتحميله علىٰ ما ورثوه من الفرضيّات. فالواجب تفسير الآيات الواردة في ذلك بحسب المباني المسلّمة في الكتاب والسنّة.

ولو قيل: إنّ الأبدان توجد بالتدريج من التراب، وليس بمحال بحسب الواقع أن يأكل إنسان إنساناً آخر، ويصير نطفة إنسان آخر وهكذا، فعلى هذا، الآية الكريمة في مورد إحياء الطيور الخاصّة المختلطة لا تكون جواباً عن هذه الشبهة المعروفة بشبهة الآكل والمأكول، فإنّ الاختلاط المقصود فيها طولي بأن يصير بدن إنسان بدن إنسان آخر، والحال أنّ الاختلاط في الآية الكريمة عرضيّ.

قلت: الجواب عن هذا أوّلاً بما ذكره المتكلّمون في كتبهم من أنّ الله يحفظ الأجزاء الأصليّة أن تصير بدناً أصليّاً لآخر أو جزءاً من بدنه الأصلي، وإنّما تصير جزءاً من فضولاته.

وثانياً بأنّ الأبدان جميعها خلقت في الذرّ قبل النسل في عرض واحد، فلا يبقى لهذه الشبهة موضوعاً إذ لكلٍ بدن خاصّ محدود وروح معيّن، فعلىٰ هذا لا يمكن أن يصير بدن إنسان بدن إنسان آخر، نعم أقصىٰ ما يمكن أن يقال إنّه يحصل من أكل بعض الناس بعضاً آخر الاختلاط والامتزاج لا أن يصير واحد منهم إنساناً آخر، فيكون إحياءُ الطيور بعد اختلاطها جواباً عن هذه الشبهة، كما أنّ المستفاد من الرّوايات الواردة في تفسير هذه الآية الكريمة أنّ مورد السؤال هو أكل بعض الحيوانات بعضاً آخر.

في تفسير علىٰ بن إبراهيم ٩١/١، عن ابن أبي عمير مسنداً عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

إنّ إبراهيم نظر إلىٰ جيفة علىٰ ساحل البحر تأكلها سباع البرّ وسباع البحر، ثمّ تحمل السباع بعضها علىٰ بعض فيأكل بعضها بعضاً، فتعجّب إبراهيم عليه السلام فقال: «ربّ أرني كيف تحيي

---

١ ـ الأسفار ١٨٣/٩.

الموتىٰ ...»، فأخذ إبراهيم عليه السلام الطاووس والديك والحمام والغراب، فقال الله عزّ وجلّ: «فصرهنّ إليك» أي قطّعهن ثمّ اخلط لحمهنّ وفرّقهنّ علىٰ عشرة جبال، ثمّ خذ منا قيرهنّ وادعهنّ يأتينك سعياً.. ففعل إبراهيم ذلك وفرّقهن علىٰ عشرة جبال ثمّ دعاهنّ فقال: أجِبْنَنِّي بإذن الله ـ تعالىٰ ـ فكانت تجمع ويتألّف[1] لحم كلّ واحد وعظمه إلى رأسه، وطارت إلى إبراهيم، فعند ذلك قال إبراهيم: إنّ الله عزيز حكيم.

والحقّ أنّ الله ـ تعالىٰ ـ ما ترك مجالاً لتحريف المبطلين وتأويل المنكرين.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًىۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ

١ ـ في البحار ٦٥/١٢: أجيبيني بإذن الله تعالىٰ، فكانت يجتمع ويتألّف...

تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ
شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾
وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ
وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ
لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ
فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا
لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم
بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ
وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

قوله تعالىٰ: «مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله».

قال في لسان العراب ٦١١/١١: والمَثَل: الشيء الّذي يضرب لشيء مثلاً فيجعل مِثْلَه... قال الجوهري: ومَثَل الشيء أيضاً صفته. قال ابن سيده: وقوله عزّ من قائل: «**مَثَل الجنّة الّتي وعد المتّقون**»، قال اللّيث: مَثَلها هو الخبر عنها. وقال أبو إسحاق: معناه صفة الجنّة... وقد يكون المَثَل بمعنى العبرة؛ ومنه قوله عزّ وجلّ: «**فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين**» ويكون بمعنى الآية قال الله ـ عزّ وجلّ ـ في صفة عيسىٰ علىٰ نبيّنا وعليه الصلاة والسلام: «**وجعلناه مَثَلا لبني إسرائيل**» أي آية تدلّ على نبوّته.

وقال في أساس البلاغة / ٤٢٠: مَثَّله به: شبّهه. وتمثّل به: تشبّه به. ومُثِل الشيء بالشيء: سوِّي به وقدّر تقديره.

أقول: المَثَل ليس هو الشبيه بل المراد الانتقال من أمر محسوس إلىٰ أمر معقول، يصعب نيله بالنسبة إلى المخاطب، أو من معلوم ضروريّ عاديّ إلىٰ معلوم يحتاج نيله إلى التدبّر والتفكّر، فإراءة الممثّل وحكايته بواسطة المَثَل باب عظيم من أبواب التعاليم وتلقين الحقائق والعلوم الدائرة بين الناس. ويشمل بعض الأمثال على الخطابة والحجّة، وبعض منها علىٰ التوصيف والتقريب، وبعض منهاالتشبيه، فعلىٰ هذا لا يحتاج في الأمثال إلى ذكر أركان التشبيه من المشبّه والمشبّه به ووجه الشبه، إذ ليس كلّ مَثَل تشبيها. قال تعالىٰ:

«**مثل الجنَّة الّتي وعد المتّقون تجري من تحتها الأنهار أُكلها دائم وظلّها**». [الرعد (١٣)/٣٥]

و«**مثل الجنَّة الّتي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ...**». [محمد (٤٧)/١٥]

و« **للّذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلىٰ وهو العزيزالحكيم**». [النحل (١٦)/٦٠]

في التوحيد/ ٣٢١، عن علىٰ بن أحمد بن عمران الدقّاق مسنداً عن حنان ابن سدير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

... وقوماً وصفوه بيدين فقالوا: «**يدُ الله مغلولةٌ**». [المائدة (٥)/٦٤]

وقوماً وصفوه بالرجلين فقالوا: وضع رجله علىٰ صخرة بيت المقدّس فمنها ارتقى إلى السماء. وقوماً وصفوه بالأنامل فقالوا: إنّ محمداً صلّى الله عليه وآله قال: إنّي وجدت برد أنامله علىٰ قلبي، فلمثل هذه الصفات قال: «ربِّ العرشِ عمّا يَصفون». [الأنبياء (٢١)/٢٢] يقول: ربّ المَثَل الأعلى عمّا به مَثَّلوه. ولله المَثَل الأعلى الّذي لا يشبهه شيء، ولا يوصف ولا يتوهّم، فذلك المَثَل الأعلى. ووصف الّذين لم يؤتوا من الله فوائد العلم فوصفوا ربّهم بأدنى الأمثال، وشبّهوه بالمتشابه منهم فيما جهلوا به فلذلك قال: «ومَا أُوتيتُم مِن العِلم إلّا قليلاً». [الإسراء (١٧)/٨٥] فليس له شبه ولا مثل ولا عدل، وله الأسماء الحسنى الّتي لا يسمّى بها غيره، وهي الّتي وصفها في الكتاب فقال: «فادعوه بها وذَروا الّذينَ يُلحدونَ في أسمائه». [الأعراف (٧)/١٨٠] جهلاً بغير علم، فالّذي يلحد في أسمائه بغير علم يشرك وهو لا يعلم، ويكفر به وهو يظنّ أنّه يحسن فلذلك قال: «وَما يُؤمنُ أكثرهُمُ بالله إلّا وهم مُشركونَ». [يوسف (١٢)/١٠٦] فهم الّذين يُلحدون في أسمائه بغير علم فيضعونها غير مواضعها...

أقول: المثل في هذه الآيات كما ترىٰ بمعنى الوصف والنعت، فمثله ـ تعالىٰ ـ هو القدس والتنزّه عن التوصيف والتشبيه، وعن كلّ ما قيل فيه أو يقال.

وقوله تعالىٰ: «الّذين» لا إطلاق فيه لغير المؤمنين، بداهة عدم تساوي المؤمن والمسلم، وثبوت التفاضل بينهما، فإن فضل المؤمن علىٰ المسلم كفضل المسجد علىٰ الحرم. ومرادنا بالمسلم ليس من كان فاقداً ولاية الولاة الحقّة من آل الرسول صلّى الله عليه وآله، بل الفرق بينهما بحسب المعرفة والرسوخ في الإيقان، فإنّ الإسلام ما حقن به الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث، والثواب علىٰ الإيمان، وحيث إنّ الثواب والجزاء بفضل الله ـ سبحانه ـ ولا سيّما المضاعفة، فلابدّ من أن يكون الثواب والمضاعفة بحسب درجات الإيمان، وبحسب درجات الإخلاص والتقوى في النيّة والبصارة والفقاهة فيما أتىٰ من الصالحات.

في الكافي ٢٤/٢، عن عليٰ بن إبراهيم مسنداً عن القاسم الصيرفي شريك المفضّل قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول :

الإسلام يحقن به الدّم، وتؤدّىٰ به الأمانة، وتستحلّ به الفروج، والثواب على الإيمان.

وفيه أيضاً / ٢٦، عن العدّة مسنداً عن حمران بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام قال : سمعته يقول :

الإيمان ما استقرّ في القلب، وأفضى به إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وصدّقه العمل بالطاعة لله والتسليم لأمره، والإسلام ما ظهر من قول أو فعل؛ وهو الّذي عليه جماعة الناس من الفرق كلّها، وبه حقنت الدماء وعليه جرت المواريث وجاز النكاح واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحجّ، فخرجوا بذلك من الكفر وأضيفوا إلى الإيمان، والإسلام لا يشرك الإيمان والإيمان يشرك الإسلام، وهما في القول والفعل يجتمعان، كما صارت الكعبة في المسجد والمسجد ليس في الكعبة، كذلك الإيمان يشرك الإسلام والإسلام لا يشرك الإيمان، وقد قال الله عزّ وجل : «قالتِ الأعرابُ آمنّا قُل لم تُـؤمنوا ولكـن قُولُوا أسلمنا وَلمّا يَدخُلِ الإيمان في قلوبِكم» . [الحجرات (٤٩)/١٤] فقول الله عزّ وجلّ أصدق القول.

قلت : فهل للمؤمن فضل على المسلم في شيء من الفضائل والأحكام والحدود وغير ذلك؟

فقال : لا، هما يجريان في ذلك مجرًى واحداً، ولكن للمؤمن فضل على المسلم في أعمالهما، وما يتقرّبان به إلى الله عزّ وجلّ.

قلت : أَليس الله ـ عزّ وجلّ يقول : «مَن جاءَ بالحسنة فله عشر أمثالها».[الأنعام (٦)/١٦٠] وزعمت أنّهم مجتمعون علىٰ الصلاة والزّكاة والصّوم والحجّ مع المؤمن؟

قال : أَليس قد قال الله عزّ وجلّ : «فيضاعفه له أضعافاً كثيرة».

[البقرة (٢)/٢٤٥] فالمؤمنون هم الّذين يضاعف الله ـ عزّ وجلّ ـ لهم حسناتهم لكلّ حسنة سبعون ضعفاً، فهذا فضل المؤمن، ويزيده الله في حسناته علىٰ قدر صحّة إيمانه أضعافاً كثيرة، ويفعل الله بالمؤمنين ما يشاء من الخير.

قلت: أَرايت من دخل في الإسلام، أَليس هو داخلا في الإيمان؟

فقال: لا، ولكنّه قد أُضيف إلى الإيمان، وخرج من الكفر، وسأضرب لك مثلاً تعقل به فضل الإيمان علىٰ الإسلام، أَرايت لو بصرت رجلاً في المسجد، أكنت تشهد أنّك رأيته في الكعبة؟

قلت: لا يجوز لي ذلك.

قال: فلو بصرتَ رجلاً في الكعبة، أكنتَ شاهداً أنّه دخل المسجد الحرام؟

قلت: نعم.

قال: وكيف ذلك؟

قلت: إنّه لا يصل إلى دخول الكعبة حتى يدخل المسجد. فقال: قد أصبتَ وأحسنتَ. ثمّ قال: كذلك الإيمان والإسلام.

وقوله تعالىٰ: «**ينفقون أموالهم في سبيل الله**»، يشمل الواجب والمندوب، حتّى الإنفاق علىٰ العيال، فلا وجه لتقييده بالزكاة الواجبة ولا الجهاد.

قال في مجمع البيان ٣٧٤/٢: وسبيل الله هو الجهاد وغيره من أبواب البرّ كلّها... فالآية عامّة في النفقة في جميع ذلك، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام.

قوله تعالىٰ: «كمَثَل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مِائة حبّة».

خبر لقوله: «**مَثَل الّذين**» ولا احتياج إلى القول بأنّ التقدير: كمثل مَن زرع أو كمثل زارع، إذ جهة التمثيل هو النموّ والبركة والزيادة، فالمعنىٰ أنّ وصف المنفقين في الازدياد والمضاعفة عند الله سبحانه بحسب سنّته الفاضلة، وما تفضّل بعباده المحسنين، كوصف الحبّة الّتي أنبتت سبع سنابل، ووجه هذا التمثيل أنّ سنّته

ـ تعالى ـ ليست بحيث يعرفها كُلّ أحد، بل يحتاج عرفانها بالنسبة إلى غالب الناس إلى التقريب والتذكرة بالمحسوسات، كي ينتقلوا إلى المعنويّات، ويرسخ الأمر المعنوي في لبّهم ويسهل عليهم نيله ودركه.

وحيث إنّ الثواب ولاسيّما المضاعفة تفضّل من الله ـ سبحانه ـ فلا مفهوم في المثل، أعني أنّه ليس للمَثَل موضوعيّة في باب المضاعفة بالنسبة إلى مادونه وما فوقه، فإنّ الغرض منه هو التشريح والتوضيح لا المداقّة والاستحقاق، فلا ينافي المضاعفة ما فوق حدّ الممثّل ولا مادونه، بل الأمر إلىٰ تقديره ـ تعالىٰ ـ بما شاء، ورضي طبق حكمته، فإنّه لا مجازفة في صنعه الجميل وسنّته الحميدة.

قوله تعالىٰ: «والله يُضاعف لمن يشاء».

الظاهر أنّ المراد أنّ الله ـ تعالىٰ ـ يضاعف لمن يشاء من المنفقين وغيرهم ما يشاء، لا أنّه يضاعف سبعمائة لمن يشاء، إلّا أنّ في الرّوايات ما يدلّ علىٰ أنّ الله يضاعف لمن يشاء من المنفقين وغيرهم سبعمائة.

في ثواب الأعمال ٢٠١/، عن محمّد بن الحسن مسنداً عن أبي محمّد الوابشي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

> إذا أحسنَ العبدُ المؤمن ضاعف الله له عملَه بكلّ حسنة سبعمائة ضِعف، وذلك قول الله عزّ وجلّ: «**والله يضاعف لمن يشاء**».

وفي البحار ٢٤٧/٧١، عن المحاسن، عن ابن محبوب، عن عمر بن يزيد قال: سمعتُ أبا عبدالله عليه السلام يقول:

> إذا أَحسن المؤمنُ عملَه ضاعفَ اللهُ عملَه لكلّ حسنة سبعمائة، وذلك قول الله تبارك وتعالىٰ: «**والله يضاعف لمن يشاء**» فأحسنوا أعمالكم الّتي تعملونها لثواب الله. فقلت له وما الإحسان؟ قال: فقال: إذا صلّيت فأحسن ركوعَك وسجودَك، وإذا صمت فتوقّ كلّ ما فيه فساد صومك، وإذا حججت فتوقّ ما يحرم عليك في حجّك وعمرتك. قال: وكلّ عمل تعمله فليكن نقيّا من الدنس.

قوله تعالىٰ: «والله واسع عليم». (٢٦١)

قال في مجمع البيان ٣٧٤/٢ : «والله واسع» أي واسع للقدرة.

وقال في الميزان ٣٨٦/٢ : فهو الواسع لا مانع من جوده ولا محدّد لفضله.

أقول : كلا التفسيرين مرجعهما إلى القدرة. والظاهر أنّ معنى الاسم الكريم الواسع، أنّه لا يضيق عليه قضاء حوائج السائلين، وإنجاح آمال الآملين. والفرق بين الواسع والغنيّ أنّ الغنيّ صفة تنزيه وتقديس، بمعنىٰ مَن لا يحتاج إلى شيء، والواسع صفة تمجيد فهو ـ سبحانه ـ لسعة يده وسعة ما عنده يسع كلّ ما يحتاج إليه الكلّ، وجميع آمال الآملين بالنسبة إلىٰ سعة إحسانه وفضله نسبة الذرّة إلىٰ ما لا يتناهىٰ. وهو ـ تعالىٰ ـ عليم بجميع موارد الإحسان، وحسن وضع أيّ إحسان في أيّ مورد علىٰ النحو المتقن والصنع الجميل الحميد. ولا يخفى ارتباط المضاعفة بما يشاء، كيف يشاء لمن يشاء بالاسم الكريم الواسع.

ثمّ لا يخفىٰ أنّ المصالح الملحوظة في متعلّق الأوامر الشرعيّة، سواء كانت شخصيّة للعامل أو نوعيّة اجتماعيّة، أجنبيّة عن ثواب امتثال الأوامر، فالمصالح الشخصيّة أو النوعيّة لا تصلح أن تكون ثواباً لامتثال الأوامر، سواء قصدت بها القربة، وطلب بها وجه الله الكريم، أم لم يقصد، غاية الأمر أنّ المكلّف لولم يقصد بعمله وجه الله الكريم تفوت عنه المصالح أيضاً، مثل الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر، والحائزة للفوائد الّتي أمر بها الشارع، لولم يقصد بها التقرّب إلى الله، لم تكن ناهية عن الفحشاء والمنكر وحائزة للفوائد، فتبطل المصلحة في المتعلّق، ويفوت الثواب أيضاً، فالثواب الموعود من الله ـ تعالىٰ ـ تفضّلاً ليس هذه المصالح نفسها، بل مرتّب علىٰ إيجاد هذه المصالح بإتيان متعلّق الأمر متقرّباً إلى الله ـ فعلى هذا فالثواب الموعود المضاعف بسبعمائة أو ما فوقها أضعافاً كثيرة، ليس هي المصالح الملحوظة في متعلّق الأوامر بالضرورة، بل المؤمن المستظلّ تحت ولاية الله ـ سبحانه ـ ينال من عواطفه وكراماته بعناية ولايته ـ تعالىٰ ـ عليه في الدّنيا والآخرة، بحسب درجة إيمانه وصحّة يقينه مالا يعلمه إلّا الله سبحانه.

قوله تعالى : «الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثمّ لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى».

الفرق بين هذه الآية وسابقتها أنّ السابقة للحثّ والتشويق للإنفاق، وبيان سنّة الله ـ تعالىٰ ـ في ثواب عمل المحسنين، وهذه الآية في مقام التذكرة بأنّ المضاعفة وتفضّله تعالى لعباده المنفقين في الآية السابقة بما يشاء، كيف يشاء، لا ينبغي ولا يجوز أن يتبع ويتعقّب بالمنّ والأذىٰ. فإنّ أهل الإيمان والمنفقين عليهم أجلّ شأناً وأرفع مقاماً عند الله ـ سبحانه ـ أن يقعوا مورد المنّ والأذىٰ من ناحية المنفقين من جهة إنفاقهم، فالمنّ والأذىٰ يبطلان ثواب أعمالهم، فلا ينتفعون من أعمالهم في الدنيا والآخرة.

قال في لسان العرب ٤١٥/١٣ : مَنَّه يَمُنُّه مَنّاً : قطعه... ومنَّه السيرُ يمنّه مَنّاً : أضعفه وأعياه. ومَنَّهُ يَمُنَّه مَنّاً : نقصه... وقوله عزّ وجلّ : «**لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذىٰ**» المنّ هٰهنا : أن تمنّ بما أعطيت، وتعتدّ به كأنّك إنّما تقصد به الاعتداد، والأذى أن توبّخ المعطىٰ.

أقول : مصداق المنّ في الخارج وبين الناس أمر معلوم، يريد الرجل بإحسانه علىٰ أحد أن يحمل عليه أمراً، لولا إحسانه لما يمكن توقّعه منه، أو يذكر إحسانه عليه عند الناس، أو يقول عند إحسانه أو بعده بمالا يتحمّله ويشقّ عليه.

ثمّ إنّه لا إشكال بحسب الآية، وبحسب دلالة كثير من الرّوايات في كراهة المنّ والأذىٰ كراهة شديدة في موارد لا يوجبان هتك المؤمن واحتقاره والاستخفاف به، ولا كلام أيضاً في التحريم في صورة الإهانة والاستخفاف، إنّما الكلام في استفادة التحريم للمنّ والأذىٰ في صورة عدم الاستخفاف وعدم الإهانة بالمؤمن، وسيأتي البحث في ذلك في قوله تعالىٰ «**يا أيّها الّذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتِكم بالمنّ والأذىٰ**». [البقرة (٢)/٢٦٤]

والظاهر في هذه الآية أنّ المنّ والأذىٰ وقعا بعد الإنفاق لا مقارنين به. وظاهر الآية أنّ الإنفاق المتعقّب بالمنّ والأذى ليس له أجر عند الله ـ سبحانه ـ فإنّ الموضوع للأجر الموعود هو الإنفاق الّذي لا يتعقّب بالمنّ والأذىٰ.

قوله تعالىٰ : «لهم أجرهم» .

فيه إشعار بأنّ هذا الأجر ليس وعداً ابتدائيّاً، بأن يكون مفاد الآية إثبات

الأجر، بل العناية في الكلام تثبيت الأجر المسلّم والتقدير والتحسين لهذا العمل الصالح. وفيه إشعار لنفي الأجر عن غيرهم.

قوله تعالىٰ: «عند ربّهم».

عطف وحنان من الله ـ تعالىٰ ـ فإنّه يدلّ علىٰ أنّ العمل مقبول ومشكور ومحفوظ عند من لا تضييع لديه الودائع، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً. وفي الكلام عناية زائدة علىٰ إعطاء الأجر والجزاء، خاصّة بلحاظ إضافتهم إلى الله ـ سبحانه ـ وتشريفهم بهذه الإضافة.

قوله تعالىٰ: «ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون». (٢٦٢)

هذا نفي للخوف والحزن عنهم مطلقاً، كلّ الخوف والحزن في كلّ موقف، ولا دليل علىٰ تقييده بأنّه لا خوف عليهم ولا حزن من جهة فوات الأجر ونقصانه. على أنّ إعظام الأمر وأهميّته يأبىٰ عن تقييد متعلّق الخوف والحزن، بل المناسب في المقام تقييد الموضوع أي الأمن من الخوف والحزن، فإنّ هذه الكرامة ليست المنفقين علىٰ بإطلاقه، بل لابدّ من شرائط أخرىٰ، ولا أقل أن يكونوا من المتّقين. قال تعالىٰ:

«ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». [يونس (١٠)/٦٢]

و«إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون». [الاحقاف (٤٦)/١٣]

ولا تمرّ بآية في القرآن وفيها ذكر من هذه الكرامة إلّا وفيها ذكر من التقوى والصلاح غالباً.

قوله تعالىٰ: «قول معروف».

المعروف من القول والعمل ما يقابل المنكر، فلابدّ من أن يكون ممّا فيه رجحان وفضيلة ولين؛ ليتحبّب الناس إليه ويتحبّب إلى النّاس. والشاهد علىٰ ذلك، المعروفَ العملي فلا يسمّى معروفاً إلّا ببذل وصلة وعطاء أو دفع سيّئة ومكروه. قال تعالىٰ:

«وإما تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربّك ترجوها فقل لهم قولاً

ميسوراً * ولا تجعل يدك مغلولة إلىٰ عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً». [الإسراء (١٧)/ ٢٨ و ٢٩]

فالظاهر أنّ القول المعروف هو الجميل من القول والكلام.

قوله تعالىٰ: «ومغفرة».

قال في مجمع البيان ٣٧٥/٢: إنّ معناه عفو المسؤول عن ظلم السائل، عن الحسن.. وعلىٰ هذا فيكون ظلم السائل أن يسأل في غير وقته، أو يلحف في سؤاله، أو يسيء الأدب بأن يفتح الباب أو يدخل الدار بغير إذن.

أقول: ويحتمل أن يكون المراد الستر علىٰ السائل، بناء علىٰ أنّ غفر بمعنىٰ ما ستر. والظاهر هو ما نقلناه عن المجمع.

قوله تعالىٰ: «خير من صدقة يتبعها أذىٰ».

والظاهر أنّ الترجيح والخيريّة والموازنة من حيث الأجر والثواب، فالرّد الجميل والقول الميسور أولىٰ من الصدقة الّتي امتنّ بها.

في الكافي ١٥/٤، عن العدّة مسنداً عن الوصّافي، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

كان فيما ناجى الله ـ عزّ وجلّ ـ به موسىٰ عليه السلام قال: يا موسىٰ أكرم السائل ببذلٍ يسير أو بردّ جميل؛ لأنّه يأتيك من ليس بإنس ولا جانّ، ملائكة من ملائكة الرحمن يبلونك فيما خوّلتك، ويسألونك عمّا نوّلتك، فانظر كيف أنت صانع يا بن عمران.

وفي الوسائل ٤٢٠/٩، عن قرب الإسناد، عن الحسن بن ظريف، عن الحسين بن علوان، عن جعفر، عن أبيه، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

ردّوا السائل ببذلٍ يسير وبلين ورحمة، فإنّه يأتيكم حتّىٰ يقف علىٰ بابكم من ليس بإنس ولا جانّ، ينظر كيف صنيعكم فيما خوّلكم الله.

قوله تعالىٰ: «والله غنيّ حليم». (٢٦٣)

إنّ الله ـ تعالىٰ ـ غنيّ لا يرغب في الجزاء، وحليم لا يؤاخذ بالعجلة، أو يعفو ويصفح عن زلّات الجاهلين. والغني والحليم من أسماء الله الحسنىٰ، فالأول

للتقديس والتنزيه عن الافتقار والاحتياج، والرغبة في الجزاء والتوقّع في العطاء. والحليم أي ذو أناة لا يعجل بالانتقام علىٰ من عصاه في مقام التهديد، ويعفو ويصفح عن ذنوب الجاهلين، فعلى الأوّل هو من أسمائه الجلاليّة، وعلى الثاني من أسمائه الجماليّة.

قوله تعالىٰ: «يا أيّها الّذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذىٰ كالّذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر».

المنّ والأذى لا إشكال في حرمتها عقلاً إذا وقعا هتكاً واستخفافاً للمؤمن المنفق عليه، أمّا إذا لم يبلغ المنّ مرتبة الإهانة فالّذي يستفاد من روايات الباب والآيات الكريمة هو شدّة الكراهة، واستفادة التحريم من الآيات والروايات في غاية الإشكال، فمع قطع النظر عن هذا المنّ والأذى سواء كانا محرّمين أو مكروهين لا يستلزمان بطلان الصدقات، إذ ليست حقيقة الصدقة بعينها حقيقة المنّ والأذىٰ المكروهين أو المحرّمين، سواء كانا مقارنين بعمل الصدقة أو متأخرين عنه، فالصحّة الفقهيّة للصّدقة لا تنافي المنّ والأذىٰ كما لا يخفىٰ. وهذا بالنسبة إلى المنّ والأذى الواقعين بعد الصدقة أوضح.

ولا يخفىٰ علىٰ الفقيه البصير أنّ الروايات في ذمّ المنّ والمنّان ليس لحنها ومفادها الجزئيّة أو الشرطيّة، أعني أنّ عدم المنّ مقارناً أو متأخّراً عن الصدقة ليس شرطاً أو جزءاً لها، بل غاية ما في هذه الروايات أنّ المنّ صفة رذيلة، والمنّان شخص رَذْلٌ ساقط في عداد النّمام والعتل والزنيم. والحبط الواقع في بعض العبارات والأخبار حبط للثواب. والمنّ بعد الصدقة ليس من دأب الأحرار النجباء، والأخيار الأتقياء. ويشهد علىٰ ذلك تشبيه عمل المانّ والمؤذي في إنفاقه بالّذي ينفق ماله رئاء الناس، من دون أن يقصد بعمله وجه الله الكريم، والّذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فإنّه لاشكّ في عدم الثواب لعمل المنافق المرائي الّذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

في الكافي ٢٢/٤، عن محمد بن يحيىٰ مسنداً عن إسحاق بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ كره لي ستّ خصال وكرهتها للأوصياء من ولدي وأتباعهم من بعدي ـ منها المنّ بعد الصدقة.

وفي الفقيه ١٠/٤، بإسناده عن شعيب بن واقد، عن الحسين بن زيد، عن الصادق جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين علىٰ بن أبي طالب عليهم السلام قال في حديث المناهي:

... ومن اصطنع إلى أخيه معروفاً فامتنّ به أحبط الله عمله وثبت وزره، ولم يشكر له سعيه. ثم قال عليه السلام: يقول الله ـ عزّ وجلّ: حرّمت الجنّة على المنّان والبخيل والقتّات، وهو النمّام. ألا ومَن تصدّق بصدقة فله بوزن كلّ درهم مثل جبل أُحد من نعيم الجنّة، ومن مشى بصدقة إلى محتاج كان له كأجر صاحبها من غير أن ينقص من أجره شيء....

أقول: قوله: ولم يشكر له سعيه، قرينة علىٰ أن المراد من إحباط العمل وثبوت الوزر، هو إحباط ثواب اصطناع المعروف وثبوت وزر المنّ.

قوله تعالىٰ: «**فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً**».

في لسان العرب ٤٦٤/١٤: الصَّفْواءُ والصَّفْوانُ والصَّفاء... ابن سيده: الصَّفاة الحَجَر الصلدُ الضَّخْم الّذي لا ينبت شيئاً.

وفيه ٧٢٠/١١: الوَبْل والوابل: المطر الشديد الضَّخم القطْر.

فالمعنى أنّ مَثَل مَن أنفق وتصدّق ثمّ مَنّ وأذى لمن يتصدّق عليه، كمثل صخرة عظيمة عليها تراب فأصابها المطر الشديد فيغسل التراب منها، فيتركها صلداً لا تصلح للانتفاع منها في شيء من الحوائج.

في تفسير القمي ٩١/١ قال: قال الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

مَن أسدى إلى مؤمن معروفاً ثمّ آذاه بالكلام، أو منّ عليه فقد أبطل اللهُ صدقتَه، ثم ضرب الله فيه مثلاً فقال: «**كالّذي ينفق ماله رئاء الناس ...**» وقال: منَ أكثر منُّه وأذاه لمن يتصدّق عليه بطلت صدقتُه

كما يبطل التراب الّذي يكون علىٰ صفوان ـ والصفوان الصخرة الكبيرة الّتي تكون علىٰ مفازة ـ فيجيء المطر فيغسل التراب عنها ويذهب به. فضرب الله هذا المثل لمن اصطنع معروفاً ثمّ أتبعه بالمنّ والأذىٰ.

قوله تعالىٰ: «لا يقدرون علىٰ شيء ممّا كسبوا».

أي لا يمكن لهم الانتفاع بشيء من الأعمال الّتي وقع فيها المنّ والأذىٰ.

قوله تعالىٰ: «والله لا يهدي القوم الكافرين». (٢٦٤)

تصريح منه ـ تعالىٰ ـ بأنّ المانّ والمؤذي الّذي يمنّ في صدقته وإحسانه لا يهتدي بشيء من هداية الله ـ سبحانه ـ لقبح عمله، وبطلان فائدته. وإطلاق الكفر عليهما إنّما هو نظراً إلىٰ قوله تعالىٰ: «**ولا يؤمن بالله واليوم الآخر**».

قوله تعالىٰ: «ومَثَل الّذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنّة بربوة أصابها وابلٌ فآتت أُكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلّ».

في لسان العرب ٤٠٥/١١: الطلّ: المَطَر الصِّغار القَطر الدائم؛ وهو أرسخ المطر نَدىً.

وفيه أيضاً ٣٠٦/١٤: الرَّبْوُ والرَّبْوة والرُّبوة والرِّبوة والرَّباوَة والرُّباوَة والرِّباوة والرّابية والرّباة: كلّ ما ارتفع من الأرض وربا.

مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ويطلبون مرضات الله، ويهتمّون بهذا الأمر؛ كي يثبت في أنفسهم وينالوا خيراته وبركاته، كمثل جنّة في موضع مرتفع يصيبها المطر الضخم القطر فيتضاعف مأكولها وفوائدها، وإن لم يصبها المطر الشديد يصبها الصغار من المطر غير المنقطع، الّذي هو أرسخ الأمطار وأنفعها.

قال عليّ بن إبراهيم في تفسيره ٩٢/١: ثمّ ضرب الله مثل المؤمنين: «**ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ...**» قال: «**كمثل جنّة**» أي بستان في موضع مرتفع «**أصابها وابل**» أي مطر «**فآتت أُكلها ضعفين**» أي يتضاعف ثمرها كما يتضاعف أجر من أنفق ماله «**ابتغاء مرضات الله**». والطلّ ما يقع باللّيل على

الشجر والنبات.

قوله تعالىٰ: «واللهُ بما تعملونَ بصير». (٢٦٥)

أي أنّ الله ـ تعالىٰ ـ بصير بما تعملونه من الصالحات والحسنات، فإنّه ـ سبحانه ـ وفيّ لا يضيع لديه أجر المحسنين، وشكور لا يضيّع إيمان المؤمنين.

قوله تعالىٰ: «أيودُّ أحدكم أن تكون له جَنَّة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهارُ له فيها من كلّ الثمرات وأصابه الكبرُ وله ذرّيّة ضُعفاءُ فأصابها إعصارٌ فيه نار فاحترقت».

توبيخ للمانّ والمؤذي في إنفاقه وصدقته، أنّه لا ينتفع بصدقته وإنفاقه عند شدّة احتياجه إليها، كمن له جنّة مشتملة على النخيل والأعناب والأنهار الجارية وتصيبه الشيخوخة وله أولاد صغار لا يقدرون على رعاية جنّته فأصاب الجنّة إعصار فيه نار فاحترقت الجنّة وجميع ما فيها من الفواكه والثمار، فانظر كيف ابتلاه الله ـ سبحانه ـ بالحرمان والخذلان عند شدّة احتياجه لبستانه وثماره.

في تفسير القمي ٩٢/١: الإعصار: الرياح، فمَن امتنّ علىٰ مَن تصدّق عليه كمَن كان له جنّة كثيرة الثمار، وهو شيخ ضعيف له أولاد صغار ضعفاء فتجيء ريح أو نار فتحرق ماله كلّه.

قوله تعالىٰ: «كذلك يُبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكّرون». (٢٦٦)

الكاف للتشبيه، و«ذلك» إشارة إلىٰ ما تقدّم من آفات المنّ والأذىٰ. فالله ـ سبحانه ـ بيّن بهذه الأمثال ما يصيبه الإنسان من المنّ والأذىٰ، وكذلك ما يصيبه من نعم الله تعالىٰ وآلائه بسبب إنفاقه في سبيل الله ابتغاءً لوجه الله الكريم، لعلّكم تتفكّرون وتنالون وتدركون فيما تعملون، وتكونون علىٰ بصيرة في أفعالكم.

قوله تعالىٰ: «يا أيّها الّذين آمنوا أنفقوا من طيّبات ما كسبتم».

خاطب الله المؤمنين أن ينفقوا ويتصدّقوا من أطيب أمتعتهم الّتي كسبوا. والظاهر أنّ المراد من الطيّبات هي الطيّبات الحسيّة، أي من أجود ما يأكل الناس من الطعام والغذاء.

قوله تعالىٰ: «وممّا أخرجنا لكم من الأرض».

عطف على الطيّبات. أي أنفقوا وأخرجوا من الثمرات والغلّات والحبوبات ونظائرها.

قوله تعالىٰ: «ولا تيمّموا الخبيثَ منه تُنفقونَ».

أي لا تقصدوا المنفور والرديّ ممّا كسبتم، أو أخرجه الله لكم من الأرض؛ لينفقوه.

قوله تعالىٰ: «ولستم بآخذيه إلّا أن تُغمضوا فيه».

هذا هو الميزان في باب إنفاق الطيّبات وغيرها؛ وهو أنّه إن أُنفق هذا الشيء الذي أردتم إنفاقه، فهل أنتم آخذوه بطيب من أنفسكم، أو تأخذونه بالتسامح والإغماض من باب الاستحياء والمداراة، فإن كان بالوجه الأوّل فتنفقوه فإنّه طيّب وإن كان بالوجه الثاني فلا تنفقوه فإنّه من الرّديء والمنفور.

قوله تعالىٰ: «واْعلموا أنّ الله غنيّ حميد». (٢٦٧)

إرشاد وتذكرة أنّكم تعرفون ما تنفقونه وتحسنونه من النفيس والمرغوب فيه والخبيث والمنفور عنه، فليس من أدب الموحّدين وسنّتهم أن يعطوا مالايرغبون فيه، فإنّه ليس هذا إلّا استخفافاً بمن ينفق عليه، والله ـ سبحانه ـ غنيّ من صدقاتكم هذه وحميد الذات. وقد تقدّم في سورة الفاتحة، أنّ كونه ـ تعالىٰ ـ حميداً أي برئياً ومقدّساً ومنزّها في شدّة غير متناهية عن كلّ عيب ورين.

في تفسير العيّاشي ١٤٩/١، عن أبي الصباح، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قوله الله **«ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون»** قال:

كان الناس حين أسلموا عندهم مكاسب من الربا ومن أموال خبيثة، فكان الرّجل يتعمّدها من بين ماله فيتصدّق بها، فنهاهم الله عن ذلك. وإنّ الصّدقة لا تصلح إلّا من كسب طيب.

قوله تعالىٰ: «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء واللهُ يعدكم مغفرةً منه وفضلاً».

الشيطان حقيقة ناريّة، وجسم لطيف له سلطة علىٰ القلوب والأرواح والأبدان، وهو ابتلاء وامتحان من الله ـ تعالىٰ ـ وقد حذّر آدم وذرّيّته من طاعته،

ومكّنهم من مغالبته وقهره. ومعنىٰ وعده تسويلاته ومكائده ومصائده لإغواء بني آدم وإضلاله.

قال في مجمع البيان ٢/ ٣٨١: والفرق بين الوعد والوعيد أنّ الوعيد في الشرّ خاصّة، والوعد يصلح بالتقييد للخير والشرّ معاً غير أنّه إذا أطلق اختصّ بالخير.

فالآية الكريمة تُذكّر وتُنبّه علىٰ أنّ إنفاق الرديء من المال، والإمساك عن إنفاق الجيّد والطيّب، إنّما هو من تسويلات الشيطان الخبيث، يخوّفهم من الفقر والإملاق ويزيّن عندهم البخل. وليس هذا إلّا ضلالة وجزافة لا حقيقة له بحسب الواقع، إذ الإعسار واليسار بيده ـ تعالىٰ ـ وقد أمر بالإنفاق ووعد بالفضل والجزاء الحسن. والمطابق للبرهان والعقل والعلم هو الإيمان بالله والإذعان بأنّه هو الواهب والمعطي، وأنّه الصّادق لا يخلف الميعاد، يجزي بالإحسان إحساناً، والسيّئات غفراناً، ويضاعف للّذين ينفقون أموالهم في سبيله سبعمائة، ويزيد علىٰ من يشاء من فضله.

قوله تعالىٰ: «والله واسع عليم». (٢٦٨)

واسع لا يخاف ضيق إملاق فيكدىٰ، ولا يلحقه خوف عدم فينقص فضله، فإنّ الله ـ سبحانه ـ من سعة يده وإحسانه بحيث لا يؤثّر فيه العطاء والفضل والإحسان. وعليم بجميع من يستحقّ العطاء بفضله. ويمكن أن يقال: إنّه عليم بسرائر الذين ينفقون والّذين يبخلون.

يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

قال تعالىٰ: «يؤتي الحكمةَ مَن يشاءُ»

الحكمة هو العلم المفاض من الله ـ سبحانه ـ وهو علم خاصّ بخلاف الهدىٰ والعلم وغيرهما من الألفاظ الحاكية عن حقيقة العلم. وحيث إنّها إعطاء من الله

ـتعالىٰـ فاكثر الموارد المستعملة في الكتاب الكريم تأتي في مورد الأنبياء عليهم السلام قال تعالىٰ:

«وقتل داود جالوت وآتاه اللهُ الملك والحكمة وعلّمه ممّا يشاء». [البقرة (٢)/٢٥١]

و«أم يحسُدون الناس علىٰ ما آتاهم من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً». [النساء (٤)/٥٤]

و«إذ قال يا عيسى أبن مريم أذكر نعمتي عليك وعلىٰ والدتك إذ أيّدتك بروح القدس تكلّم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة». [المائدة (٥)/١١٠]

و«والطّير محشورة كلّ له أوّاب وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب». [ص (٣٨)/ ١٩ و ٢٠]

و«ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإنّ الله غني حميد». [لقمان (٣١)/١٢] وغيرها من الآيات

فالحكمة ليست هو العلم العام، والهداية العامّة لكلّ فرد من أفراد الإنسان، بل هي عبارة عن العلم المفاض علىٰ الأنبياء علىٰ نحو خارق للعادة، أو العلم المفاض علىٰ بعض الأفاضل الأتقياء بعناية خاصّة، وكرامة ممتازة من الله سبحانه، فإفاضة العلم من الله وبيد الله يؤتيه من يشاء، ويختصّ بكرامته من يحبّ بما يشاء، كيف يشاء سعة وضيقاً، كثرة وقلّة.

وممّا ذكرنا يعلم أنّ تفسير الحكمة بالمعلومات ممّا لا ينبغي، إذ متعلّق الإعطاء هو العلم الخاصّ، ولا محصّل لإعطاء المعلومات؛ لأنّ المعلوم ممّا يعلم بالعلم. ومنه يعلم أنّ تفسير الحكمة بالقضايا الحقّة المطابقة للواقع كما في الميزان ٣٩٥/٢، ممّا لا يصحّ، فإنّ القضايا الحقّة من المعلومات لا من قبيل العلم، إذ العلم ليس هو الصورة الحاصلة في الذهن، فإنّ الصورة ليست بعلم، بل هي من المعلومات بالعلم. وقد أشعبنا البحث في ذلك في كتابنا توحيد الإماميّة، مَن أراده فليراجعه.

وفي التفاسير الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام تذكرة وإرشاد إلى حقيقة الحكمة والعلم ببيان بعض الموارد المعلومة بهذا العلم. وفي بعضها تصريح بأصل الحكمة وحقيقتها.

في الكافي ١٦/١، عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال:

يا هشام إنّ الله ـ تعالىٰ ـ يقول في كتابه... : «**ولقد آتينا لقمان الحكمة**» قال: الفهم والعقل.

وفيه أيضاً /١٨٥، عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: «**ومن يؤت الحكمة ...**». فقال:

طاعة الله ومعرفة الإمام.

وفيه أيضاً ٢٨٤/٢، عن يونس، عن ابن مسكان، عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول:

«**ومن يؤت الحكمة ....**» قال: معرفة الإمام، واجتناب الكبائر الّتي أوجب الله عليها النار.

أقول: تفسير الحكمة بطاعة الله، واجتناب الكبائر حيث إنّهما من المستقلّات العقليّة، والضروريّات الفطريّة، أراد عليه السلام الإرشاد والتذكرة إلىٰ حقيقة الحكمة والعقل. وليس مراد الإمام عليه السلام أنّ الاجتناب والطاعة اللّتين هما فعل المكلّف هي الحكمة، وهذا واضح.

وفي تفسير العياشي ١٥١/١، عن سليمان بن خالد قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله: «**ومن يؤت الحكمة ...**»، فقال:

الحكمة، المعرفة والتفقّه في الدّين، فمن فقه منكم فهو حكيم، وما من أحد يموت من المؤمنين أحبّ إلىٰ إبليس من فقيه.

فتعيّن أنّ الحكمة بحسب المصداق هي المستقلات العقليّة في العلوم الدائرة عند العقلاء، والعلوم المفاضة من الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ أنبيائه ورسله. وهما من مصاديق العلم الواقعيّ بالحقيقة، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو من الحقائق الثابتة أحكمت من لدن حكيم خبير. وأمّا العلوم الحصوليّة

ومكاشفات الصوفيّة فإنّها مثار التبدّل والتناقض بين علمائهم، وبالنسبة إلىٰ شخص واحد أيضاً، كما هو واضح لمن كان له أدنىٰ تأمّل في مقالاتهم. نعم الحجّية الّتي للعلم الحصولي هو وجوب الجري علىٰ طبقه أصاب أو أخطأ، لا كاشفيته للواقع.

قوله تعالىٰ: «فقد أُوتي خيراً كثيراً».

الخير والشرّ كلاهما أمران وجوديّان متقابلان. والخير ما يناسب فضله ـ تعالىٰ ـ وإحسانه مثل الغنى والعافية، والثروة والعزّة، والعلم والكرامة، وفي الآخرة مثل العفو والغفران، والجنّة والبهجة والرضوان، والشرّ ما يناسب عدله ـ تعالىٰ ـ وأخذه وانتقامه كالفقر والمرض، والذلّة وسلب النور والعلم، والإهانة لأعدائه وأخذهم وطردهم، والانتقام منهم بتسليط أوليائه عليهم، وفي الآخرة مثل النار.

وتوصيف الخير بالكثير واضح، فإنّ الخيرات وإن عظمت وكثرت لاصفاء لها مع الجهل والضلالة، وكلّ نعمة وبهجة متوقفة على الحكمة والهدىٰ فهي أبهىٰ نعمة وأجلّ كرامة.

قوله تعالىٰ: «وَما يذّكّر إلّا أولواْ الألباب». (٢٦٩)

الذكر مقابل النسيان والغفلة، والتذكّر هو وجدان الشيء المنسيّ والمغفول عنه، والعلم به بعدما كان منسياً ومغفولاً. وقد ذمّ الله في هذا القرآن أقواماً لا يتذكّرون ولا يعقلون، وعاتبهم عتاباً شديداً؛ لإعراضهم عن التذكرة والذكرى الّتي أساس القرآن عليها، وعلى الاحتجاج والاستدلال بالأمور والحقائق الّتي يتوجّه المستمع بالتذكرة والإرشاد إليها، فقد أثبت الله ـ تعالىٰ بهذا البرهان النيّر لجاجهم وعنادهم. قال تعالىٰ:

«أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لا يهدي إلّا أن يهدىٰ فما لكم كيف تحكمون». [يونس (١٠)/٣٥]

و«**إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربىٰ وينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكّرون**» النحل (١٦)/ ٩٠

و«**مثل الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً**

وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون». [العنكبوت (٢٩)/٤١]

فتبيّن من جميع ما قرّرنا أنّ التذكّر هو الانتقال إلى الشيء المنسيّ والمغفول مباشرة. وعلىٰ هذا فما قاله في الميزان ٣٩٦/٢، من أنّ التذكّر هو الانتقال من النتيجة إلى مقدّماتها أو من الشيء إلىٰ نتائجه، لا محصّل له إذ هو بناءً علىٰ أنّ العلم بالحقائق إنّما يكون بإقامة البراهين، وتنظيم الأقيسة. والحال أنّ أساس القرآن في جلّ تعاليمه علىٰ التذكرة بما أودع الله في ذوات البشر من نور العقل وشعاع الفطرة، وهو أقوم طريق وأسدّ سبيل لسوق البشر إلى كمالاتهم الّتي تيسّر لهم الوصول إليها.

وأولو الألباب هم العارفون بسنن الله ـ تعالىٰ ـ في عباده وأوليائه من عواطفه وحنانه، فهؤلاء هم الّذين يتذكّرون أنّ الله هو الواهب والمعطي، وأنّ الحكمة خير كثير، وهم الحكماء والعقلاء دون غيرهم. ويشهد علىٰ ذلك مارواه في الكافي ١٢/١، عن العدّة، عن أحمد بن محمّد بن خالد، عن بعض أصحابه، رفعه قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

ما قسّم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل. ولا بعث الله نبيّاً ولا رسولاً حتّىٰ يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمّته، وما يضمر النبيّ صلوات الله عليه في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين. وما أدّى العبد فرائض الله حتّىٰ عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أولو الألباب الّذين قال الله تعالىٰ: «وما يتذكّر إلّا أولوا الألباب».

وفيه أيضاً / ١٥، عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام قال:

يا هشام ثمّ ذكر أولي الألباب بأحسن الذكر، وحلّاهم بأحسن الحلية فقال: «يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذّكّر إلّا أولوا الألباب». وقال: «الراسخونَ في العلم

يقولونَ آمنّا به كلٌّ من عندِ ربّنا وما يذّكّر إلّا أولوا الألباب». [آل عمران (٣)/٧] وقال: «إنّ في خلق السموٰاتِ والأرض واختلاف اللّيل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب». [آل عمران (٣)/١٩٠] وقال: «أفمن يعلم أنّما أُنزل إليك من ربّك الحقّ كمن هو أعمىٰ إنّما يتذكّر أولوا الألباب». [الرعد (١٣)/١٩] وقال: «أمّن هو قانت آناء اللّيل ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرة ويرجو رحمة ربّه قل هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون إنّما يتذكّر أولوا الألباب». [الزمر (٣٩)/٩] وقال: «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدَّبروا آياته وَلِيتذكّر أولوا الألباب». [ص (٣٨)/٢٩] وقال: «ولقد آتينا موسى الهدىٰ وأورثنا بني إسرائيل الكتابَ هدًى وذكرى لأولي الألباب».[المؤمن (٤٠)/٥٣ و ٥٤] وقال: «وذكّر فإنّ الذكرىٰ تنفعُ المؤمنين». [الذّاريات (٥١)/٥٥].

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ

﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

قوله تعالىٰ: «وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإنّ الله يعلمه».

الظاهر عموم النفقة وعموم النذر في سبيل الله، لا لعدم إمكان شمول لفظ الإنفاق والنذر علىٰ الفاسد منهما، بل لأجل أنّ قوله تعالىٰ: «وما للظّالمين من أنصار» مختص بالتهديد والتوبيخ للظالمين والعصاة فقط، فلا مجال للقول: بأنّ أوّل الآية للتشويق والتهديد وآخرهما للتهديد فقط، وقرينة التقابل تدلّ علىٰ أنّ الأوّل للتشويق والآخر للتهديد، فالمتيقّن من الإطلاق هو الإنفاق والنذر في سبيل الله.

قوله تعالىٰ: «وما للظّالمين من أنصار». (٢٧٠)

يشمل بإطلاقه مورد الآية وغيره. ونعني بالمورد منع الإنفاق الواجب، والبخل بحقّ الله في ماله، وما تعلّق بذمّته من حقوق الناس، ونعني بغير المورد كلّ معصية وظلم عصي الله بهما.

قال الرازي في تفسير ٧٥/٧٠: المعتزلة تمسكوا بهذه الآية في نفي الشفاعة عن أهل الكبائر. قالوا: لأنّ ناصر الإنسان من يدفع الضرر عنه، فلو اندفعت

العقوبة عنهم بشفاعة الشفعاء لكان أولئك أنصاراً لهم وذلك يبطل قوله تعالىٰ: «**وما للظّالمين من أنصار**».

قال في الميزان ٣٩٦/٢ : وفي هذه الجملة أعني قوله : «**وما للظالمين من أنصار**» دلالة، أوّلاً علىٰ أنّ المراد بالظلم هو ظلم الفقراء والمساكين في الإمساك عن الإنفاق عليهم، وحبس حقوقهم الماليّة، لا الظلم بمعنى مطلق المعصية، فإنّ في مطلق المعصية أنصاراً ومكفّرات وشفعاء كالتوبة، والاجتناب عن الكبائر، وشفعاء يوم القيامة، إذا كان من حقوق الله تعالى. قال تعالىٰ : «**لا تَقنطوا من رحمةِ الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً ـ إلىٰ أن قال ـ وأنيبوا إلىٰ ربّكم**». [الزمر (٣٩)/٥٣، ٥٤] وقال تعالى: «**إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفر عنكم سيّئاتكم**». [النساء (٤)/٣١] وقال تعالىٰ : «**ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى**». [الأنبياء (٢١)/٢٨]... وثانياً أنّ هذا الظلم وهو ترك الإنفاق لا يقبل التكفير ولو كان من الصغائر لقبله فهو من الكبائر... وأنّه لا يقبل الشفاعة يوم القيامة كما يدلّ عليه قوله تعالى: «**إلّا أصحاب اليمين * في جنّان يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نكُ من المصلّين * ولم نكُ نطعم المسكين ـ إلى أن قال ـ: فما تنفعهم شفاعة الشافعين**». [المدّثّر (٧٤)/ ٣٩ ـ ٤٨] ... ورابعاً أنّ الامتناع من أصل إنفاق المال علىٰ الفقراء مع وجودهم واحتياجهم من الكبائر الموبقة، وقد عدّ ـ تعالىٰ ـ الامتناع عن بعض أقسامه كالزكاة شركاً بالله وكفراً بالآخرة. قال تعالىٰ : «**وويلٌ للمشركين * الذين لا يؤتون الزكوٰة وهم بالآخرة هم كافرون**». [فصّلت (٤١)/٦و٧]

أقول : لا يخفى ما في استدلاله بالآيات علىٰ مقصوده :

أمّا قوله تعالىٰ : «**قل يا عبادي الّذين أسرفوا علىٰ أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربّكم وأسلِموا اله من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون**». [الزّمر (٣٩)/٥٣ و ٥٤]، فالآية الكريمة تنهىٰ جميع المسرفين عن القنوط، وتأمرهم بالإنابة إليه، فإنّ القنوط من رحمة الله ـ سبحانه ـ حرام بحكم العقل، والإنابة إليه، واجب بالبداهة. وكذا الإسلام أيضاً، فالآية الكريمة ليست في بيان تفصيل المعاصي والعاصين من حيث

لحوق الشفاعة وعدمه، بل الآية ساكتة عن هذا الحيث بالكلّيّة. ولو حمد علىٰ ظاهر قوله: «إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً» فنقول: هو تمجيد لله ـ سبحانه ـ بالغفران والرحمة، وليس فيه دلالة علىٰ الشفاعة وشرائطها.

وأمّا قوله تعالىٰ: «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ...» فإنّه يدلّ علىٰ الصفح عن الصغائر بالاجتناب عن الكبائر، وهو بالنسبة إلىٰ أهل الكبائر من حيث نيلهم شفاعة الشافعين ساكت بالكلّيّة نفياً وإثباتاً.

وأمّا قوله تعالىٰ: «ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ» فالظاهر أنّ قوله: «لمن ارتضى» مفعول أي يشفعون لمن ارتضى الله دينه وهو الإسلام، الّذي ارتضاه لأحبائه وأنبيائه ديناً. وهذا بإطلاقه يشمل المانعين عن الزكاة أيضاً إلّا أنّ هذا الإطلاق في معرض التقييد.

وأمّا قوله تعالىٰ: «إلّا أصحاب اليمين * في جنّاتٍ يتساءلون عن المُجرمين * ما سلككمُ في سقر * قالوا لم نكُ من المصلّين * ولم نكُ نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذّب بيوم الدين * حتى أتينا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشافعين». [المدّثّر (٧٤)/٣٩ ـ ٤٨]، فهو نصّ في الكفّار والمكذّبين بيوم الدين، والمستهزئين بأنبياء الله ـ تعالىٰ ـ وآياته، لا لأجل عدم إطعامهم المساكين وعدم إقامتهم الصلاة. والظاهر أنّ الآية الكريمة قريبة المفاد من قوله تعالىٰ: «أرأيت الّذي يكذّب بالدّين * فذلك الّذي يدعّ اليتيم * ولا يحضُّ علىٰ طعام المسكين». [الماعون (١٠٧)/١ـ٣]

وأمّا قوله تعالىٰ: «وويلٌ للمشركين * الّذين لا يؤتون الزكوٰة وهم بالآخرة هم كافرون» [فصلت ٦/٤١، ٧] لا دلالة فيه علىٰ أنّ الشرك والكفر إنّما هما لأجل استحلالهم ترك الزكاة، ضرورة أنّ قوله تعالىٰ: «لا يؤتون الزكوٰة» وصف للمشركين، وقوله تعالى: «وهم بالآخرة هم كافرون» وصف ثانٍ لهم، ولاخفاء أنّ نسبة الوصف إلى الموصوف بمنزلة المحمول إلى الموضوع، والوصف والمحمول ليسا ضامنين لإيجاد الموضوع والموصوف ولا لإبقائهما، فكما لا يكون عدم إيتاء الزكاة سبباً لوجود الشرك، كذلك لا يكون سبباً لوجود الكفر أيضاً، ضرورة أنّ منع الزكاة والكفر بالآخرة وصفان للمشركين في عرض سواء، وليست بينهما نسبة

السببيّة والمسببيّة، والمراد من المشركين في هذه الآية هم المنافقون، والنصّاب الّذين أظهروا الإسلام بألسنتهم، وأبطنوا الكفر والنفاق في قلوبهم، ولا كلام في عدم كونهم من المشفوعين، وإنّما الكلام في مرتكبي الكبائر، ودلالة الآية علىٰ نفي الشفاعة من المانعين للزكاة من المسلمين المؤمنين.

وبالجملة لا كلام في أنّ الظلم علىٰ الناس بمنع حقوقهم ولا سيّما الزكاة من الكبائر، وأنّ من شرائط التوبة ردّ المظالم إلى أهلها، إلّا أن استفادة ذلك من إطلاق الآية الّذي في معرض التخصيص بتمام الكتاب والسنّة بهذه الوجوه، والغمض عن مخصصاتها ومقيّداتها في أبواب الشفاعة والتوبة علىٰ تفاصيلها لا يرجع إلى محصول.

فالآية الشريفة لا تدلّ إلّا علىٰ أنّ الّذين يبخلون ويمنعون حقوق الفقراء من الظالمين. والظالمون ليس لهم وليّ ولا نصير. والأخذ بهذا الإطلاق يحتاج إلى الفحص من الآيات والروايات الواردة في هذا الباب.

قوله تعالىٰ: «إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي وإن تُخفوها وتُؤتوها الفقراءَ فهو خير لكم».

أقول: الظاهر أنّ الضمير في قوله تعالىٰ: «**فنعمّا هي**» يرجع إلىٰ نفس الصّدقات، فالمعنى: نعم شيئاً هي الصّدقات المعلنة، فالآية لا تدلّ إلّا علىٰ مدح الصّدقات المعلنة فلا تستفاد منها أفضليّة إبداء الصدقات علىٰ إخفائها، ولكن قوله تعالىٰ: «**وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم**» يدلّ علىٰ أنّ إخفاء الصّدقات خير وأفضل. والظاهر أنّ المفضّل عليه هو إبداؤها وإعلانها، فيكون المعنىٰ: إنّ الصدقة عمل حسن مرضي عند الله ـ تعالىٰ ـ وإن كان إعلاناً وإبداءً ولكنّ إخفاءَ الصدقة وإعطاءَها لمستحقّيها أفضل من إظهارها.

ثمّ إنّه قد تقرّر في محلّه أنّ عمومات الكتاب والسنّة في معرض التخصيص بالكتاب والسنن المعتبرة عن أهل البيت عليهم السلام، فلا يجوز الأخذ بتلك العمومات قبل الفحص عن مخصّصاتها وشرائطها وقيودها. وقد ورد في السنن المرويّة عن أهل البيت عليهم السلام تفسير موارد الإخفاء بالصّدقات المندوبة، وموارد الإعلان والإبداء بالصدقات الواجبة.

في الكافي ٥٠١/٣، عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام في قول الله ـ عزّ وجلّ: **«إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين»**. [التوبة (٩)/٦٠] قال:

... فكلّ ما فرض الله عزّ وجلّ عليك فإعلانه أفضل من إسراره، وكلّ ما كان تطوّعاً فإسراره أفضل من إعلانه. ولو أنّ رجلاً يحمل زكاة ماله على عاتقه، فقسّمها علانية لكان ذلك حسناً جميلاً.

وفيه أيضاً ٦٠/٤، عن عليّ ابن إبراهيم مسنداً عن ابن بكير، عن رجلٍ، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله ـ عزّ وجلّ: **«إن تبدوا الصّدقات فنعمّا هي»** قال:

يعني الزكاة المفروضة. قال: قلت: **«وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء»** قال: يعني النافلة، إنّهم كانوا يستحبّون إظهار الفرائض وكتمان النوافل.

وفي تفسير العيّاشي ١٥١/١، عن الحلبي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن قوله الله: **«وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم»**. قال:

ليس تلك الزكاة، ولكنّه الرّجل يتصدّق لنفسه، والزكاة علانية ليس بسرٍ.

قوله تعالى: «ويكفّر عنكم من سيّئاتكم».

جواب للشرط، وعطف على قوله تعالى: **«فهو خير لكم»** فعلى هذا يكون جزاءً للشرط الأخير، أي الإعطاء إخفاءً لا مطلق الإيتاء. والتكفير هو ستر الذنوب، والظاهر أنّ المراد منه هو المحو والإسقاط والعفو، وبديهيّ أنّ المحو والعفو من فعله ـ تعالى ـ فضلاً وإحساناً في مورد الصدقة، فله أن يعفو عن الجميع وعن البعض، فقوله تعالى: «سيّئاتكم» ولو كان المراد منه البعض، فليس له مفهوم بأن لا يكون له ـ تعالى ـ أن يعفو عن الجميع.

ولا يخفى أنّ ما ذكرنا من تكفير السيئات بإخفاء الصدقات هو مفاد الآية، فلا ينافي ذلك حصول التكفير بالصدقات المفروضة المعلنة، لو دلّ عليه دليل آخر.

في العلل / ٢٤٧، عن أبيه مسنداً عن إبراهيم بن عمر بإسناده، يرفعه إلى

علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه كان يقول:

إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون الإيمان بالله ورسوله... وصلة الرحم فإنّه مثراة للمال ومنسأة للأجل، وصدقة السرّ فإنّها تطفئ الخطيئة، وتطفئ غضب الرّبّ.

قوله تعالىٰ: «والله بما تعملون خبير». (٢٧١)

قال في التوحيد /٢١٦: الخبير معناه العالم، والخُبْر والخبير في اللّغة واحد. والخبر عِلمك بالشيء يقال: لي به خُبر أي علم.

قال في رياض السالكين/٤٧٩: والخبير هو الّذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، فلا يجري في الملك والملكوت شيء ولا تتحرّك ذرّة، ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئنّ إلّا ويكون عنده خبره، وهو بمعنى العليم، لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا سمّي خبرة وسمّي صاحبها خبيراً، فهو أخصّ من مطلق العليم.

قال في لسان العرب ٢٢٧/٤: والخَبَر ـ بالتحريك ـ: واحد الأخبار. والخبر ما أتاك من نبإٍ عمّن تستخبر، ابن سيّده: الخَبَر: النبأ... ورجل خابر وخبير: عالم بالخَبَر.

أقول: الظاهر ـ والله العالم ـ أنّ الخبير في أسمائه ـ تعالىٰ ـ بمعنى العالم بالأخبار والأنباء، كالسميع بمعنى العالم بالمسموعات.

قوله تعالىٰ: «ليس عليك هداهم».

قد ذكر الله ـ تعالىٰ ـ أنّه ليس علىٰ عهدة رسول الله صلّى الله عليه وآله هدى الناس، وليس هو بمسؤول عن هدايتهم. وفي هذا البيان تسلية للنّبي صلّى الله عليه وآله وتقدير لبذله غاية وسعه، ونهاية جدّه في هداية الناس. والفرق بين هذه الآية وقوله تعالىٰ: «**إنّكَ لاتهدِي مَن أَحببتَ ولكنَّ اللهَ يهدي من يشاء**». [القصص (٢٨)/٥٦]، أنّ الثانية في مقام بيان توحيده ـ تعالىٰ ـ في هداية الناس إلىٰ نفسه، والآية المبحوث عنها في عين إفادة هذا المعنى الذي يفيد الشكر الجميل منه ـ سبحانه ـ لرسوله، حيث بلّغ رسالات ربّه، وأتعب نفسه القدسيّة في النصيحة لعباده حتّىٰ خاطبه بقوله: «**إن تَحرِص علىٰ هداهم فإنّ الله لا يهدي من**

يُضلّ». [النحل (١٦)/٣٧]

قوله تعالىٰ: «ولكنّ الله يهدي من يشاء».

المستفاد من الكتاب والسنّة أنّ الدّعوة الإسلاميّة، وسنّته ـ تعالىٰ ـ الحميدة الحكيمة في إرسال الرسل، وإبلاغ الأنبياء إنّما هي بعد هدايته ـ تعالىٰ ـ الخلق إلىٰ نفسه، وإلىٰ عدّة مهمّة من أصول الديانة، الّتي إليها تنتهي فروعاتها، وعليها تتكّي جزئيّاتها، فالأنبياء لا يدعون الناس إلىٰ أمر مجهول؛ لتحتاج عامة الناس في نيله وفهمه إلى التدريس والتعليم، بل أساس دعوتهم التذكرةُ ورفع الغفلات، وإخراجُ دفائن عقولهم إليهم، فدعوة الأنبياء في مرحلة التشريع والبلاغ، والموعظة والنصيحة، مطابقة لسنّة التكوين، والجاحد والمخالف إنّما يجحد ويخالف سنّة التشريع والتكوين ويعاندهما بعد هدايته تعالىٰ، وبعد تكميل الحجج وتواتر البيّنات عنده، فإنّ الله قد ألهمه فجور النفس وتقواها تشريعاً وتكويناً، ثمّ بعد إدبار الناس ومخالفتهم وجحودهم قد استحقّوا من الله الهوان والخذلان، والرّين والختم والطبع، فله ـ تعالىٰ ـ أن يعاملهم بعدله ويحكم عليهم بالحرمان، وله أيضاً أن يرحمهم بفضله وكرمه، ويهدي من يشاء إلى ما يشاء.

فالظاهر أنّ الهداية في قوله تعالىٰ: **«ليس عليكَ هداهم ولكنّ الله يهدي من يشاء»** هي الهداية بعد الإدبار والمخالفة والجحود، وإن كانت الهداية العامّة الأولىٰ أيضاً من سنّة الله الجميلة الحميدة، إلّا أنّ الهداية الأولىٰ كانت عامّة، وقد شاء هدايتهم أجمعين. قال تعالىٰ:

«فأقم وجهكَ للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون».
[الروم (٣٠)/٣٠]

فهذا هو الصراط السويّ، والدّين القيّم، والمنار الواضح، ولكنّ الناس ولّوا عنه مدبرين، وفي عين إدبارهم عنه لم يتمكّنوا من إبطال الحجج البالغة، فإنّ الإنسان علىٰ نفسه بصيرة ولو ألقىٰ معاذيره، فقد هلك مَن هلك عن بيّنة وحجّة في بدو هلاكه وإدامته، إلّا أنّه يحتاج إلىٰ هداية خاصّة من الله ـ سبحانه ـ أيضاً، وهو

الله يهدي من يشاء إلىٰ ما يشاء. وقد تقدّم بعض الكلام في هذه الهداية الأولى في تفسير قوله تعالىٰ: **«كان الناس أمّةً واحدةً فبعث الله النبيّين مبشرين ...»**. [البقرة (٢)/٢١٣]

قال في الميزان ٣٩٩/٢ : في الكلام التفات عن خطاب المؤمنين إلى خطاب رسول الله صلّى الله عليه وآله، وكأنّ ما كان يشاهده رسول الله صلّى الله عليه وآله من فعال المؤمنين في صدقاتهم من اختلاف السجايا بالإخلاص من بعضهم، والمنّ والأذىٰ والتثاقل في إنفاق طيب المال من بعض مع كونهم مؤمنين، أوجد في نفسه الشريفة وجداً وحزناً فسلّاه ـ تعالىٰ ـ بالتنبيه علىٰ أنّ أمر هذا الإيمان الموجود فيهم، والهدى الّذي لهم إنّما هو إلى الله تعالىٰ يهدي من يشاء إلى الإيمان وإلىٰ درجاته، وليس يستند إلى النّبيّ، لا وجوده ولا بقاؤه حتّى يكون عليه حفظه...

أقول : عدّ فعال المؤمنين في صدقاتهم من الإخلاص فيها، والمنّ والأذى والتثاقل في إنفاق المال الطيّب، مستنداً إلى الله ـ تعالىٰ ـ لا يصحّ إلّا بناءً علىٰ القول بالتوحيد الأفعالي، وأن ليس للعباد تأثير في أفعالهم، وأنّ المؤثّر هو الله ـ سبحانه ـ فقطّ. وبديهيّ أنّ هذا يوجب كون العباد مجبورين في أفعالهم، وضروريّ أنّ هذا خلاف الوجدان والبداهة، فإنّ الإنسان يجد في نفسه أنّه لا يترك فعلاً إلّا أنّه قادر علىٰ إتيانه حال تركه، ويجد أيضاً أنّه لا يوجد فعلاً إلّا أنّه يستطيع تركه في حال إتيانه الفعل، ويجد أيضاً أنّه يملك هذه القدرة والاستطاعة بتمليك الله ـ سبحانه ـ تمليكاً حقيقيّاً، وحيث إنّ مالكيته في طول مالكيته ـ تعالىٰ ـ فيكون هو ـ تعالىٰ ـ مالكاً لما ملّكه وقادراً علىٰ ما عليه أقدره بالحقيقة.

قوله تعالىٰ: «وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله».

نصيحة منه ـ تعالىٰ ـ أنّ ما ينفقونه عائد إليهم مستقيماً، فلا ينبغي المضايقة في الإنفاق لأنفسهم، فإنّه قد اشتبه الأمر عليهم، وزعموا أنّ ما أنفقوا في سبيل الله وابتغاء وجه الله، فهو إنفاق للغير والحال أنّهم ما ينفقون إلّا لأنفسهم.

قال الرازي في تفسير ٧٨/٧ : إنّك إذا قلت : فعلته لوجه زيد فهو أشرف في

الذكر من قولك: فعلته له، لأنّ وجه الشيء أشرف ما فيه، ثمّ كثر حتّىٰ صار يعبّر عن الشرف بهذا اللّفظ.

أقول: هذا أمر صحيح في بابه، إلّا أنّ انطباقه علىٰ إخلاص تامّ في العمل لله سبحانه، نوع خفاء ولاسيّما في تفسير الآية، فإنّ الابتغاء هو التحرّي لتحصيل الوجه والتصدّي لطلبه، فبقرينة الابتغاء والطلب لابدّ من أن يراد من وجه الله مرضاته تعالىٰ. قال تعالىٰ:

«فآت ذا القربىٰ حقَّه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للّذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون». [الروم (٣٠)/٣٨]

و«وما لأحد عنده من نعمة تجزىٰ * إلّا ٱبتغاء وجه ربّه الأعلىٰ * ولسوف يرضىٰ» [اللّيل (٩٢)/١٩ ـ ٢١]

و«إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً». [الدهر (٧٦)/٩]

و«كل من عليها فانٍ * ويبقىٰ وجه ربّك ذو الجلال والإكرام». [الرحمن (٥٥)/٢٦ و ٢٧]

في التوحيد /١٤٩، عن أبيه مسنداً عن أبي حمزة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله عزّ وجلّ: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه» قال:

فيهلك كلّ شيء ويبقى الوجه. إنّ الله أعظم من أن يوصف بالوجه ولكن معناه: كلّ شيء هالك إلاّ دينه والوجه الّذي يؤتىٰ منه.

وفيه أيضاً، عن محمّد بن الحسن بن أحمد مسنداً عن الحارث بن المغيرة النصري قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه» قال:

كلّ شيء هالك إلّا من أخذ طريق الحقّ.

وفيه أيضاً، عن محمّد بن علىٰ ماجيلويه مسنداً عن صفوان الجمّال، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه». قال:

من أتى الله بما أمر به من طاعة محمّد والأئمّة من بعده صلوات الله

عليهم فهو الوجه الّذي لا يهلك، ثمّ قرأ: «من يطع الرّسـول فـقد أطاع الله». [النساء ٨٠/٤]

فالمتعيّن بحسب هذه الآيات والروايات، وغيرها من الروايـات الواردة في باب النيّة والإخلاص، أنّ الوجه فعل المكلّف وقصده وما يتوجّه به إلى الله تعالىٰ، والعناية في إضافة الوجه بهذا المعنى إلى الله ـ تعالىٰ ـ لأنّه طريق إلى الله سبحانه، وحيث إنّ الإيمان بالله وتوحيده وبرسوله وأوصيائه بعده، من أفضل ما يتوجّه به إلى الله، فالإيمان بالرسالة والإمامة والتديّن بهما والعمل بالطاعة هو وجه الله الباقي. وهذا كلّه مرضات الله سبحانه.

قوله تعالىٰ: «وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون». (٢٧٢)

لمّا ذكر الله ـ تعالىٰ ـ أنّ الإنفاق في سبيل الله وابتغاء وجه الله الكريم عائد إليهم، وإنفاق لأنفسهم بالحقيقة وليس إنفاقاً للغير حتّىٰ يضايقوا فيه، أو ينفقوه من خبث المال وأردئه أو يشوّهوه بالمنّ والأذىٰ، صرّح أنّه سيوفّيه إليهم بتمامه وكماله، فلا تضيع لديه الودائع ولا يضيّع إحسان المحسنين، ولا يظلمهم فيما استودعوه عنده سبحانه. فتبيّن الفرق بين صدر الآية وذيلها، وأنّه ليس من التكرار والتأكيد، وأنّ صدرها لإيجاد التشويق لأصل الإنفاق، وذيلها لتحويل الإنفاق، وردّه يوم الفاقة والحاجة إلى المنفقين.

قوله تعالىٰ: «للفقراء الّذين أُحصروا في سبيل الله».

الجارّ متعلّق بمحذوف. والحصر: المنع.

قال في مجـمع البيان ٣٨٧/٢: قال أبو جعفر عليه السلام: نزلت الآية في أصحاب الصفّة. وكذلك رواه الكلبي عن ابن عباس، وهم نحو من أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة، ولا عشائر يأوون إليهم، فجعلوا أنفسهم في المسـجد، وقالوا: نخرج في كلّ سريّة يبعثها رسول الله، فحثّ الله النّاس عليهم، وكان الرّجل إذا أكل وعنده فضل أتاهم به إذا أمسىٰ.

واضطربت الكلمات في معنىٰ حـصرهم، وعـدم اسـتطاعتهم الخـروج إلى المعاش بالتجارة أو الحرث أو حرفة تخصّ شأن كلّ واحد منهم.

قال الرازي في تفسيره ٧٩/٧: فقد فسّرت هذه الآية بجميع الأعداد الممكنة في معنىٰ الإحصار، فالأوّل أنّ المعنىٰ: إنّهم حصروا أنفسهم ووقفوها علىٰ الجهاد... والقول الثاني: وهو قول قتادة وابن زيد: منعوا أنفسهم من التصرّفات في التجارة للمعاش خوف العدوّ من الكفّار... والقول الثالث؛ وهو قول سعيد بن المسيّب واختيار الكسائي إنّ هؤلاء القوم أصابتهم جراحات مع رسول الله (ص) وصاروا زَمنىٰ فأحصرهم المرض والزمانة عن الضرب في الأرض... والقول الرابع، قال ابن عباس: هؤلاء قوم من المهاجرين حبسهم الفقر عن الجهاد في سبيل الله فعذرهم الله. والقول الخامس، هؤلاء قوم كانوا مشتغلين بذكر الله وطاعته وعبوديّته، وكانت شدّة استغراقهم في تلك الطاعة أحصرتهم عن الاشتغال بسائر المهمّات.

وقال في المنار ٨٦/٣: فالصُفَّة ـ بالضم كالظلّة لفظاً ومعنىً ـ قال: أولئك الّذين نزلت فيهم الآية، كانوا من الّذين هاجروا بدينهم وتركوا أموالهم فحيل بينهم وبينها، فهم محصرون في سبيل الله بهذه الهجرة، ومحصرون بحبس أنفسهم حفظ القرآن، وقد كان حفظه أفضل العبادات على الإطلاق، لأنّه حفظ الدّين كلّه... وإنّما كانوا يحفظونه للفهم والاهتداء والعمل به، ولحفظ الدّين بحفظه، وكانوا أيضاً يحفظون ما يبيّنه به النبيّ (ص) من سنّته.

أقول: لا يخفىٰ على المنصف وهن أكثر هذه التأويلات، فإنّها علل مجعولة بعد الوقوع، ألَم تسألوا عن أنفسهم أنّ من المهاجرين مَن هو أعظم جاهاً وأرفع شأناً، منهم علىٰ عليه السلام وغيره من أعاظم المهاجرين؟ فلأيّ مرجّح تعيّن أصحاب الصُفّة بالجهاد وحفظ القرآن وفهمه؟ وأيّ مرجّح لهم على الأنصار أرباب الثروة والفراغ منهم أو غيرهم من أوساطهم أو فقرائهم؟ والتفقّه في صدر الإسلام مع وجود المعصوم وتواتر الوحي من الله لم يكن بهذه المثابة.

والظاهر أنّ من المهاجرين مَن قد هجمت عليه عوامل الضيق وعلل الإملاق من كلّ ناحية، حيث إنّ المهاجرين قد خرجوا من مساكنهم وديارهم وأولادهم صفر اليدين، ونزلوا المدينة وأووا إلى الأنصار وصار عيشهم في ضنك وضيق، ولم تكن المدينة من كبريات المدن، الّتي تكون فيها أشغال كثيرة وحرف

مختلفة؛ ليكون كلّ من وردها قد حصل علىٰ شغل. وقد ورد في بعض الأخبار أنّ عليّاً عليه السلام كان يستقرض صاعاً أو صاعين من شعير، وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يوم حفر الخندق جائعاً قد شدّ علىٰ بطنه حجراً، وأضافهم جابر بن عبدالله هذا اليوم بذبح عناق وخبز صاع شعير.

قوله تعالىٰ: «لا يستطيعونَ ضرباً في الأرض».

إنّهم في محاصرة ومنع من التصرّف في أموالهم، وإنّما ابتلوا بذلك وأصيبوا به في سبيل الله، فإنّهم لم يخرجوا من ديارهم وأموالهم بطراً، بل أخرجهم الكفّار لأنّهم أذعنوا بأنّ الله هو الحقّ وحده لا شريك له.

وليس المراد من عدم استطاعتهم الضرب في الأرض أنّهم كانوا عاجزين عن المشيء والسعي لطلب المعاش، كيف وهم كانوا يخرجون إلى الجهاد وهو أشقّ الأعمال.

وليس المراد أنّه كان يحرم عليهم، أو يكره الخروج إلى المعاش شرعاً، بل المراد أنّهم لا يضربون في الأرض؛ لعدم تمكنهم ممّا يساعدهم في ذلك كالأموال والصناعات وأدوات الزراعة وتوفّر الماء والبذر، حتّىٰ أنزل الله عليهم نعمةً فصاروا أمراءً وحكّاماً بعد ما كانوا في ضيق وإملاق.

ثمّ لا يخفى أنّ القضيّة ليست شخصيّة منحصرة بفقراء الصُفّة، بل هي قضيّة حقيقيّة سيقت لبيان نوع خاصّ من مصارف الصدقات؛ وهم الفقراء الّذين أحصروا ومنعوا لعوامل شتّىٰ من التصرّف في أموالهم، الفاقدون لجميع وسائل الارتزاق الموهوبة من الله. وأصحاب الصُفّة من مصاديق هذه القضيّة، وتنطبق عليهم وعلىٰ مَن جرىٰ مجراهم. وكذلك تشمل الحصر الشرعي، مثل طلّاب العلوم الدينيّة الّذين يصلحون أن يكونوا حاملين للفقه والمعارف الربوبيّة، الّتي جاء بها القرآن الكريم، ولا يكونوا عالةً على الدّين وأهله، ولا ناصرين لأعداء الدّين، فهؤلاء أيضاً من مصاديق هذه الآية؛ لأنّهم أيضاً لا يستطيون الضرب في الأرض، لأجل صرف أوقاتهم في طلب المعارف الإلهيّة والعلوم الربوبيّة.

قوله تعالىٰ: «يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف تعرفهم بسيماهم».

الظاهر أنّ المراد من الجاهل، الجاهل بحالهم، وما هم فيه من الفقر والضيق. أو المراد منه الّذي ليس له توسّم يتوسّم بفراسته حال الأشخاص، وأنت بتوسّمك تعرف أنّهم في ضيق ومحنة وإملاق، وليس علىٰ وجههم نضرة النعيم، يتعفّفون من بثّ الشكوىٰ والتظاهر بالفقر، حفظاً لشؤونهم وصوناً لوجوههم.

قوله تعالىٰ: «لا يسألون الناس إلحافاً».

قال في لسان العرب ٣١٤/٩: والإلحاف: شدّة الإلحاح في المسألة... وألحَفَ السائل: ألحّ... ومعنى ألحَفَ أي شمل بالمسألة وهو مستغن عنها.

لا ريب بحسب الأخبار والأدلّة الشرعيّة حرمة السؤال عند عدم الاضطرار إليه ـ أعاذنا الله منه ـ وله آثار مشؤومة عاديّة بحسب السنن العاديّة والطبيعيّة، وهو افتتان عجيب مدهش، وقلّ ما يسلم أحد يسأل الناس من ابتذال نفسه، وسلب مناعته وفضائله الروحانيّة من العفّة والتوكّل والسكينة، علىٰ أنّ مَن سأل الناس من غير فاقة واضطرار فقد عصى الله ـ تعالىٰ ـ فإنّه ما فتح عبد باب مسألةنفسه إلّا فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر، وفي روايات الباب ما تقصم الظهور.

في النهج، الخطبة/ ٢٢٥، قال عليه السلام:

اللّهمَّ صُنْ وجهي باليسار، ولا تبذل (تبتذل) جاهي بالإقتار، فأسترزق طالبي رزقك، وأستعطف شرار خلقك، وأُبتلىٰ بحمد من أعطاني، وأفتتن بذم من منعني، وأَنت من وراء ذلك كلّه وليّ الإعطاء والمنع، وإنّك علىٰ كلّ شيء قدير.

في الكافي ١٩/٤، عن علىٰ بن محمّد بن عبدالله مسنداً عن مالك بن حصين السكوني قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

ما من عبد يسأل من غير حاجة فيموت، حتّىٰ يحوّجه الله إليها ويثبّت الله له بها النار.

وفيه أيضاً، عن العدّة مسنداً عن مالك بن عطيّة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال علىٰ بن الحسين عليهما السلام:

ضمنت علىٰ ربّي أنّه لا يسأل أحد من غير حاجة، إلّا اضطرّته المسألة يوماً إلىٰ أن يسأل من حاجة.

وفيه أيضاً، عن محمّد بن يحيىٰ مسنداً عن محمّد بن مسلم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

اتّبعوا قول رسول الله صلّى الله عليه وآله فإنّه قال: مَن فتح علىٰ نفسه باب مسألة فتح الله عليه باب فقر.

قوله تعالىٰ: «وما تنفقوا من خير فإنّ الله به عليم». (٢٧٣)

هذا يكفي في ركونكم ووثوقكم بأعمالكم وإنفاقكم، فإنّها لا تضيع عنكم؛ لأنّها بعين من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فلا تضيع لديه الودائع.

قوله تعالىٰ: «الّذين ينفقون أموالهم باللّيل والنهار سرّاً وعلانية».

قال الرازي في تفسيره ٨٣/٧: لما نزل قوله تعالىٰ: **«للفقراء الّذين أحصروا في سبيل الله»**. بعث عبد الرحمن بن عوف إلىٰ أصحاب الصُفّة بدنانير، وبعث علىٰ رضي الله عنه بوسق من تمر ليلاً فكان أحبّ الصدقتين إلى الله ـ تعالىٰ ـ صدقته، فنزلت هذه الآية. فصدقة اللّيل كانت أكمل... قال ابن عباس: إنّ علياً عليه السلام ما كان يملك غير أربعة دارهم، فتصدّق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سرّاً، وبدرهم علانية، فقال (ص): ما حملكَ علىٰ هذا؟ فقال: أن استوجب ما وعدني ربّي، فقال: لك ذلك، فأنزل الله هذه الآية.

وفي تفسير العيّاشي ١٥١/١، عن أبي إسحاق قال: كان لعليّ بن أبي طالب عليه السلام أربعة دراهم لم يملك غيرها، فتصدّق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سرّاً، وبدرهم علانية، فبلغ ذلك النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال: يا علىٰ ما حملكَ علىٰ ما صنعتَ؟ قال: إنجاز موعود الله فأنزل الله: **«الّذين ينفقون أموالهم باللّيل ...»**.

قال في الآءِ الرحمن/٢٤٣: وروى الواحدي وصاحب الدرّ المنثور أنّ الآية نزلت في أصحاب الخيل الّذين يعلّفونها في سبيل الله. ولكنّك لا تكاد تجد بين هذا وبين الآية مناسبة تليق بكرامة القرآن.

فأقول: كيف كان فالآية الكريمة ليست قضيّة في واقعة كي يبحث عن خصوصيّات هذه القضيّة، وإنّما المراد منها مدح المنفقين أموالهم في السرّ والعلانية وفي اللّيل والنهار. والظاهر أنّ المراد من الآية هو استمرار الإنفاق وعدم تقيّده بوقت دون آخر، وبحال دون غيره، فليس المراد باللّيل والنهار القيديّة.

فإن قيل: إنّ صدقة السرّ والعلن لابدّ من أن تقع في اللّيل والنّهار، فلا يمكن تصوير الوجوه الأربعة.

قلت: كلاّ إنّ صدقة اللّيل سواء كانت سرّاً أم علانية لها شأن بخصوصها، وكذلك صدقة النهار، والتبكير بالصدقة له شأن بخصوصه، كما أنّه وردت روايات بهذا العنوان، فذكر السرّ والعلانية لا يغني عن ذكر اللّيل والنهار. وإن كانت الآية غير متكفّلة ببيان هذا الحيث، إلّا أنّ الرّوايات صريحة في موضوعيّة اللّيل والنهار.

قوله تعالىٰ: «فلهم أجرهم عند ربّهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون». (٢٧٤)

قد سبق تفسيرها في الآية / ٢٦٢، وسيأتي في تفسير الآية/ ٢٧٧ أيضاً.

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

بيان: الآيات الكريمة لا دلالة لها علىٰ الحكم الكلّي الابتدائي لتشريع تحريم الرّبا، وإنّما تدلّ علىٰ تغليظ التحريم وتأكيد ما شرّع أوّلاً، وتعقيب الحكم الأوّلي ببيان تبعاته، وبعض ما يتفرّع منه من العقاب والنكال. وتُبيّن بعضاً من أحكامه الوضعيّة علىٰ ما سيجيئ في تفسير مفرداتها.

قوله تعالىٰ: «الّذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلّا كما يقوم الّذي يتخبّطه الشّيطان من المسّ».

قال في لسان العرب ٢٨٢/٧: كالّذي يتخبّطه الشيطان من المسّ، أي يتوطّؤه فيصرعه، والمسّ الجنون. وفي حديث الدعاء: وأعوذ بك أن يتخبّطني الشيطان، أي يصرعني ويلعب بي... وأصل الخَبْط ضرب البعير الشيء بخفّ يده.

قال الرازي في تفسيره ٨٨/٧: قال الجبائي: الناس يقولون: المصروع إنّما حدثت به تلك الحالة؛ لأنّ الشيطان يمسّه ويصرعه، وهذا باطل؛ لأنّ الشيطان ضعيف لا يقدر علىٰ صرع الناس وقتلهم. ويدلّ عليه وجوه: ... والثاني، الشيطان إمّا أن يقال: إنّه كثيف الجسم، أو يقال: إنّه من الأجسام اللّطيفة، فإن كان الأوّل

وجب أن يرى ويشاهد.... ولأنّه لو كان جسماً كثيفاً فكيف يمكنه أن يدخل في باطن بدن الإنسان. وأمّا إن كان جسماً لطيفاً كالهواء فمثل هذا يمتنع أن يكون فيه صلابة وقوّة، فيمتنع أن يكون قادراً علىٰ أن يصرع الإنسان ويقتله... الرابع: أنّ الشيطان لو قدر علىٰ ذلك فلِمَ لا يصرع جميع المؤمنين؟! ولم لا يخبّطهم مع شدّة عداوته لأهل الإيمان؟! ولم لا يغصب أموالهم ويفسد أحوالهم ويفشي أسرارهم ويزيل عقولهم؟!

أقول: المسلّم من الآية أنّ الخبط والصرع والجنون تحصل من مسّ الشيطان، ولا دلالة في الآية الكريمة علىٰ أنّ كلّ جنون وخبط من مسّ الشيطان. وقد حقّق في محلّه أنّ تسلّط الشيطان علىٰ أولاد آدم ليس ممّا تستحيله سنّة العادة والطبيعة. والمنكرون إنّما أنكروه من ناحية إنكار أصل الشيطان، بمعنى عدم وجود مخلوق ناريّ ماديّ شرّير يعاند الله ويكابره، وقد أنظره الله لحكمة معلومة عنده ـ سبحانه ـ إلىٰ اليوم الوقت المعلوم، فإنّه لا فرق بينه وبين المتكبّرين في الأرض الّذين يستذلّون عباد الله، ويقتلون أولياءه، ويفسدون في الأرض بإغواء المستضعفين بالتطميع والتهديد، وإضلالهم بكلّ جهدهم وسعيهم بالشيطنة والإنكار هذا بالنسبة إلىٰ إنكار تسلّط الشيطان علىٰ بني آدم، أمّا بالنسبة إلىٰ إنكار أصل الشيطان الماديّ الناريّ اللّطيف، فليس للمنكرين برهان إلّا الاستبعاد وعدم نيلهم بهذه الحقيقة.

وبديهي أنّ الشياطين المردة ممنوعون ومحجوبون بسلطانه ـ سبحانه ـ عن إيذاء أولاد آدم وإضرارهم، فهم في عصمة الله ومنعته من الشياطين، فلا يتمكّنون من إيذاء أحد إلّا بإذن من الله وقضاء وقدر منه ـ سبحانه ـ مثل سائر الأمراض الطبيعيّة والحوادث اليوميّة، فافهم ذلك، واعلم أنّ الشيطان حيث إنّه أمر ماديّ لطيف فتسلّطه علىٰ بني آدم، إنّما هو أمر طبيعي ليس خارقاً للأسباب والعلل العاديّة والطبيعيّة.

قال في الكشاف ٣٢٠/١: **«إلّا كما يقوم الّذي يتخبطه الشّيطان»** أي المصروع. وتخبّط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أنّ الشيطان يخبط الإنسان فيُصرع، والخبط الضرب علىٰ غير استواء كخبط العشواء، فورد علىٰ ما كانوا

يعتقدون، والمسّ: الجنون. ورجل ممسوس، وهذا أيضاً من زعماتهم.

أقول: هذا من العجائب، فايّ موجب لتجويز ارتكاب لغو القول في كلامه ـتعالىٰـ، فإنّه لقولٌ فصل وما هو بالهزل، وإنّه أُحكمت آياته ثمّ فصّلت من لدن حكيم خبير. فلا يجوز أن يقال: إنّه ـتعالىٰـ ارتكب التشبيه بأمر باطل لا واقعيّة له.

والظاهر أنّ قيامهم كالمصروع والممسوس مجازات وعقوبة علىٰ عملهم السيّئ، والآية الكريمة ساكتة عن بيان موقف القيام فلابدّ من أن يستفاد ذلك من أدلّة أخرى.

في تفسير علىٰ بن إبراهيم ٢/٧، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال في حديث المعراج:

ثمّ مضيت فإذا أنا بأقوام يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر من عظم بطنه. فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الّذين يأكلون الرّبا، لا يقومون إلّا كما يقوم الّذي يتخبّطه الشيطان من المسّ، فإذا هم مثل آل فرعون، يعرضون علىٰ النّار غدوّاً وعشيّاً يقولون ربّنا متى تقوم الساعة.

ثم لا يخفىٰ أنّ الشارع الحكيم لمّا أمضى المعاملات العقلائيّة الدائرة بين الأمم، ولم يمضِ الرّبا الّذي من أقسام البيع وأبطله، وأوعد المرتكبين له بالتخبّط تارة وبالنّار أخرىٰ وبالمحق ثالثة، فليس هذا إلّا بنظر شارعيّته فإنّه يرى العيوب عياناً فيحكم بالحرمة.

وضروريّ أنّ قبح الرّبا وحرمته ليس من باب المستقلّات العقليّة، فالرّبا مع ما فيه من المفاسد الكثيرة البيّنة عند المتشرّعين وغيرهم، غير خال من إعمال التعبد. وبديهي عند أولي الألباب والإنصاف أنّ توازن الأعمال الفرديّة والأمور الاجتماعيّة الدنيويّة، وما يترتّب عليه من السعادة فرداً واجتماعاً ممّا لا يحيط به إلّا الله علّام الغيوب.

قوله تعالىٰ: «ذلك بأنّهم قالوا إنّما البيع مثل الرّبا».

هل هذا القول منهم بلسان حالهم، حيث يأكلون الربا مع العلم بحرمته وفساده، أو بلسان مقالهم فيكون احتجاجاً علىٰ الحقّ ولجاجاً في اتّجاه الحقّ؟ الظاهر هو الأوّل، فإنّهم لو قالوا ذلك مستحلّين وكافرين لما أمكن الاحتجاج عليهم بقوله: «وأحلّ الله البيع وحرّم الرّبا» إلّا بضرب من التوجيه. فالآية ليست لبيان أفكار المرابين وعقائدهم من حيث الانحراف في العقيدة والفكر، بل الآية تعليل لما يفعل الله بهم من زوال نعمته وتحويل عافيته.

قوله تعالىٰ: «وأحلّ الله البيع وحرّم الرّبا».

هذا جواب عن مقالة الآكلين للرّبا من قولهم بأنّ البيع مثل الربا، فإنّه قد سبق الحكم المولوي بتحريم الربا وحليّة البيع، فلا معنى لهذه المقالة عند أُولي الألباب والأبصار، ولا يقبل منهم هذا التوجيه لأكلهم الربا، فليس لهم إلّا نقمة الله الدامغة ونزول سخطه سبحانه بساحتهم. وهذا الجواب والوعيد يصح فيما إذا لم يكن لهم عذر موجّه من الغفلة والجهل بالحكم، وبناءً علىٰ ما سبق من تقدّم التشريع، يتوجّه هذا الوعيد لمن ارتكب الرّبا من غير عذر موجّه مشروع، ولكن حيث إنّ قوله تعالىٰ: «وأحلّ الله البيع وحرّم الربا» لا يناسب الاحتجاج والجواب على المستحلّين، فعلى هذا تشمل الآية بإطلاقها غيرَ المستحلّين مطلقاً، ويستثنى منها المستحلّون والجاهلون والغافلون لعذر، ويكون هذا النوع من الربا هو الربا بعد البيّنة، وهو من الكبائر بحسب المستفيض من الروايات.

في الفقيه ١٧٤/٣، بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

«درهم ربا أشدّ عند الله من سبعين زنية كلّها بذات محرم»

وفي الوسائل ١١٩/١٨، عن التهذيب، عن عثمان بن عيسىٰ، عن زرارة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: إنّي سمعت الله يقول: «**يمحق الله الرّبا ويربي الصدقات**» وقد أرىٰ من يأكل الربا يربو ماله؟ فقال:

أيّ محق أمحق من درهم ربا يمحق الدّين، وإن تاب منه ذهب ماله وافتقر.

وفي الخصال/ ٥٨٣، عن محمّد بن عليّ مسنداً عن أنس بن محمد أبو مالك،

عن أبيه، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال في وصيته له:

«يا علي الرّبا سبعون جزءاً فأيسرها مثل أن ينكح الرّجل أمّه في بيت الله الحرام»

يا عليّ درهم رباً أعظم من سبعين زنية كلّها بذات محرم في بيت الله الحرام.

وفي عقاب الأعمال/ ٣٣٦، عن محمّد بن موسىٰ مسنداً عن أبي هريرة وعبدالله بن عباس، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في آخر خطبة خطبها بالمدينة قال:

... ومَن أكل الرّبا ملأ اللهُ بطنَه من نار جهنّم بقدر ما أكل، وإن اكتسب منه مالاً لا يقبل الله ـ تعالىٰ ـ منه شيئاً من عمله، ولم يزل في لعنة الله والملائكة ما كان عنده منه قيراط [واحد].

وفي الخصال/ ٤١١، عن محمّد بن الحسن مسنداً عن محمّد بن مسلم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك مالنا نشهد علىٰ مَن خالفنا بالكفر وبالنّار، ولا نشهد لأنفسنا ولأصحابنا أنّهم في الجنّة؟ قال:

من ضعفكم، إن لم يكن فيكم شيء من الكبائر فاشهدوا أنّكم في الجنة. قلت: فأي شيء الكبائر جعلت فداك، قال ـ أكبر الكبائر الشرك، وعقوق الوالدين، والتعرّب بعد الهجرة، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم ظلماً، والربا بعد البيّنة، وقتل المؤمن...

قوله تعالىٰ: «فمن جاءَه موعظة من ربّه فانتهىٰ».

لا كلام في أنّ الموعظة الّتي جاءت من الله ـ سبحانه ـ هو بيان الحلال والحرام، والتذكير والنصح عقيبه، والظاهر أنّ المراد من مجيئ الموعظة هو وصول الحكم إلىٰ المكلّف، وتنجّزه عنده بحيث يكون موضوعاً للثواب والعقاب، فبعدما جاءته موعظة من ربّه وقامت البيّنة والحجّة عليه يكون ارتكابه للحرام من الكبائر، الّتي أوعد الله عليه النّار في كتابه، وقد صرّحت به النصوص الواردة في

الشريعة الإسلاميّة.

في الوسائل ١٣٠/١٨، عن التهذيب بإسناده عن الحسين بن سعيد مسنداً عن محمّد بن مسلم قال: دخل علىٰ أبي جعفر عليه السلام رجل من أهل خراسان قد عمل بالرّبا حتّى كثر ماله، ثمّ إنّه سأل الفقهاء؟ فقالوا: ليس يقبل منك شيء إلّا أن تردّه إلىٰ أصحابه، فجاء إلىٰ أبي جعفر عليه السلام فقصّ عليه قصّته، فقال له أبو جعفر عليه السلام:

مخرجك من كتاب الله: «**فمَن جاءه موعظة من ربّه ...**». والموعظة: التوبة.

وفيه أيضاً/ ١٣١، عن نوادر أحمد بن محمّد بن عيسىٰ، عن أبيه قال: إنّ رجلاً أربىٰ دهراً من الدهر فخرج قاصداً أبا جعفر الجواد عليه السلام فقال له:

مخرجك من كتاب الله يقول الله: «**فمَن جاءه موعظة من ربّه فانتهىٰ فله ما سلف**». والموعظة هي التوبة، فجهله بتحريم الرّبا ثمّ معرفته به، فما مضىٰ فحلال، وما بقي فليتحفَّظ.

قوله تعالىٰ: «فله ما سلف».

أي إنْ تاب وانتهىٰ بعد تبيّن أحكام الله له، فله ما سلف من الرّبا. وهذا لا يشمل ما بقي علىٰ عهدة المديونين، ولا يشمل أيضاً ما بقي من عين المال الرّبوي تحت يده معزولاً أو غير معزول. والقدر المسلّم من الإطلاق هو ما ذهبت عينه، وأكله وأتلفه قبل التوبة، وأمّا ما كان باقياً عنده من المال الرّبوي مختلطاً بماله الحلال، فقد وقع موقعاً للبحث والإشكال، منشؤه عدّة من الروايات الواردة في ذلك.

في الكافي ١٤٥/٥، عن محمّد بن يحيى مسنداً عن الحلبي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

كلّ ربا أكله الناس بجهالة ثم تابوا، فإنّه يقبل منهم إذا عرف منهم التوبة.

وقال: لو أنّ رجلاً ورث من أبيه مالاً وقد عرف أنّ في ذلك المال رباً، ولكن

قد اختلط ـ في التجارة ـ بغيره من الحلال، كان حلالاً طيّباً فليأكله، وإن عرف منه شيئاً أنّه ربا فليأخذ رأس ماله وليردّ الرّبا. وأيّما رجل أفاد مالاً كثيراً، قد أكثر فيه من الرّبا، فجهل ذلك، ثمّ عرفه بعد فأراد أن ينزعه، فما مضى فله ويدعه فيما يستأنف.

أقول: صدر الرواية متعرّض إلىٰ أن آكلَ الرّبا بجهالة تقبل منه التوبة، إذا تبيّن من الآكل التوبة، والظاهر أنّ اختصاص قبول التوبة من الجاهل لا يدلّ اختصاصه به، وعدم قبولها من العالم العامد، بل الظاهر أنّه بلحاظ ما يترتّب عليه من الأحكام وما سلف من أكله، وما وضع رسول الله صلّى الله عليه وآله الرّبا قبل البيّنة بقرينة سائر الروايات.

وأمّا تعرّضه لصورة الاختلاط، وإيجاد الفرق بينه وبين الصورة الّتي كان المال معزولاً ومعروفاً عند المرابي، ولابدّ من أن يردّ إلىٰ مالكه، فليس نصّاً في المدّعى من حلّيّة المال المختلط بالرّبا واقعاً، وشمول العفو منه ـ تعالىٰ ـ علىٰ المورد مثل شموله لما أكل وأتلف، بل الظاهر أنّه في مورد الإرث، وظاهره العموم أنّ المورّث، هل كسب المال عالماً بالرّبا أو جاهلاً؟

وفيه أيضاً، عن علىٰ بن إبراهيم مسنداً عن الحلبي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

أتىٰ رجل أبي فقال: إنّي ورثت مالاً، وقد علمتُ أنّ صاحبه الّذي ورثته منه قد كان يربي، وقد أعرف أنّ فيه رباً وأستيقن ذلك، وليس يطيب لي حلاله لحال علمي فيه، وقد سألت فقهاء أهل العراق وأهل الحجاز فقالوا: لا يحلّ أكله. فقال أبو جعفر عليه السلام: إن كنت تعلم بأنّ فيه مالاً معروفاً رباً وتعرف أهله، فخذ رأس مالك وردّ ما سوى ذلك، وإنْ كان مختلطاً فكله هنيئاً، فإنّ المال مالك، واجتنب ما كان يصنع صاحبه، فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد وضعَ ما مضىٰ من الرّبا، وحرّم عليهم ما بقي، فمَن جهل وسع له جهله حتّىٰ يعرفه، فإذا عرف تحريمه حرم عليه، ووجب

عليه فيه العقوبة إذا ركبه كما يجب علىٰ من يأكل الرّبا.

أقول: لا يخفىٰ فيه من الظهور، وعموم حلّيّة الأكل في غير صورة ما كان رباً معروفاً، سواء كان فيه مال حلال مختلط أو لا.

قوله تعالىٰ: «وأمره إلى الله».

بعد ما بيّن ـ سبحانه ـ حكم الرّبا بعد الموعظة والتوبة، وما يترتّب عليها من تخلّص المرابي الجاهل من تبعات ما أكل من الرّبا، بيّن أنّ أمر التوبة، وأثرها العاجل في العفو عمّا سلف، لا يتحتّم على الله ـ تعالىٰ ـ فلاح المرابي، فإنّ هذا التشريع بحسب الظاهر، واستفادة المرابي من توبته، لا تلازم بحسب الواقع فلاحه ونجاته، وأمره بعدُ إلىٰ الله ـ سبحانه ـ في معاملته مع ربّه وشؤون عبوديّته، بما يرجع شؤون ولايته ـ تعالىٰ ـ وربوبيته.

قوله تعالىٰ: «ومَن عاد فأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون». (٢٧٥)

قال في الآء الرحمٰن/ ٢٤٥: «ومَن عاد» إلىٰ تعاطي الربا مستحلّاً له بعد ما نزل القرآن بتحريمه وبلغه ذلك. أو إلى الاعتراض على الشريعة بقوله: إنّما البيع مثل الرّبا، أو إلىٰ كلّ من ذينك كفراً وارتداداً، وأصرّوا علىٰ عودهم هذا حتىٰ ماتوا كما هو ظاهر الآية.

أقول: الظاهر أنّ المراد هو عود المرابي إلى ارتكاب الرّبا، والإصرار عليه بعدما جاءه موعظة من ربّه وبعد التوبة. وليس قيد كون مرتكب الرّبا ـ مستحلّاً له ـ ظاهراً من الآية الكريمة، ولكن ذهب مفسّرو الإماميّة وأهل السنّة إلىٰ أنّ المراد من الآية هو العود إلىٰ أكل الرّبا مستحلاً له، وذهب مفسّرو المعتزلة إلىٰ أنّ الظاهر عدم كونه مستحلاً له، حيث قال في الكشّاف ٣٢١/١: «وَمن عاد»الرّبا «فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» وهذا دليل بيّن علىٰ تخليد الفسّاق.

والحامل لهم علىٰ ذلك أنّ الإماميّة وأهل السنّة ذهبوا إلىٰ عدم خلود أهل التوحيد في النّار، وفيه أنّه مع قطع النظر عن الإجماع المدّعىٰ في المقام، لو كان دليلاً عاماً علىٰ عدم خلود أهل التوحيد في النار، فنسبته إلىٰ هذه الآية ـ الدالّة بظاهرها علىٰ خلود آكل الرّبا بعد البيّنة ـ نسبة العام بالخاصّ، فلا يكون العام موجباً لرفع

اليد عن ظاهر الخاصّ، نعم لو كان الحكم بعدم خلود أهل التوحيد من باب الضرورة والبداهة العقليّة، لَوجب التأويل فيها، ولكنّه ليس كذلك.

وأمّا المعتزلة فليس لهم أن يستدلّوا بالآية علىٰ ما ذهبوا إليه من تخليد الفسّاق، وأهل الكبائر من الموحّدين، إذ الآية الكريمة خاصّة في الرّبا، فلعلّ فيه خصوصيّة ليست في غيره من الكبائر، فإنّ درهم رباً أعظم عند الله من سبعين زنية كلّها بذات محرم في بيت الله الحرام، وواضح أنّ الزّنا بالمحارم في بيت الله الحرام مرّة واحدة أشدّ استخفافاً بالله وبشعائره العظام من سائر الكبائر، وليست الكبائر بهذه المثابة من الاستخفاف.

قوله تعالىٰ: «يمحق الله الرّبا».

قال في لسان العرب ١٠/ ٣٣٨: المحق: النقصان وذهاب البركة... قال الأزهري: تقول :مَحَقَه اللهُ فامَّحَقَ وامْتَحَقَ أي ذهب خيره وبركته... ابن سيده: المَحْق... وكلّ شيء أبطلته حتّىٰ لا يبقىٰ منه شيء فقد محقته.

أقول: محقه ـ تعالىٰ ـ الرّبا وإرباؤه، وزيادته ـ سبحانه ـ الصدقات بحسب سنّة الأسباب والعلل العاديّة المشهودة ممّا لا يمكن إنكاره في الجملة، وقد ورد في روايات أئمّة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ شيء كثير من آثاره السيّئة الخبيثة.

في العلل / ٤٨٢، عن عليّ بن أحمد مسنداً عن هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن علّة تحريم الرّبا قال:

«إنه لو كان الرّبا حلالاً لترك الناس التجارات وما يحتاجون إليه، فحرّم الله الرّبا لنفر الناس عن الحرام إلى التجارات، وإلى البيع والشراء فيفضل بينهم ذلك في القرض».

وفيه أيضاً، عن عليّ بن حاتم مسنداً عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

«إنّما حرّم الله ـ عزّ وجلّ ـ الرّبا لئلّا تمتنعوا عن اصطناع المعروف»

وفيه أيضاً/ ٤٨٣، عن عليّ بن أحمد مسنداً عن محمّد بن سنان أنّ أبا الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، كتب إليه فيما كتب عن جواب مسائله

علّة تحريم الرّبا :

إنّما نهى الله ـ عزّ وجلّ ـ عنه لما فيه من فساد الأموال؛ لأنّ الإنسان إذا اشترى الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً، وثمن الآخر باطلاً، فبيع الرّبا وشراؤه وَكْسٌ علىٰ كلّ حال علىٰ المشتري وعلى البائع، فحظر الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ على العباد الرّبا لعلّة فساد الأموال، كما حظر علىٰ السّفيه أن يدفع إليه ماله لما يتخوّف عليه من إفساده حتّىٰ يؤنس منه رشداً، فلهذه العلّة حرّم الله الرّبا وبيع الدرهم بدرهمين يداً بيد. وعلّة تحريم الرّبا بعد البيّنة لما فيه من الاستخفاف بالحرام المحرّم، وهي كبيرة بعد البيان وتحريم الله ـ تعالىٰ ـ لها. ولم يكن ذلك منه إلّا استخفافاً بالمحرّم للحرام، والاستخفاف بذلك دخول في الكفر، وعلّة تحريم الرّبا بالنسيئة لعلّة ذهاب المعروف، وتلف الأموال، ورغبة الناس في الربح، وتركهم القرض وصنايع المعروف، ولما في ذلك من الفساد والظلم وفناء الأموال.

وفي الوسائل ١١٩/١٨، عن الحسين بن سعيد، عن عثمان بن عيسىٰ، عن زرارة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: إنّي سمعت الله يقول: «**يمحق الله الرّبا ويربي الصدقات**»، وقد أرىٰ من يأكل الربا يربو ماله؟ فقال :

أيّ محق أمحق من درهم رباً يمحق الدّين، وإن تاب منه ذهب ماله وافتقر.

لا إشكال بحسب صريح هذه الروايات، وما هو المشاهد من مفاسد الربا ومضرّاته، وآثاره السيّئة الخبيثة في الاجتماع. وبديهيّ أنّ أثر الأعمال لاحق للإنسان ودخيل في سعادته وفلاحه، وشقاوته وفساده، فلو أصبت مرابياً في الدّنيا له عيش رغيد وأموال وأولاد وعزّة وجاه فلا يعجبك ماله ولاعزّه وجاهه، ولا ترتابنّ فيما أوعده الله ـ تعالىٰ ـ من محق الرّبا، فإنّ وراء هذا العالم المحسوس له عيشاً ضنكاً وفقراً مدهشاً، وأمّا في هذه الدّنيا فهو ليس بطالب بل هو رجل مطلوب، لو

أراد التخلّص من مطالبة الله ـ سبحانه ـ من مظالم الناس لكان فيه ذهاب أمواله الّتي جمعها بالباطل، فيصير مفتقراً غايته، وضلّ سعيه وبركة عمره، وهو في مدّة عمره بين المسؤوليّة والمحكوميّة بأموال الناس وخوف الفقر. ولو علم وأفاق من سكرته لرأىٰ أنّه ممحوق ومغبون، وأيّ ممحوق أشدّ محقاً ممّن أبطل سعادته وحياته السعيدة في الجنّة الخالدة المقرونة بالبهجة والصفا. فلا محالة يكون المراد من المحق، التشريعيّ لا المحق التكوينيّ الاجتماعي أو الفردي في هذه الأيّام القلائل، فإنّ من الجائز أن يستدرج الله ـ سبحانه ـ الآكلين للرّبا بإملاء النعم وجعله فتنة للمستضعفين.

والشاهد علىٰ ذلك أنّ الصدقة مع ما فيها من الميمنة والبركة في الدّنيا مطلوبة ومرجوّة من حيث خيراتها وبركاتها في الآخرة، وهي من فضل الله وإحسانه غالباً، فالصدقات تجارة رابية رابحة للمتصدّقين سواء نالوا بها خير الدّنيا أم لا، فإنّهم لا يتصدّقون بمحض نيل الدنيا منه ـ سبحانه ـ بل لغرض أعلىٰ وأجلّ من الدّنيا وما فيها، والله ـ سبحانه ـ يكافئهم بفضله وإحسانه خيرَ الدنيا وكرامةَ الآخرة، وماله في الآخرة أعلىٰ وأنور.

قوله تعالىٰ: «ويربي الصدقات».

أي يربي الصدقات وينميها ويرفعها بفضله وكرمه فإنّه ـ تعالىٰ ـ يضاعف أجرها سبعمائة، وما فوقها ومادونها كيف يشاء، وينميها ويربيها من حيث نفس الصدقات ويجعلها عظيمة وكبيرة بقدر ما يشاء ويرضىٰ، فكيف يكون قليلاً ما يقبله الله بفضله وكرمه.

في البحار ١٢٢/٩٦، عن أمالي الطوسي بإسناده عن الحارث عن عليّ عليه السلام عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال:

> كلّ معروف صدقة إلىٰ غنيّ أو فقير، فتصدّقوا ولو بشقّ تمرة، واتّقوا النّار ولو بشقّ التمرة، فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فِلْوه أو فصيله حتّىٰ يوفّيه إيّاها يوم القيامة، حتّىٰ يكون أعظم من الجبل العظيم.

وفي تفسير العيّاشي ١٥٣/١، عن عليّ بن جعفر عن أخيه موسىٰ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

إنّه ليس شيء إلّا وقد وكّل به ملك غير الصدقة، فإنّ الله يأخذ بيده ويربيه كما يربي أحدكم ولده حتّىٰ يلقاه يوم القيامة وهي مثل اُحد.

قال في مجمع البيان ٣٩٠/٢: «يربي الصدقات» أي وينمي الصدقات ويزيدها بأن يثمر المال في نفسه في العاجل، وبالأجر عليه والثواب في الآجل... والنكتة في الآية أنّ المربي إنّما يطلب بالرّبا زيادة المال، ومانع الصدقة إنّما يمنعها لطلب زيادة المال، فبيّن الله ـ سبحانه ـ أنّ الرّبا سبب النقصان دون النّماء، وأنّ الصدقة سبب النّماء دون النقصان.

أقول: لا كلام في أنّ الصدقات منشأ للخير والبركة في الدّنيا والآخرة. وإنّما الكلام في معنىٰ إرباء الصدقات ولاسيما مع التعرّض في الروايات بإربائها في الآخرة. والظاهر أنّ المراد من إرباء الصدقة في الآية الكريمة والرّوايات المباركة غير مضاعفة الأجر، والله وأولياؤه هو المرجع والمصير.

قوله تعالىٰ: «والله لا يحبّ كلّ كفّار أثيم». (٢٧٦)

الظاهر أنّ المراد هو كفر النعيم. والأثيم هو الّذي يعصي الله ـ تعالىٰ ـ بأكل الرّبا وغيره من الفجور والمعاصي، فينطبق على المورد بالحقيقة. وإن قلت: إنّ المراد من الكفر هو الكفر في مقابل الإسلام والإيمان. قلت: لايصحّ ذلك، إذ يحتاج هذا إلىٰ تأويل أكل الرّبا بأكله مستحلًّا له، ولا شاهد عليه كما تقدم، فعليه لا بدّ من أن يكون المراد من الكفر هو كفران النعمة، أو كفر الطاعة كما هو أيضاً إحدىٰ موارد إطلاقات كلمة الكفر. وتؤيّد ذلك كلمتا «كفّار» و«أثيم» الدالّتان على استمرار الكفر والإثم بأكل الرّبا. والمراد من نفي الحبّ في المقام ليس البغض والسخط، بل يمكن أن يكون المراد سقوطه وحرمانه عن عواطفه ـ تعالىٰ ـ وكراماته الجارية علىٰ المؤمنين المسلمين. وليس ببعيد من فضل الله ـ سبحانه ـ أن يخرجه من ظلمات المعاصي إلىٰ نور التوبة والاستسلام لجميع ما أمر الله به ونهى عنه.

قوله تعالىٰ: «إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلٰوة وآتوا

الزكوٰة لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون». (٢٧٧)

أقول: عطف الأعمال الصالحة على الإيمان، وكذلك عطف إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة علىٰ الأعمال الصالحة لمزيد عناية في المقام بذكر الصالحات بعد الإيمان، وبذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بعد الصالحات، فإنّ الأجر الموعود في الجواب لارتفاع مكانته ودرجته لايلائم ولايناسب لمطلقَ الإيمان، بل هي متناسبة لدرجة عالية من درجات الإيمان، فإنّ قوله تعالىٰ: «لهم أجرهم عند ربّهم» فيه عناية لثبوت الأجر المدّخر المحرز عند الله ـ سبحانه ـ وأنّ لهم الأمن المطلق من الخوف كلّه، ومن الحزن كلّه في جميع المواقف.

وبديهيّ عند أولي الألباب أنّ هذا الأجر لا يلائم الدرجات المتوسّطة وأوائل مراتب الإيمان، بل لابدّ في الوصول إليه من طيّ كثير من مراتب الإيمان ونيل كمالات وعلوم وحقائق، والقيام والوفاء في قبال ما علم وعقل عن الله تعالى، فعطف الصلاة والزكاة على الأعمال الصالحة، وكذلك عطف الأعمال الصالحة على الإيمان بعناية خاصّة ومزيد اهتمام بهما في الكلام، فسياق الكلام وعناية المقام هو انتزاع درجة عالية من درجات الإيمان، وبيان الجزاء الّذي يترتّب عليها، فلابدّ من ذكر الأعمال الصالحة، وإقامة الصلاة التامّة بحدودها وشرائطها وإيتاء الزكاة لأهلها، ولكلّ واحد منها في المقام شأن وأثر يخصّه، فلو ذكر الإيمان فقط وسكت عن ذكر الشرائط ـ بناءً على القول بشرطيّة الأعمال في الإيمان ـ ليجب على الفقيه تقييده بشرائط الإيمان بحسب الأدلّة المنفصلة الأخرى، وكذلك بناءً على القول بالشطريّة، فإنّ الإيمان المطلق ينطبق على جميع درجاته، فيوجب ذلك كون الجزاء المذكور في الآية علىٰ مطلق الإيمان ولو كان من درجاته النازلة، وهذا ينافي ماذكرنا من عدم تناسب الجزاء للمراتب السافلة من الإيمان.

فما من مورد سجّل الله علىٰ قوم الفلاح، ووعدهم الأمان من كلّ خوف، أو وعدهم مكرمة وموهبة خاصّة فوق ما وعده للأشخاص العاديين إلّا وفيه عدّة من هذه الخصال قال تعالىٰ:

«ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». [يونس

(١٠)/٦٢]

و«الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوّ إلّا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون». [الزخرف (٤٣)/٦٧ و ٦٨]

فقد رتّب عدم الخوف والحزن في الآية الأولىٰ علىٰ أولياء الله الصالحين، وفي الثانية علىٰ المتقين المكرمين. وقال تعالىٰ:

«ولا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون ...».

[آل عمران (٣)/١٦٩ و ١٧٠]

أقول: رتّب الله ـ تعالىٰ ـ نفيَ الحزنِ والخوفِ، والفرحَ والاستبشارَ على القتل في سبيل الله. وبديهي عند أولي الألباب أنّ الّذين في أوائل الإيمان، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، يعصونَ اللهَ في صغار الأمور وكبارها، لا يصبرون علىٰ بذل النفس، والوفاء بعهده ـ سبحانه ـ في إحياء دينه.

ورتّب أيضاً الأمنَ من الخوف والحزن على الاستقامة في منهاج الدّين، وواضح أنّ الاستقامة علىٰ منهاج الحقّ المبين ليست إلّا لأولياء الله المتّقين.

فيستفاد من جميع ما ذكرناه أمور:

الأوّل: أنّ العناية في ذكر الأعمال الصالحة، وذكر الصلاة والزكاة بعدها بخصوصها، ليس لمحض التشويق والتأكيد؛ كي يدلّ علىٰ أنّ الجزاء للإيمان فقط، وتكون الأعمال خارجة عن حقيقة الإيمان، غير دخيلة في تحقّقه، إذ يمكن أن يكون عطف الصلاة والزكاة عطف تفسير، وبيان لمرتبة خاصّة من الإيمان المرتّب عليها هذا الجزاء، فلا تدلّ الآية الكريمة علىٰ بساطة الإيمان، بل دلالة الآية على التركيب أوفق.

والثاني: أنّ الوعد المذكور وعد للأصفياء المتّقين والأولياء الصالحين، فلابدّ من ذكر مجموع من الصالحات. وأمّا بالنسبة إلىٰ فرد فرد من الأعمال الصالحة فلا يترتّب عليه إلّا وعد يخصّه، وأمّا هذا الوعد ـ وهو الأمان المطلق من الخوف

والحزن في جميع المواقف ـ فيترتّب علىٰ جميع ما ذكر من الصالحات.

والثالث: أنّ لحن الآية ليس وعداً ابتدائيّاً، بل الأمر أرفع وأجلّ من الوعد، وهو إخبار عن الأجر المذخور عند الله ـ تعالىٰ ـ وإخبار أيضاً عمّا كتب الله لهم من الأمن والفلاح، فإنّ العناية في الإخبار غير العناية في الوعد، وإن كان كلاهما وعداً بالحقيقة.

قوله تعالىٰ: « يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وذروا ما بقي من الرّبا ».

خطاب للمؤمنين وتذكرة لهم بتقوى الله، فإنّ الاتّقاء من الله واجب ببداهة العقل فلا يختصّ بمورد دون مورد، نعم ينطبق المورد علىٰ هذا الكلّي، ويكون توطئة وتمهيداً لما بعده من التهديد لمن خالف حكم الله ـ تعالىٰ ـ في الرّبا، فإنّه قد وضع عنهم ما أكلوا من الرّبا قبل التحريم، وكذلك ما أكلوا بعد التحريم مع الجهالة وكانوا معذورين في جهلهم، وأمّا بعد التحريم مع العلم به فلابدّ لهم من أن يذروا ويتركوا ما بقي من الرّبا.

قوله تعالىٰ: «إن كنتم مؤمنين». (٢٧٨)

تشويق وتأكيد لاجتناب ارتكاب الرّبا بأن لا يلبسوا إيمانهم، ولا يشوّهوه بارتكاب الرّبا.

قوله تعالىٰ: «فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله».

قال في مجمع البيان ٣٩١/٢: قرأ عاصم برواية أبي بكر غير ابن غالب والبرجمي وحمزة فآذِنوا ـ بالمد وكسر الذال. والباقون فَأْذنوا.

أقول: قراءة فاذَنوا أدقُّ وألطف فالمعنىٰ علىٰ هذا: إنّكم بمخالفتكم وعصيانكم في مقام الحرب من الله ورسوله، فإنّ في العبارة إشعاراً بالسبب، أي أنّكم أوجبتم علىٰ أنفسكم حرب الله حين بادرتم بعصيانه ـ تعالىٰ ـ والإصرار عليه، فلا محالة لابدّ من أن يحاربكم الله بسيوف أوليائه حتىٰ تستسلموا وتنقادوا لحكم الله سبحانه. وأمّا قراءة فآذِنوا، فلا يخلو عن التكلّف أي آذِنوا وأعلِنوا أعوانكم وحلفاءكم بحرب الله تعالى.

قال في مجمع البيان ٣٩٢/٢: ومعنى الحرب عداوة الله وعداوة رسوله وهذا

إخبار بعظم المعصية.

وقال في الميزان ٤٢٢/٢: علىٰ أنّ لله ـتعالىٰ ـ صنعاً آخر في الدفاع عن حكمه، وهو محاربته إيّاهم من طريق الفطرة وهو تهييج الفطرة العامّة علىٰ خلافهم وهي الّتي تقطع أنفاسهم، وتخرب ديارهم، وتُعفي آثارهم.

وقال في المنار ١٠٢/٣: فسّر الأستاذ الإمام حرب الله لهم بغضبه وانتقامه. قال: ونحن إن لم نر أثر هذا في الماضين فإنّنا نراه في الحاضرين ممّن أصبحوا بعد الغنى يتكفّفون.

أقول: تفسير الحرب من الله ورسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ لا يلائم شيئاً من هذه الوجوه. ولو فرضنا حرب الله ـتعالىٰ ـ معهم طبق سنّته التكوينيّة، فلا يستقيم هذا المعنىٰ بالنسبة إلىٰ رسول الله صلّى الله عليه وآله ضرورة أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله لا معنىٰ لمحاربته معهم تكويناً، وإنّما يحاربهم بأمر الله ـسبحانه ـ تشريعاً، وحرب الرسول والمسلمين للّذين لاينقادون لحكم الله مجعول أيضاً من الله ـتعالىٰ ـ علىٰ الرسول وعلى المسلمين.

قوله تعالىٰ: «وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلِمون ولا تُظلَمون». (٢٧٩)

أي، إن تبتم من مطالبة ما بقي من الرّبا فلكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون الناسَ بأكل أموالهم، وأخذ مازاد علىٰ رؤوس أموالكم. ولا تُظلمَون أنتم أيضاً بضياع رؤوس أموالكم، فإنّه تجب تأديتها إليكم. فالآية الكريمة ليست إلّا في مقام إفادة ترك المطالبة لما بقي من الرّبا، فعلى الحاكم إنفاذ الحكم ولو بالقهر والمحاربة، وأمّا الأحكام الأخرىٰ فلتلتمس من أدلّتها.

في تفسير العياشي ١٥٣/١، عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام، عن الرّجل يكون عليه الدّين إلىٰ أجل مسمّىٰ فيأتي غريمه فيقول: أنقدني فقال:

لا أرىٰ به بأساً لأنّه لم يزد علىٰ رأس ماله وقال الله: «فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلمون».

قوله تعالىٰ: «وإن كان ذو عسرة فنظرةٌ إلىٰ ميسرة».

قال في الجوامع / ٥٠: أي إن وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة أي ذو عسار فنظرة... وهو خبر في معنى الأمر، والمراد فانظروه إلىٰ وقت يساره.

أقول: فيجب إنظار المعسر إلىٰ أن يوسّع الله عليه، ويجب الأخذ بظاهر إطلاق الآية في وجوب الإنظار إلىٰ أن يظفر بالمخصّص المنفصل من الكتاب والسنّة. وليس لهذا الإنظار حدّ موظّف إلّا اليسار.

في تفسير العيّاشي ١٥٤/١، عن إسحاق بن عمّار قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: ما للرّجل أن يبلغ من غريمه؟ قال:

لا يبلغ به شيئاً الله أنظره.

أقول: الحديث الشريف نصّ في وجوب الإنظار وعدم نفوذ مطالبته إيّاه. وقد وردت روايات كثيرة في فضل الإنظار وثوابه.

في ثواب الأعمال /١٦٧، عن محمّد بن الحسن مسنداً عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال النبيّ صلّى الله عليه وآله:

ألف درهم أقرضها مرّتين أحبّ إليَّ من [أن] أتصدّق بها مرّة. وكما لا يحلّ لغريمك أن يمطلك وهو موسر، كذلك لا يحلّ لك أن تعسره إذا علمت أنّه معسر.

وفيه أيضاً /١٧٤، عن أبيه مسنداً عن سدير، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

يبعث يوم القيامة قوم تحت ظلّ العرش ووجوههم من نور، ورياشهم من نور، جلوس علىٰ كراسيّ من نور. قال: فتشرف لهم الخلائق فيقولون: هؤلاء الأنبياء؟ فينادي منادٍ من تحت العرش أن ليس هؤلاء بأنبياء. قال: فيقولون: هؤلاء شهداء؟ فينادي مناد من تحت العرش أن ليس هؤلاء شهداء، ولكن هؤلاء قوم كانوا ييسرون على المؤمنين، وينظرون المعسر حتّى ييسر.

وأمّا حدّ الإنظار فالظاهر أنّه يسار المديون. والظاهر ممّا ورد في الروايات من أنّ الإمام عليه السلام إذا بلغه خبر ديون المؤمنين المعسرين إليه، يؤدّيه من

سهم الغارمين ليس لتحديد الإنظار، بل لبيان الحكم الوارد في المورد علىٰ وليّ المسلمين.

في الكافي ٩٣/٥، عن محمّد بن يحيىٰ مسنداً عن محمّد بن سليمان، عن رجل من أهل الجزيرة يكنّىٰ أبا محمّد قال: سأل الرّضا عليه السلام رجلٌ وأنا أسمع فقال له: جعلت فداك إن الله عزّ وجلّ يقول: **«وإن كان ذو عسرة فنظرة إلىٰ ميسرة»**. أخبرني عن هذه النظرة الّتي ذكرها الله ـ عزّ وجلّ ـ في كتابه لها حدّ يعرف، إذا صار هذا المعسر إليه لابدّ له من أن ينتظر، وقد أخذ مال هذا الرّجل وأنفقه علىٰ عياله وليس له غلّة ينتظر إدراكها، ولا دين ينتظر محلّه، ولا مال غائب ينتظر قدومه؟ قال:

> نعم، ينتظر بقدر ما ينتهي خبره إلى الإمام، فيقضي عنه ما عليه من الدّين من سهم الغارمين، إذا كان أنفقه في طاعة الله عزّ وجلّ، فإن أنفقه في معصية الله فلا شيء له على الإمام...

وأمّا حدّ الإعسار فقال في مجمع البيان ٣٩٣/٢: واختلف في حدّ الإعسار، فروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: هو إذا لم يقدر علىٰ ما يفضل من قوته وقوت عياله على الاقتصاد.

قوله تعالىٰ: «وأن تصدّقوا خيرلكم إن كنتم تعلمون». (٢٨٠)

أي أنّ التصدّق بالمال الّذي في ذمّة المديون ووضعه عن ذمّته خيرلكم. ويمكن أن يكون لفظ الخير لإفادة فضل الصدقة وإثباته، لا كون الصدقة أفضل من غيرها وإن لا يأباه أيضاً.

وظاهر التصدّق في المقام هو التصدّق المندوب، ولكن لا أرى بأساً لشموله للتصدّق الواجب أيضاً، لا لأنّ المديون المعسر من موارد مصارف الصدقة الواجبة بحسب الأدلّة الأخرىٰ، بل لأجل صدق التصدّق للواجب والندب كما لا يخفىٰ.

قوله تعالىٰ: «واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلىٰ الله».

الاتّقاء منه ـ سبحانه ـ واجب بالضرورة العقليّة، وأقلّ درجة من التقوى الوقوف عند ما أحلّ وحرّم مع الإذعان والإيقان له ـ تعالىٰ ـ ولحدود أحكامه

ـ سبحانه ـ بمعنى أن يعرف العبد أنّ ما يتّقي إنّما هو بلحاظ أنّه حرمات الله، وكلّما كانت المعرفة أنور والتبصّر في الأحكام أشدّ كانت التقوى أكثر. فالواجب علىٰ مَن أكرمه الله ـ تعالىٰ ـ بالعلم والمعرفة والفقاهة في الأحكام ولاسيّما الأحكام العقليّة والفقه الأكبر، أن يهاب جلال الله وكبرياءه، ويخشاه ـ تعالىٰ ـ في السرّ والعلن.

وحيث إنّ الاتّقاء من الله ـ تعالىٰ ـ لا يختص بمورد دون مورد، وبزمان دون زمان، وبجهة دون جهة، فأمره ـ تعالىٰ ـ ونصيحته ـ سبحانه ـ عبادَه بالاتّقاء لا يمكن أن يتقيّد بقيد، فتقييد الاتّقاء بيوم ترجعون فيه إلىٰ الله ليس لبيان كون التقوى في هذا اليوم والرخصة فيما سواه، بل لعناية وخصوصيّة في هذا اليوم الذي برزوا لله الواحد القهّار وبطلت الاستطاعة، وردّت الودائع. قال تعالىٰ:

«ولا تحسبن الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون إنَّما يؤخّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتدّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء». [إبراهيم (١٤)/٤٢ و ٤٣]

وقوله تعالىٰ: **«ترجعون فيه إلى الله»**. الرجوع إليه ـ سبحانه ـ ليس رجوعاً ذاتيّاً وسيراً طبيعيّاً بحركة ذواتهم علىٰ ما نسج ألسنة بعض الباحثين عن العلوم البشريّة، ولا يجوز تأويل ما جاء به الأنبياء المقرّبون ـ ولاسيّما خاتمهم سيّد الموحّدين ـ من علم المعاد بأمثال هذه الأقاويل.

قال في الأسفار ٢٤٤/٩: فثبت بما ذكرناه أنّ جميع الموجودات بحسب الطبائع والغرائز طالبة إيّاه ـ تعالىٰ ـ منساقة إليه انسياقاً معنويّاً متحرّكة نحوه وحركة ذاتيّة؛ وهذه الحركة والرغبة لكونهما مرتكزتين في ذاتهما من الله، لم تكونا هباءً وعبثاً ولا معطّلتين، فلا محالة غايتها كائنة متحقّقة مترتّبة عليها إلّا لعائق قاسر، والقسر لكونه خلاف الطبع لا يكون دائميّاً بل منقطعاً كما سبق بيانه، فيزول القواسر والموانع ولو بعد زمان طويل، فتعود الأشياء كلّها إلىٰ غاياتها الأصليّة... حتّىٰ تنتهي إلىٰ غاية أخيرة لا أشرف منها ولا غاية بعدها دفعاً للتسلسل، وهي غاية الغايات ومنتهى الحركات والرغبات.

وفيه أيضاً / ٢٧٨: فمَن أراد أن يعرف معنى القيامة الكبرىٰ وظهور الحقّ

بالوحدة الحقيقيّة، وعود الأشياء كلّها إليه، وفناء الكلّ عن هويّاتهم الجزئيّة حتّى الأفلاك والأملاك والأرواح والنفوس... فليتأمّل في الأصول الّتي سبق ذكرها من توجه كلّ سافل إلىٰ عالٍ، ورجوع كلّ شيء إلىٰ أصله، وعود كلّ صورة حقيقتها، ومن إثبات الحركات الجوهريّة الطبيعيّة والنفسانيّة إلىٰ غاياتها، ورجوع المعلولات إلىٰ علّاتها، واتّصال النفوس السماويّة بنهاياتها العقلّية، ومن تنوّر قلبه بنور اليقين ليشاهد تبدّل أجزاء العالم وأعيانها وطبائعها ونفوسها في كلّ لحظة. فالكلّ متبدّلة وتعيّناتها زائلة؛ فما من موجود إلّا ويقع له الرجوع إلى الله ولو بعد أدوار وأحقاب كثيرة إما بموت أو فناء أو استحالة أو انقلاب أو صعق كما للأرواح، فكلّ حركة وتبدّل لابدّ له من غاية ينتهي إليها وقتاً، ولغايته أيضاً غاية حتّىٰ ينتهي إلىٰ غاية لا غاية لها، ويجتمع فيها الغايات، فلها يوم واحد إلهيّ بل لحظة واحدة أو أقرب منها حاوية لجميع الأوقات والأزمنة والآفات الّتي تقع فيها النهايات كما أنّ جميع البدايات ابتدأت من بداية واحدة ومبدإٍ واحدٍ يتشعّب منه كلّ مبدإ وينبجس منه كلّ مؤثّر وأثر... وقد تحقّق بالبرهان، وانكشف بلوامع آيات القرآن، وبطلوع شمس العرفان من أفق البيان أنّ أعيان العالم متبدّلة دائماً، وهويّاتها وتشخّصاتها متزايلة، وطبائعها متجدّدة كلّ آن كما قال تعالىٰ: «**بل هم في لبسٍ من خلقٍ جديدٍ**» [ق (٥٠)/١٥] وقوله تعالىٰ: «**وترى الجبالَ تحسبُها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السّحاب**». [النمل (٢٧)/٨٨] وهو سبحانه غاية هذه الحركات والتبدّلات.

أقول: قد حكم الله سبحانه برجوع أرواح الخلائق لأبدانهم بعد موتهم، ويجدّدهم بعد فنائهم واندراسهم. والمراد من الرجوع إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ هو الرجوع إليه سبحانه بأمره التكويني وهو المرجع والمصير تشريعاً وتكويناً في الدنيا والآخرة، فعنت الوجوه للحيّ القيّوم، فلا حكم إلّا حكمه ولا أمر إلّا أمره، وقد ذلّت الجبابرة واستكانت الفراعنة فلا يستطيعون ولا يتمكّنون من الارتياب، ولا قدرة لهم علىٰ قتل أولياء الله والاستهزاء بآياته ونواميسه، وقد اتّفقت كلمة أرباب الشرائع على المعاد الجسماني ونصوص الكتاب وقطعيّات محكماته بهذه الحقيقة فلا يبق للارتياب في ذلك مجالٌ. وقد تعرّض القرآن بشبه الجاحدين واستبعاد

المنكرين وإبطال هوساتهم وجهالاتهم، وقام الأئمّة الهداة بتشريع هذه الحقيقة وبيان أصولها وفروعها بأوضح بيان وأنور برهان. وقد بسطنا الكلام في ذلك في أبحاثنا في المعاد.

قوله تعالىٰ: «ثمّ توفّى كلّ نفس ما كسبت».

التوفية أداء الشيء كما هو حقّه، والاستيفاء أخذه كذلك. وبديهيّ أنّه ـ تعالىٰ ـ لا يعني استيفاء عين العبادات والطاعات، أو المعاصي والسيئات، بل المراد استيفاؤهم جزاء أعمالهم هذه، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ. والمجازات علىٰ الأعمال فعل عمدي لله ـ تبارك وتعالىٰ ـ عدلاً منه علىٰ أعدائه، وفضلاً وكرامة لأحبّائه والصالحين من عباده فتجري منه ـ تعالىٰ ـ نعمه بالفضل والإكرام، والعطف والحنان، وهكذا بأسه وسخطه وأخذه أعداءه أخذ عزيز مقتدر من النّار، وما فيها من أنواع العذاب والآلام، وليس الجزاء في داخل نفوسهم وممّا رسخت في ذواتهم من الملكات الحسنة الّتي يبتهجون بها.

قوله تعالىٰ: «وهم لا يظلمون». (٢٨١)

أي لا يؤخذون أكثر ممّا يستحقّون من العذاب والهوان والخذلان والنكال، وأمّا في طرف الثواب فيضاعفه الله لهم أضعافاً مضاعفة بفضله وكرمه، وكذلك سيّئات أهل التوحيد، فيعفو عن كثير وتدركهم رحمة ربّهم، فلا يظلمون بزيادة العذاب والتشديد عليهم زيادة علىٰ ما استحقّوا. ولا معنىٰ لظلمهم في طرف الثواب، إذ الثواب تفضّل من الله ـ تعالىٰ ـ عليهم. نعم يتوجّه ذلك بناءً علىٰ القول بالاستحقاق ووجوبه علىٰ الله ـ سبحانه ـ في طرف الثواب أيضاً، ويكفي في بطلانه ما جرت من سنّته ـ تعالىٰ ـ من التفضّل والإكرام علىٰ ما هو المشاهد المحسوس في الدّنيا من تتابع نعمه وآلائه، وترادف فضله وإحسانه من غير أن ينتظر في إنعامه لعباده العابدين فيحسن إليهم كيلاً بكيل، ونعلم أنّ إطاعة المطيعين لا تكافئ شيئاً من نعمه ـ تعالىٰ ـ بداهة أنّ حسناتهم أيضاً من فضله وإحسانه. فللّه الحمد حمداً دائماً فسبحانه من إله ما أجوده وأفضله!

والظاهر أنّ الآية الكريمة مسوقة لحيث التهديد، وناظرة إلىٰ جهة العذاب

والهوان فقط، لا مطلق الجزاء بالأعمال حسناتها وسيئاتها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ
فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ
مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ
مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ
أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ

ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

قوله تعالىٰ: « يا أيّها الّذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلىٰ أجل مسمًّى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل».

قال في لسان العرب ١٣/١٦٧: الدّين: واحد الديون، معروف. وكلّ شيء غير حاضر دين... وتداينوا: تبايعوا بالدين.

وقال في مجمع البيان ٢/٣٩٦: تقول: داينت الرّجل مداينةً إذا عاملته بدين أخذت منه أو أعطيته.

أقول: الآية الكريمة في مقام تشريع الكتابة، وأنّ المعاملة ـ إذا وقعت وتحقّقت وأحد طرفيها ـ الثمن أو المثمن ـ دينٌ بأجل معلوم، فلابدّ من الكتابة بين المتعاملين. فسياق الآية الكريمة ليس لتشريع المعاملة الّتي أحد طرفيها نقد والآخر دَين، ولا لتشريع بيع السلم، ولا لبيان اشتراط الأجل في النسيئة والسلم، ولا لبيان اشتراط الأجل وإيجابه في الدين، إن كان من جهة النسيئة أو السلم ونفي الأجل في القرض، إذا الباء للمقابلة والآية نصّ في المعاملة، ولا تشمل القرض كي يخرج بقوله: «إلىٰ أجلٍ مسمًّى».

نعم الآية الكريمة في مقام تشريع الكتاب في المعاملات المؤجّلة في الأمّة الأميّة الوحشيّة، وإمضاء ما كان دائراً متعارفاً بينهم في زمن النزول من المعاملة بالدين بأجل معلوم.. وضروريّ عند الفقيه البصير أنّ تشريع الكتابة في المعاملة بالدين بأجل معلوم، لا ينافي ولا يزاحم القيود والشروط الأخرىٰ لحكم الكتابة،

ولحكم أصل المعاملات المؤجّلة، بل يجب الفحص والبحث عن القيود والشرائط علىٰ ما هو المقرّر في محلّه.

ولا يخفىٰ أنّ الحكم بالكتابة بين المتعاملين ليس من الأحكام التكليفيّة التعبّديّة، بل من الأحكام الوضعيّة الإرشاديّة الّتي لا يترتّب علىٰ الإخلال به معصية شرعيّة غير ما يترتّب عليه من ضياع الأموال، ووقوع التنازع والتخاصم بين المتعاملين، ووقوع الحيرة والترديد عند نسيان المدّة المضروبة ونسيان الدين، ولاسيّما عند موت أحد المتعاملين أو كليهما.

وقوله تعالىٰ: «وليكتب» أمر ثان بالكتابة، متوجّه إلىٰ الحكم الأوّل، وتوطئة لتصريح أنّ الكاتب لابدّ من أن يكتب بالعدل من غير انحراف في مفاد الكتاب ومحتوياته، فإنّ العدل في اللّغة بمعنى الاستقامة والاستواء. والمراد من كون الكتابة بالعدل، أي أن يكون الكاتب بصيراً بسنن الكتابة وتنظيم جريان الحوادث علىٰ وجه مبيّن، ويكون عالماً بموارد الذلّة وما يوجب الارتياب في مفادها، ويكون عالماً بأصول الحقوق أيضاً، ويكون مؤتمناً وموثّقاً لئلّا يرتاب فيه ولا يظنّ به ظنّ السوء، وإلّا لكان قليل الجدوىٰ وعديم الفائدة.

قوله تعالىٰ: «ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله».

هذا الحكم تكليفيّ. ولا منافاة بين كون أصل الحكم إرشاديّاً ووضعيّاً، وكونه بالنسبة إلىٰ الكاتب والشاهد تكليفيّاً، فليس للكاتب الإباء والامتناع من الكتابة، ويجب عليه أن يكتب الكتاب بحيث يكون حاكياً لجزئيّات الحوادث طبق ما أملىٰ عليه مَن عليه الحقّ بيّناً شافياً، ولا يكون فيه تحريف للكلم عن مواضعها. فقد نهى الله ـ سبحانه ـ عن الإباء والامتناع من الكتابة، فوجوب الكتابة ـ عقلاً ـ متوقّف علىٰ استظهار التحريم من قوله تعالىٰ «ولا يأب» وسيجيء ـ إن شاء الله ـ ما يدلّ علىٰ المقصود في قوله تعالىٰ: «ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا».

قوله تعالىٰ: «فليكتب وليملل الّذي عليه الحقّ وليتّق الله ربّه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الّذي عليه الحقّ سفيهاً أو ضعيفاً أو لايستطيع أن يُملّ هو فليملل وليّه بالعدل».

قال في لسان العرب ٤٩٧/١٣: السَفَه والسَفاه والسفاهة: خفّة الحلم...

وقيل: الجهل.

وفيه أيضاً ٢٠٣/٩: الضَّعف والضُّعف: خلاف القوّة. وقيل: الضُّعف ـ بالضمّ ـ في الجسد، والضَّعف ـ بالفتح ـ في الرأي والعقل.

وفيه أيضاً ٦٣١/١١: وأملّ الشيء قاله فكتب. وأملاه: كأمَلَّه... وقال الفرّاء: أمْلَلْتُ، لغة أهل الحجاز وبني أسد، وأمليْتُ لغة بني تميم وقيس. يقال: أملّ عليه شيئاً يكتبه وأملىٰ عليه. ونزل القرآن العزيز باللّغتين معاً.

أقول: هذا بيان لطور الكتابة وأنّه لابدّ في تنظيم الكتاب من إملاء مَن عليه الحقّ. وهذا الأمر إرشاديّ بحسب العنوان الأوّلي من تشريع الكتابة في المعاملة على المتعاملين، فيجب علىٰ المديون الإملاء علىٰ الكاتب، كما هو حقّه من غير أن يبخس من الحقّ شيئاً، فإن كان المديون خفيف الحلم وضعيف الرأي والعقل، أوْ لا يستطيع الإملاء فليملل وليّه. وهؤلاء ليسوا من الّذين رفع عنهم قلم التكليف، بل هم من الّذين حجرهم الشارع عن التصرّف في حقوقهم الماليّة.

في تفسير العيّاشي ١٥٥/١، عن ابن سنان قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: متىٰ يدفع إلىٰ الغلام ماله؟ قال:

> إذا بلغ وأونس منه رشد، ولم يكن سفيهاً أو ضعيفاً. قال: قلت: فإنّ منهم مَن يبلغ خمس عشرة سنة وست عشرة سنة ولم يبلغ؟ قال: إذا بلغ ثلاث عشرة سنة جاز أمره إلّا أن يكون سفيهاً أو ضعيفاً. قالقلت: وما السفيه والضعيف؟ قال: السفيه الشارب الخمر، والضعيف الّذي يأخذ واحداً بإثنين.

فمَن كان قليل العقل بحيث لم يؤمَن من الإسراف والتبذير، ولم يكن له التوازن والتعادل في الإنفاق، ولم يراقب موارد خيره وضرره، فليس له التصرف في الأموال. وحيث إنّ المسألة من الموضوعات التكوينيّة الخارجيّة، فالأخبار الواردة في بيانها معرّفات وتشريع وتذكرة، أنّ السفيه والضعيف مَن لم يتمكّن من إصلاح ماله، ولم يكن له تشخيص بموارد الخير والضرر.

قوله تعالىٰ: «واستشهدوا شهيدين من رجالكم».

لا كلام في دلالة قوله تعالىٰ: «رجالكم» علىٰ العموم، سواء أكان حرّاً أم

عبداً، شريفاً أو وضيعاً أو من أرباب الصنائع الدنيّة، إلّا أنّ قوله تعالى: **«ممّن ترضون من الشهداء»** قد قيّده بكون هؤلاء الرجال الشهداء من الّذين يرضى المتعاملون دينَهم وإيمانَهم، أي كونهم عدولاً، فمَن كان من أهل الستر والعفاف عند المتعاملين فيجوز لهم أن يستشهدوه. فالميزان هو تشخيصهم عدالة الشهداء وكونهم مرضيّين عندهم.

في الوسائل ٣٩٩/٢٧، عن تفسير الإمام العسكري، عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله **«ممّن ترضون من الشهداء»** قال:

> ممّن ترضون دينه وأمانته وصلاحه وعفّته وتيقّظه فيما يشهد به وتحصيله وتمييزه، فما كلّ صالحٍ مميّزاً ولا محصّلاً، ولا كلّ محصّل مميّز صالح.

ويمكن تقييده أيضاً بكون الشهداء أحراراً، إذ العبيد أوقاتهم مملوكة للمالكين فلايجوز لهم صرفها في تحمّل الشهادة، ولاسيّما بناءً علىٰ ما سيجيء من أنّ الحكم بتحمّل الشهادة حكم إرشاديّ وهنا الحكم ليس حكماً تكليفياً إلزامياً على المتعاملين وعلى الشهداء.. وقد صرّح بذلك في بعض الروايات.

في الوسائل ٣٥٠/٢٧، عن تفسير الإمام العسكري، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

> كنّا عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو يذاكرنا بقوله تعالى: «واستشهدوا شهيدين من رجالكم» قال: أحراركم دون عبيدكم، فإنّ الله شغل العبيد بخدمة مواليهم عن تحمّل الشهادة وعن أدائها.

وحيث إنّه قد اختلف في نسبة التفسير إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام، فمَن قال بصحة أحاديثه يقول بجواز تخصيص الآية الكريمة بهذا الحديث، ويستثنى العبيد من العموم، ومن لم يقل بصحّتها أبقىٰ عموم الآية علىٰ حاله.

قال في معجم الرجال ١٤٧/١٢، في ذكر عليّ بن محمّد بن سيّار: التفسير المنسوب إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام، إنّما هو برواية هذا الرّجل وزميله يوسف بن محمّد بن زياد، وكلاهما مجهول الحال. ولا يعتدّ برواية أنفسهما عن الإمام عليه السلام، اهتمامه عليه السلام بشأنهما، وطلبه من أبويهما إبقاءهما عنده

لإفادتهما العلم الّذي يشرفهما الله به.

وقال في الوسائل ١٨٧/٣٠: ونروي تفسير الإمام أبي محمّد، الحسن بن عليّ العسكري عليهما السلام بالإسناد عن الشيخ أبي جعفر الطوسي، عن المفيد، عن الصدوق، عن محمّد بن القاسم المفسّر الإستراباديّ، عن يوسف بن محمّد بن زياد وعليّ بن محمّد بن سيّار ـ قال الصدوق والطبرسي: وكانا من الشيعة الإماميّة ـ عن أبويهما، عن الإمام عليه السلام. وهذا التفسير ليس هو الّذي طعن فيه بعض علماء الرجال، لأنّ ذلك يُروى عن أبي الحسن الثالث عليه السلام، وهذا يروى عن أبي محمّد عليه السلام.

وقال في معجم الرجال ١٥٦/١٧: وقال ابن الغضائري: محمّد بن القاسم المفسّر الإستراآبادي، روى عنه أبو جعفر بن بابويه، ضعيف كذّاب. روى عنه تفسيراً يرويه عن رجلين مجهولين، أحدهما يعرف بيوسف بن محمّد بن زياد، والآخر علىٰ بن محمّد بن يسار، عن أبي الحسن الثالث عليه السلام، والتفسير موضوع عن سهل الديباجي... إنّ المذكور في كلام ابن الغضائري، والعلّامة أنّ التفسير موضوع عن سهل الديباجي، عن أبيه... وهذه العبارة لا نعرف لها معنى محصّلاً، فإنّ سهلاً لم يقع في سند هذا التفسير.

وقال في البحار ٢٨/١: وكتاب تفسير الإمام عليه السلام من الكتب المعروفة، واعتمد الصدوق عليه وأخذ منه، وإن طعن فيه بعض المحدّثين، ولكنّ الصدوق ـ رحمه الله ـ أعرف وأقرب عهداً ممّن طعن فيه. وقد روى عنه أكثر العلماء من غير غمز فيه.

قوله تعالىٰ: «فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممّن ترضون من الشّهداء أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى».

الضلال بمعنىٰ فقدان العلم بشيء خاصّ أو مطلق، وينطبق علىٰ موارد النسيان والغفلة المستمرّين، فيكون معنىٰ قوله تعالىٰ: «**أن تضلّ إحداهما**» أي تنسىٰ وتَتَخَطّىٰ إحدى المرأتين المستشهدَتين اللّتين تحمّلتا الشهادة فتذكّرها الأخرىٰ، فلابدّ في مقام التحمّل من أن تتحمّل كلتاهما كي تشهدا عند الأداء؛

ليحصل الوثوق إذا اجتمعتا وتوافقتا في تقرير الحادثة. فاعتبار المرأتين في مقام تحمّل الشهادة، ثمّ في مرحلة الأداء علىٰ نحو القضيّة الشخصيّة الخارجيّة، لا أن تكون إحداهما مراقبة ومعاونة ومذكّرة للأخرىٰ كي تودّي الشهادة مستوفاة وتامّة كاملة، فشهادتهما معاً شهادة واحدة معادلة لشهادة رجل واحد.

فكلمة «إحداهما» الأولىٰ فاعل «تضلّ» و«إحداهما» الثانية فاعل «تذكّر» فلا تكرار في المقام. وسرّ الإتيان بالاسم الظاهر وعدم الاكتفاء بالضمير ـ بأن يقول: وتذكّرها الأخرى ليكون مرجع الضمير المفعولي هي المرأة الناسية التي هي فاعل «تضلّ» ويكون فاعل «تذكّر» الأخرىٰ وهي المرأة غير الناسية ـ هو لأن يكون صريحاً في المقصود، وهو تقوّم إحدى الشهادتين بالأخرىٰ، ولو بدّلنا الظاهر مضمراً؛ ليوهم أنّ شهادة الواحدة كافية في الحكم، إلّا أنّها تحتاج إلىٰ المرأة الثانية؛ لتكون مذِكّرة للأُولىٰ حين نسيت الشهادة وغفلت عنها. والعلم عند الله ـ سبحانه ـ وعند أوليائه المعصومين عليهم السلام.

في الوسائل ٢٤٥/١٨، عن تفسير الإمام العسكري، عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالىٰ: «**أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرىٰ**» قال:

> إذا ضلّت إحداهما عن الشهادة فنسيتها ذكّرت إحداهما الأخرى بها فاستقامتا في أداء الشهادة عند[1] الله شهادة امرأتين بشهادة رجل لنقصان عقولهنّ ودينهنّ. ثمّ قال: معاشر النساء، خلقتنّ ناقصات العقول، فاحترزن من الغلط في الشهادات، فإنّ الله يعظّم ثواب المتحفّظين والمتحفّظات في الشهادة، ولقد سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: ما من امرأتين احترزتا في الشهادة، فذكّرت إحداهما الأخرىٰ حتّىٰ تقيا الحقّ وتنفيا الباطل إلّا وإذا بعثهما الله يوم القيامة عظم ثوابهما.

وفيه أيضاً /٢٧٢، عن تفسير الإمام أيضاً، عن أمير المؤمنين عليه السلام

---

١ ـ في المصدر عدل مكان عند.

في قوله تعالىٰ: «فإن لم يكونا رجلين فرجل وآمرأتان» قال:

عدلت امرأتان في الشهادة برجل واحد، فإذا كان رجلان، أو رجل وامرأتان في الشهادة قضي بشهادتهم...

وفي الكافي ٤١٦/٧، عن عليّ بن إبراهيم، عن محمّد بن عيسىٰ، عن يونس، عمّن رواه قال: استخراج الحقوق بأربعة وجوه: بشهادة رجلين عدلين، فإن لم يكونا رجلين، فرجل وامرأتان، فإن لم تكن امرأتان، فرجل ويمين المدّعي، فإن لم يكن شاهد فاليمين على المدّعى عليه...

قوله تعالىٰ: «ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا».

قد ذكرنا في أوّل الآية أنّ الأحكام المذكورة للكتابة بين المتداينين أحكام وضعيّة إرشاديّة، ما عدا الحكم الراجع إلى الكاتب والشاهد إذا دعيا من ناحية المتعاملين لتحمّل الشهادة وللكتابة، فعليهما القبول والإجابة إقامةً لسنّة العدل وإحياءً لحقوق الناس، وحسماً لمادّة الفساد والتنازع. وقد نهى الله في كلا الموردين عن الإباء والامتناع بقوله: «ولا يأب كاتب» وبقوله: «ولا يأب الشهداء». ولمّا كان الأمر بالكتابة والاستشهاد بين المتعاملين حكماً وضعيّاً إرشاديّاً فلا يحرم علىٰ المتعاملين ترك الكتابة والاستشهاد، ولا يترتّب علىٰ مخالفته إلّا آثاره الوضعيّة من فساد الأموال والتنازع بين المتعاملين، فلا يكون ترك الكتابة والاستشهاد بعنوانه الأوّلي معصية، فعلىٰ هذا لا يكون النهي عن إباء الكاتب والشهداء نهياً تحريميّاً شرعيّاً، نعم لو أفاد النهي التحريم يكون قبول الدعاء للكتابة وتحمّل الشهادة واجباً عقلاً لا فرضاً شرعيّاً، من باب أنّه إذا كان الإباء وترك امتثال دعاء المتعاملين حراماً يكون امتثاله واجباً، ولكنّ النهي في المقام لادلالة له على التحريم إلّا بالإطلاق. والإطلاق لاينعقد إلّا بعد الفحص عن القرائن المنفصلة، والقرائن على عدم التحريم كثيرة فيكون النهي تنزيهيّاً لا تحريميّاً.

في الوسائل ٣٠٩/٢٧، عن التهذيب، مسنداً عن أبي الصباح، عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالىٰ: «ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا» قال:

لا ينبغي لأحد إذا دعي إلىٰ شهادة ليشهد عليها أن يقول: لا أشهد

لكم عليها.

وفيه أيضاً/ ٣١٠، عنه، مسنداً عن سماعة، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: «ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا» فقال:

لا ينبغي لأحد إذا دعي إلىٰ شهادة ليشهد عليها أن يقول: لا أشهد لكم.

وفي الفقيه ٣٤/٣، عن محمّد بن الفضيل قال: قال العبد الصالح عليه السلام:

لا ينبغي للّذي يدعى إلىٰ شهادة أن يتقاعس عنها.

في لسان العرب ١٧٧/٦: وقَعَس وتَقاعَس واقْعَنْسَس: تأخّر ورجع خلف.

أقول: ظاهر للفقيه الخبير أنّ كلمة «لا ينبغي» نصّ في الكراهة. فتكون هذه الأحاديث شارحة ومفسّرة لمعنى النهي في الآية الشريفة، كما أنّها شارحة أنّ المراد من الدّعوة، الدعوة لأجل تحمّل الشهادة لا لإقامتها، فالآية الكريمة في مقام إفادة تنظيم الأسناد في الديون المؤجّلة بالكتابة والاستشهاد، وفي مقام بيان الشهداء من الرجال والنساء، وبيان المنع من إباء الكاتب أن يكتب، ومن إبا الشهداء أن يشهدوا، وليس في مقام بيان فصل الخصومة وحرمة الكتمان بعد تحمّل الشهادة.

في الوسائل ٣٠٩/٢٧، عن التهذيب بإسناده عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: «ولا يأب الشهداء» قال:

قبل الشهادة. وقوله: «ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه». [البقرة (٢)/٢٨٢] قال: بعد الشهادة.

وفيه أيضاً، عنه، مسنداً عن جرّاح المدائني، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

إذا دعيت إلىٰ الشهادة فأجب.

أقول: لابدّ من حمل الشهادة علىٰ معناها الحقيقيّ اللّغوي؛ وهو العلم عن حضور بمشاهدة المشهود به، لا المعنى المتعارف المأنوس في أذهان العامّة وهو إقامة الشهادة وبيان المشهود به عند القاضي، أو عند المتعاملين في موقع الحاجة إليها.

فالمتحصّل في المقام أنّ الله ـتعالىٰ ـ نهىٰ عن إباء تحمّل الشهادة، والحضور

عند الكتابة وقبل الكتابة، وهذا النهي نهي تنزيهيّ بحسب ظاهر الأخبار. ولو لم يكن لفظ «قبل» في هذه الأحاديث لكان الواجب أيضاً الأخذ بظاهر كلمة الشهادة أو يشهد وأمثالها، والاستدلال بها علىٰ الحضور لشهود الواقعة، ولكان الواجب تفسير الآية الكريمة بالتحمّل. وفي قبال هذه الروايات المؤيّدة بظاهر الآية والمفسّرة لها مارواه في الوسائل ٢٧/ ٣١٤، عن تفسير الإمام العسكري، عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالىٰ: **«ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا»** قال:

من كان في عنقه شهادة فلا يأب إذا دعي لإقامتها، وليقمها، ولينصح فيها، ولا تأخذه فيها لومة لائم، ليأمر بالمعروف، ولينه عن المنكر.

وواضح أنّ هذا الحديث لايصح لمعارضة تلك الأخبار المصرّحة بأنّ المراد هو الدعوة قبل الشهادة.

إن قيل: إنّ حمل الآية علىٰ تحمّل الشهادة لا علىٰ إقامتها وأدائها يوجب المجاز في إطلاق الشهداء علىٰ من يشارف الشهادة تنزيلا لما يشارف منزلة الكائن.

قلت: لا إشكال في ذلك فإنّه إطلاق شائع في القرآن الكريم، وكذلك في كلام العرب الفصيح.

قوله تعالىٰ: «ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلىٰ أجله».

قال في لسان العرب ١٢/ ٢٨٠: سَئِمَ الشيء وسَئِم منه، وسَئِمتُ منه أسأَمُ سَأماً وسَأْمَة وسَآماً وسَآمة: ملّ... والسَآمة: الملل والضجر.

أقول: السأم هو التعب الروحي، وسلب النشاط والجدّ، وسلب الإقبال على الأمر؛ وهو من الآفات والرذائل الروحيّة فلابدّ من اجتنابه. ولا يجوز السأم والملل من الكتابة في صغير المعاملات وكبيرها. وقوله تعالىٰ: **«إلى أجله»** أي أجل الدين، والجارّ متعلّق بالكتابة. وقد عمد ـ سبحانه ـ إلىٰ ذكر الأجل بخصوصه لأهميته في المقام، فإنّ كتابة الأجل في المعاملات والتداين تنزع أساس الخصومة، الّتي تقع في أكثر المعاملات بين المتعاملين، فلا يصحّ إهمال ما يريده سبحانه وتعالى منا في كتابة كبير الأمور وصغيرها.

قوله تعالىٰ: «ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنىٰ ألّا ترتابوا».

لمّا نهى الله ـ سبحانه ـ عن التسامح في أمرالكتابة في صغير الأموال وكبيرها، قد أشار إلىٰ بعض فوائدها وقال: «ذلكم أقسط عند الله» لصونها حقوق الناس وحفظها أموالهم بعيداً عن التنازع والتخاصم، وبالتالي منع الناس من الوقوع في أكل أموالهم بالباطل، فيهلكون من حيث يشعرون ومن حيث لايشعرون. وقال أيضاً: «وأقوم للشهادة» فإنّ كتابة مورد الشهادة عماد بقاء الشهادة، إذ الكتابة كما أنّها كتابة للمال وذكر عند الحاجة إليها، كذلك كتابة للشهادة وحافظة لها عند نسيان الشهود إيّاها، أو إنكارهم وعدولهم عن الشهادة، أو موتهم أو غيبتهم، فالكتابة تقيم الشهادة، والشهادة تحتاج إلى الكتابة كاحتياج المال إليها.

وقال أيضاً: «وأدنى ألّا ترتابوا» فإنّ الحوادث والوقائع، لا يمكن حفظها وذكرها علىٰ ما هي عليه لعموم الناس إلّا بالكتابة، فلابدّ لهم لحفظ شؤونهم وحقوقهم ونفي الريب عنها من التوسّل بكلّ ما يقدرون عليه، وبحسب رقيّهم في المدنيّة والحضارة وبحسب دقّتهم وبصيرتهم بالأمور. فأمر الكتابة وتقييد الحقوق في أوراق ودفاتر علىٰ نحو الإتقان يجعل أمورهم بعيدةً عن تسرب الخلل إليها والارتياب بها. ويستطيعون من خلال الكتابة ضبط القرائن والأحوال، وصونها عن احتمال التزوير والخيانة، وبالتالي وضع قرائن وعلامات المستمسكات المزوّرة، والتحفّظ الشديد علىٰ شؤون الكاتبين وإيمانهم وتقواهم وكياستهم وفراستهم وكذا الشهداء، وهذا أقصىٰ ما يمكن بحسب الأسباب العادية لنفي الريب والترديد والشكّ عن الحقوق والأموال..

قال في المنار ١٢٦/٣: وهذه مزيّة ثالثة للكتابة توكّد القول بالأخذ بها والاعتماد عليها، وجعلها مذكّرة للشهود والاحتجاج بها إذا استوفيت شروطها.

أقول: لا ريب في أنّ الكتابة من الطرق العقلائيّة، ومن الأمارات العقلائيّة علىٰ إحراز الواقع، وهذه الآيات نصّ قطعيّ علىٰ إمضائها، وإرشاد إلىٰ فوائدها، وليس لازم إمضاء طريقيّة الكتاب كونه طريقاً إلىٰ إحراز الواقع مطلقاً ولو في مورد الريب، بل المتيقّن من مورد الإمضاء مورد عدم الريب، فإنّ الكتاب جعل لنفي الريب تكوينياً، بعبارة أخرىٰ إنّما أمر الله بالكتابة بلحاظ نفي الريب وهو

المتيقّن عند العقلاء، فلو حصل الريب للقاضي فلا يجوز له إنفاذ مفاد الكتاب، وكذا لو حصل الريب للشاهد فلا يجوز له الشهادة بالكتاب والاعتماد عليه محضاً. فقد أمر الله بالكتاب ليكون تذكرة للشهادة ونافياً للرّيب تكويناً لا أن يكون مرجعاً وفاصلاً وقاطعاً عند القاضي أو الشاهد حتّىٰ عند حدوث الريب، نعم يحتجّ به علىٰ المنكر ويستدلّ به عليه إلىٰ أن ينتفي الريب، ولو لم ينتف الريب أو ازداد لسقط عن الحجّية والاعتبار.

في الفقيه ٤٣/٣، عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام رجل يشهدني على الشهادة فأعرف خطّي وخاتمي، ولا أذكر من الباقي قليلاً ولا كثيراً. فقال:

إذا كان صاحبك ثقة ومعك رجل ثقة فاشهد له.

وفي الكافي ٣٨٢/٧، عن العدّة مسنداً عن الحسين بن سعيد قال: كتب إليه جعفر بن عيسىٰ: جعلت فداك جاء في جيران لنا بكتاب زعموا أنّهم أشهدوني على ما فيه، وفي الكتاب اسمي بخطّي قد عرفت ولست أذكر الشهادة وقد دعوني إليها، أفأشهد لهم علىٰ معرفتي أنّ اسمي في الكتاب ولست أذكر الشهادة، أو لا تجب لهم الشهادة عليّ حتّىٰ أذكرها، كان اسمي في الكتاب بخطّي أو لم يكن؟ فكتب: لا تشهد.

وفيه أيضاً/ ٣٨٣، عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن السكوني، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

لا تشهد بشهادة لا تذكرها، فإنّه مَن شاء كتب كتاباً ونقش خاتماً.

قوله تعالىٰ: «إلّا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألّا تكتبوها».

استثناء من الحكم السابق أي الكتابة والإشهاد لا من أحدهما فقط. والشاهد على ذلك الآية التالية «وأشهدوا إذا تبايعتم» فإنّها تدلّ على استحباب الإشهاد من دون الكتابة، وهذا إنّما يكون بعد رفع الجناح عنهما. ورفع الجناح عن المستثنى شاهد علىٰ وجود الجناح في المستثنىٰ منه بالمعنى الّذي ذكرناه من لزوم

الكتابة، والاهتمام بما أدّب الله ـ سبحانه ـ به عباده، والعمل بوصيّته لكيلا يقوم الندم والبخس والشطط.

قوله تعالىٰ: «وأشهدوا إذا تبايعتم».

هذا لا يشمل المعاملة الّتي أحد الثمنين فيها مؤجّل، فإنّه ـ سبحانه ـ فصّل أحكامها تفصيلاً، فلا نعرف عناية ووجهاً للتكرار، فتعيّن أنّ المراد هي التجارة الحاضرة. وهذه جملة مستأنفة تدلّ على استحباب الإشهاد دون الكتابة، ورفع الجناح عن ترك الكتابة والإشهاد لا ينافي استحباب الإشهاد.

قوله تعالىٰ: «ولا يضارّ كاتب ولا شهيد».

قال في الجوامع / ٥١: «ولا يضارّ» يحتمل البناء للفاعل والمفعول، والمعنى نهي الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلىٰ ما يطلب منهما، وعن التحريف والزّيادة والنقصان، أو النهي عن الضّرار بهما بأن يعجّلا عن مهمّ، أو لا يكلّف الكاتب الكتابة في حال عذر ولا يتفرّغ لذلك، ولا يدعى الشاهد إلىٰ إثبات الشهادة أو إقامتها في وقت لا يتفرّغ له.

أقول: الحقّ في المقام أنّ الله ـ سبحانه ـ لمّا أمر الكاتب والشهيد بالكتابة والشهادة بالشروط الّتي شرط عليهما، أراد ـ سبحانه ـ أن يجعل لهما حكم عدم المضارّة بأن لا يتضرّرا من ناحية تعيّن وظيفة الكتابة والشهادة بوجه من الوجوه، وهكذا حكمه ـ تعالىٰ ـ في جميع شرائعه في حقوق الناس بينهم في غير هذا المورد أيضاً، فلا ضرر ولا ضرار في الإسلام. فإيجابه ـ تعالىٰ ـ حكم الكتابة والشهادة لا يوجب تسلّط الناس عليهما ـ أي على الكاتب والشاهد ـ وإضرارهما بما يتمكّنون من استيفاء حقّ الكتابة وتحمّل الشهادة منهما، فالواجب كون استيفاء حقّ الكتابة وحقّ تحمّل الشهادة بحيث لا يتوجّه ضرر عليهما. فتعيين مالهما علىٰ الناس وما عليهما للناس علىٰ عهدة الفقيه من الكتاب والسنّة.

قوله تعالىٰ: «وإن تفعلوا فإنّه فسوق بكم».

فمن عمل فعلاً يوجب إضرارهما فإنّ ذلك فسوق بهما، وتعدٍّ عمّا حدّد الله ـ تعالى ـ لهما من الحقّ المشروع وعيّنه.

قوله تعالىٰ: «واتّقوا الله».

أي اتّقوا الله في جميع ما أمركم الله ونهاكم، وكذلك اتّقوه في كلّ ما علمتم من سخطه وعقابه، وتمّت عليكم حجّته في أحكامه ومراضيه، واتّقوا الله أيضاً في سرّكم وعلانيتكم.

قوله تعالىٰ: «ويعلّمكم الله».

قال في الميزان ٤٣٥/٢: وما قيل: إنّ قوله: «**واتّقوا الله ويعلّمكم الله**» يدلّ علىٰ أنّ التقوىٰ سبب للتعليم الإلٰهي، فيه أنّه وإن كان حقّاً يدلّ عليه الكتاب والسنّة لكنّ هذه الآية بمعزل عن الدلالة عليه.

أقول: الظاهر أنّ الواو للاستئناف، والكلام منقطع عمّا قبله فيخرج عن كونها جزاءً للشرط، أي كون التقوىٰ شرطاً وسبباً للتعليم الإلٰهي. وكما أنّه ليس في هذه الآية دلالة علىٰ ذلك، كذلك ليس في الكتاب والسنّة ما يدلّ علىٰ سببيّة التقوى للتعليم الإلهي، نعم لابدّ في تحصيل العلم الإلٰهي وطلب الهداية من استعمال العلم وسلوك هذه الجادة الوعرة بمطيّة التقوىٰ، فالجاهل العامل بسنن الدّين ومناهج التقوىٰ مبتدع ضالّ، والعالم العامل الهاتك حرمات ربّه أبعد الناس من الله ـ سبحانه ـ وهو المخذول والمطرود.

وأمّا الآثار الواردة في الكتاب والسنّة مثل قوله تعالىٰ: «**والّذين جاهدوا فينا لَنهدينَّهم سبلَنا**». [العنكبوت (٢٩)/٦٩]، و«**يا أيّها الّذين آمنوا إن تتّقوا اللهَ يجعل لكم فرقاناً**». [الأنفال (٨)/٢٩]، وما ورد في العيون ٦٩/٢، عن أبي بكر محمّد بن أحمد مسنداً عن دارم بن قبيصه، عن عليّ بن موسى الرّضا عن آبائه عليهم السلام عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال:

> ما أخلص عبد لله ـ عزّ وجلّ ـ أربعين صباحاً إلّا جرت ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه.

وغيرها من الآيات والرّوايات إنّما تدلّ علىٰ إزدياد الهدىٰ باستعمال العلم والتقوىٰ وطلب المزيد من الله ـ سبحانه ـ في الهداية والتثبّت والتبصّر في الإخلاص، والتخلّص من آفات النفس ومكائد الشيطان، فقد جرت سنّته ـ تعالىٰ ـ في

الوصول إلى العلم والهداية مثل الأحكام الفرعيّة والمعارف الإلهيّة بالتعليم والتفقّه.

قوله تعالىٰ: «والله بكلّ شيء عليم». (٢٨٢)

تهديد منه ـ تعالىٰ ـ وموعظة وتذكرة علىٰ أنّه سبحانه عليم بكلّ ما يفعلونه من الإضرار بالكاتب والشاهد.

قوله تعالىٰ: «وإن كنتم علىٰ سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة».

أي إن كنتم علىٰ سفر، وتريدون أن تتداينوا ولم تجدوا كاتباً ولا شهيداً فلا بأس أن تأخذوا رهاناً لتحصيل الاطمئنان والوثوق.

قوله تعالىٰ: «فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدّ الّذي أوتمن أمانته وليتّق الله ربّه».

أي إن أمنه ولم يأخذ منه رهناً يجب على المؤتمن أن يتّقي الله ـ سبحانه ـ ويؤدّي ما عنده من الأمانة إلىٰ مَن ائتمنه.

قوله تعالىٰ: «ولا تكتموا الشّهادة ومَن يكتمها فإنّه آثم قلبهُ».

من يكتم الشهادة بعد تحمّلها فقد ارتكب حراماً بيّناً، ونسبة الإثم ـ وهو التحريم ـ إلى القلب بجهة أنّ الأعمال مستندة إلى القلب، وهو حاكم على الأعضاء.

في الكافي ٣٣/٢، عن علىّ بن إبراهيم مسنداً عن أبي عمرو الزبيريّ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

> ... فمنها قلبه الّذي به يعقل ويفقه ويفهم، وهو أمير بدنه الّذي لا ترد الجوارح، ولا تصدر إلّا عن رأيه وأمره...

قوله تعالىٰ: «والله بما تعملون عليم». (٢٨٣)

تهديد منه ـ سبحانه ـ أنّ الأعمال كلّها يعلمها الله ـ تعالىٰ ـ ولا يخفىٰ عليه خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويجزي الصالحين جزاءً حسناً، ومَن يعمل سوءً يجز به.

لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ

﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

قوله تعالىٰ: «لله ما في السمٰوات وما في الأرض».

قد مجّد الله ـ تعالىٰ ـ نفسه بأنّه مالك ما في السماوات والأرض، ذواتهم ونعمائهم وما أكرمَهم به من مواهبه وآلائه.

قال في آلاء الرحمن / ٢٥١: «لله ما في السمٰوات وما في الأرض» وهو الخالق للكلّ والمدّبر له وبيده أمره.

أقول: لم يعلم وجه تفسير الآية بالخالقيّة، وإن كان ـ سبحانه ـ خالقاً، بل هو ـ سبحانه ـ مالك الخلق والأمر، إلّا أنّ صريح الآية هو تمجيده ـ سبحانه ـ بالمالكيّة. واستفادة هذا التمجيد بلحاظ الخالقيّة تحتاج إلىٰ مؤونه زائدة.

وقال الرازي في تفسيره ١٢٤/٧: أقول: إنّه قد ثبت أنّ الصفات الّتي هي كمالات حقيقيّة ليست إلّا القدرة والعلم فعبّر ـ سبحانه ـ عن كمال القدرة بقوله: «لله ما في السمٰوات ...».

أقول: يرد عليه أنّ التمجيد بالمالكيّة غير التمجيد بالقدرة فمفاد الآية هو الملك. فلو وجدت عناية في المقام لتفسيره بالقدرة فلا بأس. وقد بسطنا الكلام في معنىٰ مالكيته ـ تعالىٰ ـ في سورة الفاتحة.

قوله تعالىٰ: «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله».

تهديد وتحذير منه ـ سبحانه ـ فيذكّرهم بمراقبة جلال الله وكبريائه بأن لا يواجهوه بما يوجب الاستخفاف به ـ تعالىٰ ـ جهلاً منهم بنفوذ علمه، وغفلة منهم عن أنّه ـ تعالىٰ ـ مهيمن علىٰ عباده لا يخفىٰ عليه خائنة الأعين وما تخفي الصدور. فأوّل الآية تمجيد لله ـ سبحانه ـ بالمالكيّة. وهذه الفقرة تهديد وتذكرة بأنّ الله ـ تعالىٰ ـ يعلم ما تكنّ القلوب وتخفي الصدور، وأنّه ـ تعالىٰ ـ يؤاخذ بها إن شاء.

وجملة القول في ذلك أنّ ما في النفس من الخطرات، ونفخ الشيطان مما يرد

على النفس من غير اختيار من الإنسان فلا إشكال في عدم المؤاخذة عليها، فإنّ الخبيث يؤذي الإنسان بالنفخة والهمز واللّمز. إلا المؤمن فالله -تعالىٰ- يؤيّده بروح منه، وبإبطال ما يلقي الشيطان من تلك الوساوس والهواجس. فالآية الشريفة ليست شاملة بهذا النحو من الخطورات، إذ العناية في الآية هو استقرارها في النفس وإضمارها فيها، وليست هذه الخطورات مستقرّة فيها، نعم الخطورات الّتي ترد علىٰ النفس من غير اختيار، وكانت مسبوقة بأمور اختياريّة، فلابدّ من التخلّص منها بترك مقدماتها.

فالتحذير والتهديد منه -تعالىٰ- علىٰ ما أبطنه الإنسان وأضمره في السرائر والضمائر سواء أظهرها أو أخفاها. وليس سياق الآية، والغرض المسوقة له الآية بيان أنّ تلك المضمرات منشأ لأعمال الجوارح، ولا بيان أنّ إبداءها وإبرازها يكون بواسطة أعمال الجوارح، وأنّ أعمال الجوارح دالّة عليها، بل الآية سيقت لبيان أخذه -تعالىٰ- علىٰ ما تخفي الصدور وتكنّ القلوب، سواء أكانت خافية أم ظاهرة. والقلب أوسع ساحة وأفسح مكاناً للطاعات والمعاصي، فطاعات القلب ومعاصيه أمور مستقلّة في قبال أعمال الجوارح الظاهريّة، سواء أ لوحظت أنّها منشأً للأمور الخارجيّة أم لا، مثل الإيمان والانقياد، والولاية والبراءة، والكفر والنفاق، وإضمار السوء لله ولأوليائه، وإضمار الفسوق والمعاصي، والاستكبار في قبال الحقّ وأهله واحتقاره. ولا يخفىٰ علىٰ أولي الألباب أنّ بعض هذه الأفعال عزائم وفرائض مطلوبة بذاتها لا باعتبار أنّها منشأ للآثار الخارجيّة، وبعضها محرّمات كذلك.

فتحصّل أنّ الأعمال القلبيّة لابدّ من أن تكون محكومة بالأحكام الخمسة مثل أعمال الجوارح، مع ما في الأفعال القلبيّة من الأهميّة بنسبة أهميّة القلب والروح إلى البدن قال تعالىٰ:

«إن الّذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الّذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدّنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون». [النور (٢٤)/١٩]

و«زيّن للنّاس حبّ الشّهوات من النّساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع

الحيوٰة الدنيا والله عنده حسن المآب». [آل عمران (٣)/١٤]
و«ألا إنّهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرّون وما يعلنون إنّـه عـليم بـذات الصّـدور». [هـود (١١)/٥]

وما أكثر الآيات القرآنية التي وردت في مؤاخذة الإنسان بما كسب قـلبه، وتوبيخ ما في قلبه أو مدحه، وقسوة القلب ومرضه وطهارته وتقواه.

قوله تعالىٰ: «فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء».

أي يغفر لمن يشاء من المذنبين ويعذّب من يشاء منهم علىٰ قدر معيّن عنده سبحانه.

قوله تعالىٰ: «والله علىٰ كلّ شيء قدير». (٢٨٤)

تمجيد لله ـ تعالىٰ ـ بالقدرة علىٰ كلّ شيء، والظاهر أنّـه في مـورد التـعليل بأخذه ـ تعالىٰ ـ وتعذيبه عدلاً وبمغفرته وعفوه فضلاً.

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ

إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا

تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

قوله تعالىٰ: «آمن الرسولُ بما أنزل إليه مِن ربّه».

الغرض المسوق له الكلام تكريمه -تعالىٰ- لرسوله صلّى الله عليه وآله وحبيبه، أنّه آمن بما أنزل إليه وصدّق جميع ما أمر به.

قوله تعالىٰ: والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله».

أي كلّ واحد من المؤمنين آمن بالله - سبحانه - وبتوحيده -تعالىٰ- وملائكته وكتبه النازلة علىٰ الأنبياء الكرام والرسل العظام، وبجميع ما جاء به رسول الله - صلّى الله عليه وآله - وغيره من الأنبياء والمرسلين. ولا يجوز التفريق بينهم كما ارتكب اليهود والنصارىٰ في حق الأنبياء عليهم السلام.

قوله تعالىٰ: «وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك».

تصديق بجميع ما جاء به الأنبياء والمرسلون، واستدعاؤهم غفرانه تعالىٰ في حقّهم، وإقباله إليهم بكراماته وحنانه.

قوله تعالىٰ: «ربَّنا وإليكَ المصير». (٢٨٥)

إقرار وإيمان منهم بأنّ الرجوع إليه - سبحانه - يوم لقائه، وحضورهم في موقف الحساب والعرض الأكبر علىٰ الله.

قوله تعالىٰ: «لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها».

الآية الكريمة في بيان امتنانه -تعالىٰ- علىٰ عباده وإرفاقه بهم، فإنّه -تعالىٰ- تفضّل عليهم، وكلّفهم دون ما يطيقون ودون ما يسعون له، بحيث لم يستوعب التكليف جميع فضاء طاقتهم ووسعهم، وليس هذا إلّا تسهيلاً وإرفاقاً بهم وهم يطيقون أكثر من ذلك.

في البحار ٥/٣٠٠، عن المحاسن، عن عليّ بن الحكم مسنداً عن حمزة الطيّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال لي: اكتب وأملى:

إنّ من قولنا: إنّ الله يحتجّ على العباد بالّذي آتاهم وعرّفهم، ثمّ أرسل إليهم رسولاً وأنزل عليه الكتاب... ما أُمروا إلّا بدون سعتهم وكلّ شيء أمر الناس به فهم يسعون له. وكلّ شيء لا يسعون له فموضوع عنهم. ولكنّ الناس لا خير فيهم.

فقوله تعالىٰ: «وسعها» مطلق يشمل ما كان التكليف مستوعباً لوسعهم وطاقتهم، ويشمل ما دون طاقتهم ووسعهم أيضاً إلّا أنّ الرّوايات تصلح أن تكون مقيّدة للإطلاق المذكور، فيكون المراد من الوسع المذكور في الآية ما دون وسعهم وطاقتهم أي لا يكلّف الله نفساً إلّا ما دون وسعهم وطاقتهم.

في البحار ٤١/٥، عن المحاسن، عن عليّ بن الحكم، عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

ما كلّف الله العباد إلّا ما يطيقون. وإنّما كلّفهم في اليوم واللّيلة خمس صلوات، وكلّفهم في كلّ مائتي درهم خمسة دراهم، وكلّفهم صيام شهر رمضان في السنة، وكلّفهم حجّة واحدة وهم يطيقون أكثر من ذلك. وإنّما كلّفهم دون ما يطيقون ونحو هذا.

وفي الكافي ١٦٢/١، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن عبد الأعلىٰ قال:

قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أصلحك الله؛ هل جعل في الناس أداة ينالون بها المعرفة؟ قال: فقال: لا.

قلت: فهل كلّفوا المعرفة؟ قال: لا. على الله البيان. «لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها». و«لا يُكلِّفُ الله نفساً إلّا ما آتاها». [الطلاق (٦٥)/٧]

أقول: الرواية الشريفة صريحة في أنّ الله ـ سبحانه ـ لم يجعل للنّاس أداةً ينالون بها المعرفة. والمراد من المعرفة هي معرفة الله سبحانه، ضرورة أنّ ما سواها من المعارف مثل الأحكام الشرعيّة لإمكان تحصيل المعرفة بها، يجب تحصيل العلم بها بالاجتهاد والتفقّه وجوبا كفائياً، وبالتقليد على العوامّ وجوباً عينيًّا للعمل بها.

وقوله عليه السلام: على الله البيان، نصّ علىٰ أنّ المعرفة لاتكون إلّا بتعريفه

تعالى، فلا تشمل المعرفة المذكورة في الرواية الشريفة إدراك القطع بوجود الصانع بالمقدمات المتعارفة في المنطق، فإنّه تحصيل للحاصل أو يقال: إذاً لا يمكن معرفته ـ تعالىٰ ـ إلّا بتعريفه سبحانه ـ فلا تكون المعرفة بالعلم الحصولي معرفة بحسب الواقع وبحسب اللّغة والشرع.

قوله تعالىٰ: «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت».

أي للنفس ما كسبت من الحسنات والطاعات وعليها ما اكتسبت من الشرور والمعاصي.

قوله تعالىٰ: «ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا».

فيه دلالة علىٰ أنّهم دعوا ربّهم بحقائق قلوبهم تضرّعاً وخيفة والتجاءً إليه سبحانه من مجازات ما صدر عنهم من المعاصي إن صدر تغافلاً أو تساهلاً أو خطأً.

قوله تعالىٰ: «ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا».

سألوا ربّهم أن لا يحمل عليهم من التكاليف ما يصعب امتثالها كما حمله الأمم الماضية.

قوله تعالىٰ: «ربّنا ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به».

أي لا تحمّلنا ما يصعب ويشتدّ علينا تحمّله من البلايا والمصائب، وتسلّط الأعداء وغلبتهم، والقحط والغلاء.

قوله تعالىٰ: «واعف عنّا واغفرلنا».

قال في آلاء الرحمن/٢٥٣: «واعف عنّا» العفو هو إسقاط الحقّ والمراد إسقاط حقّ العقوبة «واغفرلنا» الغفران هو الصفح عن الذنب.

قوله تعالىٰ: «وارحمنا».

رحمته ـ تعالىٰ ـ للمؤمنين عبارة عن الخيرات والكرامات الواسعة في الدنيا والآخرة.

قوله تعالىٰ: «أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

الأشبه أنّ المعنىٰ: أنّك ناصرنا ومعيننا، والأولى بالتصرّف في أمورنا فانصرنا علىٰ القوم الكافرين، وادفعهم عنّا واخذلهم؛ لئلّا يتمكّنوا من إيذائنا

والغلبة علينا.

في الاحتجاج ٣٢٧/١، عن موسىٰ بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين ابن عليّ عليهم السلام، في احتجاج عليّ عليه السلام علىٰ اليهود، قال:

ومحمّد صلى الله عليه وآله أعطي ماهو أفضل من هذا، إنّه سري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصىٰ مسيرة شهر، وعرج به في ملكوت السماوات مسيرة خمسين ألف عام في أقلّ من ثلاثة ليلة... وكان فيما أوحي إليه الآية الّتي في سورة البقرة قوله: «لله ما في السموات وما في الأرضِ وإن تُبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله علىٰ كلّ شيء قدير». وكانت الآية قد عرضت علىٰ الأنبياء من لدن آدم عليه السلام إلىٰ أن بعث الله تبارك وتعالى محمّداً، وعرضت علىٰ الأمم فأبوا أن يقبلوها من ثقلها. وقبلها رسول الله وعرضها علىٰ أمّته فقبلوها، فلّما رأى الله تبارك وتعالىٰ منهم القبول علم أنّهم لا يطيقونها، فلما سار إلىٰ ساق العرش كرّر عليه الكلام ليفهمه، فقال: «آمن الرّسول بما أنزل إليه من ربّه» فأجاب صلّى الله عليه وآله مجيباً عنه وعن أُمته، «والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله».

فقال جلّ ذكره: لهم الجنّة والمغفرة علىٰ أن فعلوا ذلك.

فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله: أمّا إذا فعلت ذلك بنا فغفرانك ربّنا وإليك المصير. يعني المرجع في الآخرة.

قال: فأجابه الله عزّ وجلّ: قد فعلت ذلك بك وبأمّتك، ثمّ قال عزّ وجلّ: أمّا إذا قبلت الآية بتشديدها وعظم ما فيها، وقد عرضتها على الأمم فأبوا أن يقبلوها وقبلتها أمّتك، حقّ عليّ أن أرفعها من أمّتك وقال: «لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها لها ما كسبت» من خير «وعليها ما اكتسبت» من شرّ.

فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ لما سمع ذلك ـ: أمّا إذا فعلت ذلك بي وبأمّتي فزدني. قال: سل. قال: «ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا»، قال الله عزّ وجلّ لست أُؤاخذ أمّتك بالنسيان والخطإ لكرامتك عليّ. وكانت الأمم السالفة إذا نسوا ما ذكّروا به فتحت عليهم أبواب العذاب. وقد دفعت ذلك عن أمّتك. وكانت الأمم السالفة إذا أخطأوا أخذوا بالخطإ وعوقبوا عليه وقد رفعت ذلك عن أمّتك لكرامتك عليّ فقال صلّى الله عليه وآله: اللّهم إذا أعطيتني ذلك فزدني. قال الله تبارك وتعالى له: سل.

قال: «ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا».

يعني بالإصر، الشدائد الّتي كانت علىٰ مَن كان من قبلها.

فأجابه الله ـ عزّ وجلّ ـ إلىٰ ذلك وقال تبارك اسمه: قد رفعت عن أمّتك الآصار الّتي كانت على الأمم السالفة، كنت لا أقبل صلاتهم إلّا في بقاء معلومة من الأرض اخترتها لهم وإن بعدت، وقد جعلت الأرض كلّها لأمّتك مسجداً وطهوراً، فهذه من الآصار الّتي كانت على الأمم قبلك فرفعتها عن أمّتك.... وكانت الأمم السالفة تحمل قرابينها علىٰ أعناقها إلىٰ بيت المقدّس، فمَن قبلت ذلك منه أرسلت عليه ناراً فأكلته فرجع مسروراً، ومَن لم أقبل منه رجع مثبوراً، وقد جعلت قربان أمّتك في بطون فقرائها ومساكينها، فمَن قبلت ذلك منه أضعفت ذلك له أضعافاً مضاعفة، ومَن لم أقبل ذلك منه رفعت منه عقوبات الدّنيا، وقد رفعت ذلك عن أمّتك، وهي من الآصار الّتي كانت علىٰ الأمم مَن كان من قبلك. وكانت الأمم السالفة صلواتها مفروضة عليها في ظلم اللّيل وأنصاف النهار، وهي من الشدائد، التي كانت عليهم، فرفعتها عن أمّتك وفرضت صلاتهم في أطراف اللّيل والنهار، وفي أوقات نشاطهم، وكانت الأمم السالفة قد فرضت عليهم خمسين صلاة في خمسين وقتاً، وهي من الآصار الّتي كانت

عليهم، فرفعتها عن أمّتك وجعلتها خمساً في خمسة أوقات؛ وهي إحدى وخمسون ركعة، وجعلت لهم أجر خمسين صلاة. وكانت الأمم السالفة حسنتهم بحسنة، وسيّئتهم بسيئة وهي من الآصار الّتي كانت عليهم، فرفعتها عن أمّتك وجعلت الحسنة بعشرة والسيّئة بواحدة. وكانت الأمم السالفة إذا نوى أحدهم حسنة فلم يعملها لم تكتب له، وإن عملها كتبت له حسنة، وإنّ أمّتك إذا همّ أحدهم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له عشرة، وهي من الآصار الّتي كانت عليهم فرفعتها عن أمّتك... فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله: إذا أعطيتني ذلك كلّه فزدني. قال: سل: قال: «ربّنا ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به» قال تبارك اسمه: قد فعلت ذلك بأمّتك، وقد رفعت عنهم بلايا الأمم، وذلك حكمي في جميع الأمم أن لا أكلّف خلقاً فوق طاقتهم، فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله: «واعف عنّا واغفرلنا وارحمنا أنت مولانا». قال الله عزّ وجلّ: قد فعلت ذلك بتائبي أمّتك ثمّ قال صلّى الله عليه وآله: «فانصرنا علىٰ القوم الكافرين». قال الله جلّ اسمه: إنّ أمّتك في الأرض كالشامة البيضاء في الثور الأسود، هم القادرون وهم القاهرون يستخدمون ولا يستخدمون، لكرامتك عليّ. وحقّ عليّ أن أظهر دينك علىٰ الأديان حتّى لا يبقى في شرق الأرض وغربها دين إلّا دينك، ويؤدّون أهل دينك الجزية...

٣ •
سورة آل عمران

في رواية عن ابن عباس أنّها مدنيّة؛ وهي السورة الثامنة والثمانون من القرآن. انظر: مجمع البيان ١٠/٤٠٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

قوله تعالىٰ: «ألم» قد تقدّم في سورة البقرة أنّ الحروف المقطّعات في أوائل السور لا يعلم تفسيرها إلّا الله وحملة وحيه وأمناء علمه.

قوله تعالىٰ: «الله لا إله إلاّ هو».

قد تقدّم في تفسير سورة الفاتحة أنّ لفظ الجلالة ليس اسماً جامداً علماً للذّات المستجعمة لجميع صفات الكمال، بل إنّه مشتقّ إمّا من أَلِه بمعنى تحيّر، أو أَلَه

بمعنىٰ عبد أو، وَلَه بمعنى فزع، موضوع بالوضع الشخصيّ الاختصاصي للذات المقدّسة الخارجة عن الحدّين، حدّ التعطيل والتشبيه، بعناية أنّ الله ـ سبحانه ـ تحيّرت فيه العقول ولا يمكن لها تصوّره ونيله، أو بلحاظ أنّه ـ سبحانه ـ مفزع عند الحوائج والشدائد وعند البأساء والضرّاء، أو بلحاظ أنّه ـ تعالىٰ ـ معبود. فالله، اسم كريم من أسمائه تعالىٰ، بل من أعظم أسمائه سبحانه، وهو حاك عن نفس الذات من حيث نعت من نعوته؛ ونعوته وإن كانت واحدة من حيث المصداق، إلّا أنّها ليست بمترادفات بالضرورة، فكلّ منها مشعر بحيثيّة وعناية لا يدلّ عليها الآخر.

وتقديم لفظ الجلالة في المقام، وذكره في أوّل كلمة «لا إله إلّا الله» دليل أنّ «إلّا» ليس للاستثناء بل بمعنى الغير، فيكون وصفاً لما قبله والمعنى: الله لا إله غير الله بموجود، فيكون سياق الآية، والغرض المسوق له الكلام هو نفي الآلهة الموهومة، وإبطال الشركاء والأنداد والأضداد، وحصر الألوهيّة فيه ـ سبحانه ـ لا لإثباته فقط، ولا لإثباته وحصرها فيه ـ سبحانه ـ معاً. بعبارة أخرىٰ أنّ موضوع القضيّة هو نفس الذّات، فهو ـ سبحانه ـ موضوع لهذا التقديس والتنزيه والتهليل فلا يعقل أن يكون الموضوع في مرتبة المحمول وثابتاً بثبوته.

قوله تعالىٰ: «الحيّ القيّوم».

إنّ الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ حيّ لم يرث الحياة من حيّ آخر. وتفسير الحيّ بالدّرّاك الفعّال، والعلم والقدرة لا يخلو من إبهام وغموض فالأَوْلى السكوت عن تفسيره بها فيه سبحانه.

قال الرازي في تفسيره ٤/٧: فإنّ الحيّ هو الدرّاك الفعّال، فبقوله «الحيّ» دلّ علىٰ كونه عالماً قادراً، وبقوله «القيّوم» دلّ علىٰ كونه قائماً بذاته ومقوّماً لكلّ ماعداه.

أقول: حيث إنّ معرفة أسمائه ـ تعالىٰ ـ علىٰ قدر مراتب إيمان المؤمنين ومعارفهم، فمَن عرف جملة منها فليحمد الله عليه، وليكن في تحصيل معرفة ما سواها، ولينتظر هبوب رياح الرحمة، ولا يتكلّف ولا يحمل نفسه علىٰ إرجاع بعضها إلىٰ بعض فيما لم يمكن له نيله، فإنّ تحت هذه الأسماء حقائق وضعت

لحكايتها، وليست بمترادفات وليس وصفها له ـ سبحانه ـ جزافاً. وقد تقدّم بعض الكلام في معنىٰ الاسمين الكريمين في تفسير آية الكرسيّ.

قوله تعالىٰ: «نزّل عليك الكتاب».

تقدّم معنى الإنزال والتنزيل في تفسير قوله تعالىٰ: «**شهرُ رمضان الّذي أُنزل فيه القرآن**».[البقرة (٢)/١٨٥]

قوله تعالىٰ: «بالحقّ».

الظاهر أنّه قيد لقوله: «نزّل» مثل قوله تعالىٰ: «**وبالحقّ أنـزلناهُ وبـالحقّ نزلَ**».[الإسراء (١٧)/١٠٥]، أي ما نزّل الله عليك الكتاب جزافاً وعبثاً، بل نزّله بالحقّ عناية منه ـ سبحانه ـ لهداية الخلق. قال تعالىٰ:

«**وهو الّذي خلق السمٰوات والأرض بالحقّ**». [الأنعام (٦)/٧٣]

و«**خلق السمٰوات والأرض بالحقّ**».[التغابن (٦٤)/٣]

و«**وخلق الله السمٰوات والأرض بالحقّ**»[الجاثية (٤٥)/٢٢]

فكلمة «بالحقّ» في هذه الآيات لتنزيه فعله ـ تعالىٰ ـ عن العبث والجـزاف. والمراد أنّ أفعاله تعالىٰ كلّها، من خلقه السماوات والأرض وتنزيل الكتاب، أمـر محكم وقضاء متقن، فيجب تمجيده ـ تعالىٰ ـ وتحميده وثناؤه ـ سبحانه ـ أفعاله، كما حمد الله ـ تعالىٰ ـ نفسَه علىٰ أفعاله. قال تعالىٰ:

«**الحمد لله الّذي أنزل علىٰ عبده الكتاب**».[الكهف (١٨)/١]

قوله تعالىٰ: «مصدّقاً لما بين يديه».

قد ذكرنا ـ غير مرة ـ أنّ مِن سنة القرآن الكريم ذكر أسماء أئمّة التـوحيد ومقاماتهم الحميدة ومواقفهم الجـميلة وتـقديرها، وشكـر مسـاعيهم وجـهادهم ومعاناتهم، والثناء علىٰ إخلاصهم وصبرهم ووفائهم، وإظهار ألطافهم ومعاجزهم، وإضفاء صفتي التصديق والتقديس علىٰ أعمالهم وسنتهـم وعلومهم، فأحيا بـذلك قصصهم ومواقفهم. كما ذكر القرآن ما نالوه من عطفه تـعالىٰ وإشـفاقه، وحـنانه وإكرامه، وإعزازه لهم. وبيّن ما أعدّه لهم من ثواب عظيم وما ينتظرهم من جـزاء جميل. ومن سنن القرآن أيضاً ذكرِ كلّ ما جرى بينهم وبين أممهم وفـيها لطـائف

وإشارات يعرفها الراسخون في علوم القرآن. كما وردت كلمة «مصدّقاً» بعبارات متنوّعة، وعنايات خاصّة في موارد مختلفة، وقريباً من سبعة عشر مورداً.

وهذه الناحية من علوم القرآن من النواحي العجيبة؛ من حيث التعرضّ لذكر أحبّائه تعالىٰ وشؤون حياتهم السعيدة، وعدم إمكان الاختلاف بينهم، وفيها تصريح أنّها من جملة الغيوب الّتي كشف عنها القرآن الكريم، وفيها تنزيه وتقديس لساحة أولياء الله المخلَصين عمّا نسب إليهم الجاهلون والمتهوّسون، وفيها دلالة علىٰ أنّ القرآن الكريم هو المهيمن على الكتب كلّها؛ فقد أبطل منها ما غيّرته أيدي الجفاة والطغاة.

فتوصيف القرآن: بأنّه مصدّق لما بين يديه من الرسل والصحف من النعوت الجليلة للقرآن. والمراد من قوله: «بين يديه» ما تقدّم عليه من لدن آدم إلىٰ عصر النزول، لا ما كان دائراً في عصر النزول. إذ لا وجه لاختصاص التصديق بما كان دائراً بين علماء الكتابيين. فانّ النظر في كون القرآن مصدّقاً لما بين يديه، هو النظر إلى تصديق الوحي النازل على الأنبياء لا ما نسب إلى الأنبياء، ولا ما افتري عليهم.

والقرآن في عين أنّه يصدّق الوحي النازل على الأنبياء الماضين، كذلك يراقبه ويحفظه من تحريف المبطلين وتغيير المبدعين. فالقرآن المجيد له مقام المهيمنيّة والمرجعيّة والحافظيّة لجميع الكتب السماويّة، فهذا هو الطريق الوحيد للمسلمين وغيرهم بعلوم الأنبياء السابقين. فما في الكتب الموجودة في عصر النزول، وفي عصرنا هذا من العلوم والمعارف ممّا لا يصدّقه القرآن أو يكذّبه، فهو افتراء على الأنبياء الكرام. فتبيّن ممّا ذكرنا أنّ متعلّق التصديق هو عين الوحي النازل على الأنبياء، لا الكتب الموجودة في عصر النزول.

قال في المنار ١٥٥/٣: «مصدّقاً لما بين يديه» أي مبيّناً صدق ما تقدّمه من الكتب المنزّلة علىٰ الأنبياء، أي كونها وحياً من الله ـ تعالىٰ ـ وذلك أنّه أثبت الوحي، وذكر أنّه ـ تعالىٰ ـ أرسل رسلاً أوحىٰ إليهم، فهذا تصديق إجماليّ لأصل الوحي، لا يتضمّن تصديق ما عند الأمم، الّتي تنتمي إلىٰ أولئك الأنبياء من الكتب

بأعيانها ومسائلها.

أقول: لقد أصاب فيما قال: إنّ القرآن يصدّق الوحي الإلهي، لا الكتب الموجودة الخارجيّة في عصر النزول.

وقد بالغ القرآن الكريم، وشدّد النكير علىٰ أهل الكتابين بالكتمان والإخفاء والتحريف، قال تعالىٰ:

«فويل للّذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم ممّا كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون». [البقرة (٢)/٧٩]

و«قل من أنزل الكتاب الّذي جاء به موسىٰ نوراً وهدًى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعُلمّتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثمّ ذرهم في خوضهم يلعبون». [الانعام (٦)/٩١]

و«فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه». و«يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين». [المائدة (٥)/١٣ و ١٥]

فالقرآن الكريم حيث إنّه مهيمن على الكتب، ومراقب لها ومحافظ عليها، صرّح في هذه الآيات وغيرها بتلاعب أيدي الخائنين فيها.

ثمّ إنّه قد تبيّن ممّا ذكرنا أنّ ما اشتهر بين الناس من أنّ دين الإسلام نسخ جميع ما تقدّم عليه من الأديان ممّا لا وجه له. فإنّ دين الله الّذي ارتضاه لأنبيائه ورسله عبارة عن معرفته ـ تعالىٰ ـ وكمالاته العليا وتوحيده، والنّبوّات والولايات، وحقائق الإيمان ومكارم الأخلاق، وفضائل النفس، ورذائلها والاجتناب عنها، والمعرفة والإيمان بالعوالم، الّتي بعد الدّنيا من البرزخ، والقيامة وأهوالها ومواقفها، والنار وآلامها وعقوباتها، والجنّة وسرورها وصفائها، وكذلك الالتزام بالأحكام الّتي جاء بها الرسل من العبادات والحدود وغيرها، فليس منها قابلاً للنسخ إلّا الأحكام، فكما يقع النسخ أحياناً في شريعة واحدة كذلك يمكن النسخ بشريعة

لاحقة بالنسبة إلىٰ شريعة ماضية، إلّا أنّ تشخيص مورد النسخ وكسب النظر فيه لا ينالها إلّا الأوحديّ من العلماء.

قوله تعالىٰ: «وأنزل التوراة والإنجيل (٣) من قبل».

قال في لسان العرب ٣٨٩/١٥: والتوراة عند أبي العبّاس تَفْعِلَة. وعند الفارسي فَوْعِلَة.

وفيه أيضاً ٦٤٨/١١: والإنجيل ـ كتاب عيسىٰ علىٰ نبيّنا وعليه الصلاة والسلام ـ يونّث ويذكّر، فمَن أنّث أراد الصحيفة، ومَن ذكّر أراد الكتاب... وهو اسم عبرانيّ أو سريانيّ. وقيل: هو عربيّ... وقيل: اشتقاقه من النَّجل الّذي هو الأصل.

قال الرازي في تفسيره ١٦٠/٧ : وأيضاً فالتوراة والإنجيل اسمان أعجميّان؛ أحدهما بالعبريّة والآخر بالسريانيّة، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بتطبيقهاأوزان لغة العرب، فظهر أنّ الأَوْلى بالعاقل أن لايلتفت إلىٰ هذه المباحث. والله أعلم.

وقال في الكشاف ٣٣٥/١: والتوراة والإنجيل اسمان أعجميّان. وتكلّف اشتقاقهما من الورىٰ والنجل ووزنها بتفعلة وأفعيل، إنّما يصحّ بعد كونهما عربيّين.

وقال في المنار ١١٥/٣: التوراة كلمة عبرانيّة معناها المراد الشريعة: أو الناموس... وأمّا لفظ الإنجيل فهو يونانيّ الأصل ومعناه: البشارة. وقيل والتعليم الجديد.

أقول: قوله تعالىٰ: **«وأنزل التوراة و...»** عطف علىٰ قوله: **«نزّل الكتاب»** تأكيد لما أفادت الجملة من تفضّله ـ تعالىٰ ـ وإكرامه ـ سبحانه ـ للناس بإرسال الرسل ونشر الدعوة، والقيام بما يصلح به أمر العامّة من تثبيت الحقائق ببيان التوحيد، وما يرجع إلىٰ معادهم ومعاشهم، وبسط قوانين العدل ونصب موازين القسط. وإفراد التوراة والإنجيل بالذكر من بين الكتب لعلّه؛ لأهمّيّتهما وقرب عهدهما ووضوح حجّتهما أو لوجه آخر. وقد عرفت أنّ تصريح القرآن بنزول التوراة والإنجيل من الله ـ سبحانه ـ وتصديق القرآن بما بين يديه من الرسل، لا يكون التزاماً بصحّة ما كان بين أظهر اليهود والنصارىٰ في عصر النزول لا في

الجملة ولا بالجملة. فيجب الإيمان بكلّ نبيّ ورسول من الله، وكلّ كتاب من عند الله، ونبرء إلىٰ الله ممّن لعبت يداه بالكتب والشرائع الإلهيّة.

قوله تعالىٰ: «هدًى للناس».

قد ذكرنا في تفسير قوله تعالىٰ: **«ذلكَ الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين»**، [البقرة (٢)/١]، أنّ كون القرآن هدًى للمتّقين بالحقيقة لاينافي كونه هدًى للناس، وبيّنات من الهدى لهم أجمعين. وهكذا التوراة والإنجيل. قال تعالىٰ:

«وقفّينا علىٰ آثارهم بعيسى ٱبن مريم مصدّقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدًى ونور ومصدّقاً لما بين يديه من التوراة وهدًى وموعظة للمتّقين». [المائدة (٥)/ ٤٦]

و**«ولمّا سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدًى ورحمة للّذين هم لربّهم يرهبون».** [الأعراف (٧)/١٥٤]

و**«ولقد آتينا موسىٰ وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتّقين».** [الأنبياء (٢١)/٤٨]

فلا منافاة بين كون التوراة والإنجيل هدًى للناس مطلقاً، وبين كون التوراة ضياءً وذكراً للمتّقين وهدًى ونوراً يحكم بها النبيّون، وكون الإنجيل هدًى وموعظة للمتّقين ضرورة أنّ هذه النعوت والأوصاف كلّها مثبتات، ولا تنافي بين المثبتات وإنّما التنافي بين المثبت والنافي.

توضيح ذلك: إنّ التوراة والإنجيل وخاصّة القرآن المجيد ببراهينها وبيّناتها حجّة على الكافر والمعاند، وبهدايتها العامّة الشاملة هدًى من الضلالة والكفر والفسوق والعصيان، وتثبيت ومزيد لهداية المهتدين، وذكر وتذكرة للعلماء الرّبانيّين، وطمأنينة وسكينة للقانتين والمخبتين، وكذا غيرهم من المؤمنين والمتّقين على اختلاف درجات إيمانهم وأنوارهم وبصائرهم. فتبيّن أنّ الاختلاف في هذه الأنوار والهدايات المستفادة من القرآن وغيره من الكتب حسب اختلاف مراتب الأشخاص ممّا لا يمكن إنكاره، فكلّ يستفيد منها علىٰ حسب قَدَرِ فطرته وميزان بصيرته في جميع المراتب بإذن من الله سبحانه.

قوله تعالىٰ: «وأنزل الفرقان».

لا ريب أنّ القرآن نزل نجوماً ومتفرّقاً من بدو رسالته إلىٰ حين وفاته صلّى الله عليه وآله بخلاف غيره من الصحف والكتب فإنّها نزلت جملة ودفعة.

في العلل/ ٤٧٠، عن الحسين بن يحيى مسنداً عن يزيد بن سلام أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له:

لِمَ سمّي الفرقان فرقاناً؟ قال: لأنّه متفرّق الآيات والسّور، أنزلت في غير الألواح. وغيره من الصحف والتوراة والإنجيل والزبور نـزلت كلّها جملة في الألواح والورق.

ولا إشكال أيضاً في أنّ هذه الأبعاض والأجزاء قبل نزول القرآن كلّه كانت في مرحلة العمل والإنذار والتبشير والإبلاغ. قال تعالى:

«وقرآناً فرقناه لتقرأه على النـاس عـلىٰ مكث ونـزّلناه تـنزيلاً».

[الإسراء (١٧)/١٠٦]

الآية الكريمة صريحة في أنّ التفريق والنزول منجّماً، لأجل أن يقرأه‌الناس على مكث ومهلة في وقت دون وقت، ليكون أثبت في القلوب، وأوقع في النفوس، وأسهل في البلاغ ولاسيّما نزوله بحسب الحوادث والوقائع الجارية.

فالفرقان قابل الانطباق علىٰ القرآن من هذا الحيث، فالقرآن فرقان بلحاظ أنّه نزل متفرّقاً، بعبارة أخرىٰ بلحاظ أجزائه وأبعاضه في مقابل مجموعه.

وقد يسمّى فرقاناً باعتبار أنّه فارق بين الحلال والحرام، والحقّ والبـاطل. والظاهر أنّه لا منافاة بين مادلّ علىٰ تسمية القرآن فـرقاناً لكـونه نـازلاً نجـوماً وأبعاضاً، أو لكونه فارقاً بين الحق والباطل، والحلال والحرام. فإنّ مقام فارقيّته بين الحق والباطل لاينفكّ عن مرتبة كونه نازلاً نجوماً وأبعاضاً.

ومن دعائه (ع) ـ في الصحيفة السجادية المباركة ـ يوم عرفة:

سبحانك ما أجلّ شأنك، وأسنىٰ في الأماكن مكانك، وأصدع بالحقّ فرقانك.

وفيها أيضاً، من دعائه (ع) عند ختم القرآن قال:

اللهمَّ إنّك أعنتني علىٰ ختم كتابك الّذي أنزلته نوراً، وجعلته مهيمناً علىٰ كلّ كتاب أنزلته، وفضّلته علىٰ كلّ حديث قصصته، وفرقاناً فرقت به بين حلالك وحرامكَ، وقرآناً أعربت به عن شرائع أحكامك، وكتاباً فصّلته لعبادك تفصيلاً.

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم ٩٦/١، عن أبيه مسنداً عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن قول الله تبارك وتعالىٰ: «الم * الله لا إلٰه إلّا هو الحيُّ القيوم.... وأنزل الفرقان». قال:

الفرقان هو كلّ أمر محكم والكتاب هو جملة القرآن الّذي يصدّقه من كان قبله من الأنبياء.

وفي معاني الأخبار/ ١٩٠، عن أبيه مسنداً عن ابن سنان وغيره، عمّن ذكره قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن القرآن والفرقان، أهما شيئان أم شيء واحد؟ قال:

القرآن جملة الكتاب، والفرقان المحكم الواجب العمل به.

فالمراد من الفرقان بتصريح هذه الروايات هو المحكم من القرآن؛ وهو ما كان صريحاً وناصّاً في مفاده، قاضياً بين الحق والباطل والصدق والكذب.

فتحصّل من جميع ماذكرنا أنّ المراد من الفرقان في الآية الكريمة هو القرآن إمّا باعتبار فارقيّته بين الحلال والحرام وبين الحق والباطل، أو باعتبار نزوله منجّماً ومتفرّقاً. ويشهد علىٰ ذلك ذكره في رديف التوراة والإنجيل. ولاينافي ذلك ذكر الكتاب في صدر الآية فإنّ العناية في الكتاب غير العناية الملحوظة في الفرقان.

قوله تعالىٰ: «إنّ الّذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد».

والظاهر أنّ المراد من الكفر هو كفر الجحود؛ وهو متوقّف علىٰ العلم وإتمام الحجّة، لا كفر النعمة وكفر البراءة، كما أنّ الظاهر من الآيات هي الآيات التشريعيّة النازلة علىٰ سبيل الدّعوة والتشريع لا الآيات التكوينيّة.

والعذاب ما أعدّه الله للعصاة والكفّار قضاءً لسنّة العدل؛ وهو عمل خارجيّ لله ـ سبحانه ـ يعذّب به من يشاء في الدّنيا والآخرة. وقد وصف الله ـ تعالىٰ ـ

العذاب في القرآن الكريم بصفات مختلفة مثل مهين، عظيم، عذاب الخزي، عذاب الهون، عذاب النار، عذاب السموم، عذاب السعير، عذاب الحميم، عـذاب أليم، سوء العذاب، والعذاب الأكبر، وغيرها من الأوصاف.

قوله تعالىٰ: «والله عزيز ذو انتقام». (٤)

والظاهر أنّ الانتقام هو مكافاة المسيء علىٰ إساءته لا العقوبة فقط. فعليه يكون المعنىٰ أي، مليء بالمؤاخذة، ومتمكّن من العقاب. فالآية الكـريمة مسـوقة لتهديد الكافرين بآيات الله تعالى، وتوعِدهم بالعذاب. وأنّه ـ سـبحانه ـ لمكـان عزّته ورفعته ـالّذي لا يغلب ولا يذلّ ـ له التمكّـن التـامّ مـن الأخـذ والعـقاب، فالانتقام منهم أهون شيء عليه تعالىٰ، وأنّ العصاة أهون من أن تمتنع مؤاخذتهم على الله سبحانه.

قوله تعالىٰ: «إنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء». (٥)

الظاهر أنّ الآية الكريمة ليست مسوقة في مقام إثبات العلم له ـتعالىٰـ ولا في مقام إثبات علمه ـتعالىٰـ بسرائر القلوب ونجيّات الصـدور، بـعبارة أخـرىٰ ليست في مقام تمجيده تعالىٰ بالعلم، وإن كان هو ـتعالىٰـ ممجّداً بالعلم حقيقة، بل الظاهر أنّ الآية في مقام تهديد العصاة زائداً عما توعّدهم في الآية السابقة بالعذاب والانتقام؛ وهي بمنزلة قوله تعالىٰ: «إنّ الّذين يُلحدون في آياتنا لا يخفَون علينا». [فصّلت (٤١)/٤٠] واختصاص علمه ـتعالىٰـ بما في السماء والأرض يمكـن أن يكون لأجل أنّ السماء والأرض مستقرّ العاصين والمطيعين وهما مـوطنا التهـديد والتبشير.

قوله تعالىٰ: «هو الّذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء».

المراد بـ «هو» هو الله الغائب عن درك الأفهام والأوهام والعـقول، وعـن مشاهدة الأبصار والعيون، الظاهر بنفسه بالظهور الذّاتيّ الخارج عن الحـدّين حدّ التشبيه والتعطيل.

و«الّذي يصوّركم في الأرحام ما يشاء» تمجيد الله ـ سبحانه ـ بأنّه مصوّر. وفي عين التمجيد تذكرة إلىٰ أعجب آية من آياته تعالىٰ؛ وهـو خـلق الأجـنّة في

الأرحام بأنواع من الصور البديعة، من صبيح وقبيح، وقصير وطويل، وذكر وأنثى إلىٰ مالا نهاية لها في العقول والأفكار. قال تعالىٰ:

«ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من الساجدين». [الأعراف (٧)/١١]

و«هو الّذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير * خلق السمٰوات والأرض بالحقّ وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير». [التغابن (٦٤)/٢ و ٣]

و«يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم * الّذي خلقك فسوّاك فعدلك * في أيّ صورة ما شاء ركبك». [الانفطار ٦/٨٢ ـ ٨]

في تفسير علي بن إبراهيم ٢٢٤/١، عن أحمد بن محمّد مسنداً عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام قال في قوله: ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم»:

أمّا خلقناكم فنطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ عظماً ثمّ لحماً، وأمّا صوّرناكم فالعين والأنف والأذنين والفم واليدين والرجلين، صوّر هذا ونحوه ثمّ جعل الدميم والوسيم والطويل والقصير وأشباه هذا.

فلا ريب في أنّ المراد من الصورة في الآية الكريمة هو تصوير الإنسان في الأرحام علىٰ نحو بديع، وهو ـ تعالىٰ ـ يُمجَّد ويُحْمَد علىٰ فعله هذا.

ففي الصحيفة السجاديّة المباركة، من دعائه عليه السلام بعد الفراغ من صلاة اللّيل قال:

اللّهمّ وأنت حَدَرْتني ماءً مَهيناً من صلب متضائق العظام، حرج المسالك إلىٰ رحم ضيّقة سترتها بالحجب، تُصرّفني حالاً عن حال حتى انتهيت بي إلىٰ تمام الصورة، وأثبتَّ فيَّ الجوارح كما نعتَّ في كتابك نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ عظماً ثمّ كسوت العظام لحماً، ثمّ أنشأتني خلقاً آخر كما شئت.

وفيها أيضاً، في دعائه عليه السلام في يوم عرفة قال:

وأنت الله لا إله إلّا أنت، الّذي أنشأت الأشياء من غير سنخ،

وصورّتَ ما صوّرتَ من غير مثالٍ، وابتدعت المبتدعات بلا احتذاءٍ.

صرّح عليه السلام أنّ جميع الصور الّتي صوّرها الله ـ سبحانه ـ إبداعيّ غير مستند إلىٰ مثال قبلها، ومنها الصورة الإنسانيّة، فإعطاء الصورة للمادّة فعل من الله تبارك وتعالىٰ، تخصيص واحدة منها لمادّة من الموادّ بمشيّتة آيةٌ له تعالى، والصور كلّها في جميع الموجودات إبداعيّة لا تقليد فيها ولا سبق مثال لها، وليس هذا إلّا من سعة عمله تعالىٰ بها، وعنايته ـ سبحانه ـ بجميع شؤونها الدقيقة والجليلة ومن دون إهمال لها.

قال الراغب في مفرداته/ ٢٨٩: الصورة ما ينتقش به الأعيانُ ويتميّز بها غيرها. وذلك ضربان ؛ أحدهما محسوس يُدركه الخاصّة والعامّة، بل يدركه الإنسانُ وكثير من الحيوان؛ كصورة الإنسان والفرس والحمار بالمُعاينة. والثاني معقول يدركه الخاصّة دون العامّة، كالصورة الّتي اختُص الإنسانُ بها من العقل والرويّة والمعاني الّتي خُصّ بها شيءٌ بشيء. وإلى الصورتين أشار بقوله تعالى: «ثمّ صوّرناكم» و«صوّركم فأحسنَ صورَكم» وقال: «في أيّ صورة ما شاء ركّبَكَ».

وقال في رياض السالكين/ ٤٨٠، في شرح قول مولانا سيّد الساجدين عليه السلام: وصوّرت ما صوّرت من غير مثال، بعد نقل كلام الراغب: فالمراد بقوله عليه السلام: وصوّرت ما صوّرت، ما يشمل أنواع الصّور؛ نوعيّة كانت أو جسميّة أو شخصيّة، وعنصريّة كانت أو فلكيّة.

أقول: لاريب في أنّ الصورة النوعيّة ليست من مصاديق المعنى اللّغوي للصّورة، وإنّما هو اصطلاح خاصّ في مقام التعبير عن حقيقة الشيء؛ وهو من المعاني المستحدثة بين المسلمين، فلايجوز تفسير الآيات القرآنيّة بالمعاني الاصطلاحيّة المستحدثة بعد قرون من نزول القرآن الكريم.

في الكافي ١٣/٦، عن محمّد بن يحيىٰ مسنداً عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

إنّ الله عزّ وجلّ إذا أراد أن يخلق النطفة الّتي ممّا أخذ عليها الميثاق في صلب آدم أو ما يبدو له فيه ويجعلها في الرّحم، حرّك الرّجل للجماع،

وأوحىٰ إلى الرحم أن افتحي بابك حتّى يلج فيك خـلقي وقـضائي النافذ وقدري، فتفتح الرحم بابها، فتصل النطفة إلى الرحم، فتردّد فيه أربعين يوماً، ثمّ تصير علقة أربعين يوماً، ثمّ تصير مضغة أربعين يوماً، ثمّ تصير لحماً تجري فيه عروق مشتبكة.

ثمّ يبعث الله ملكين خلّاقين يخلقان في الأرحام ما يشاء الله، فيقتحمان في بطن المرأة من فم المرأة فيصلان إلى الرحم، وفيها الرّوح القـديمة المنقولة في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فينفخان فيها روح الحياة والبقاء ويشتقّان له السمع والبصر وجميع الجـوارح، وجمـيع مـا في البطن بإذن الله تعالى.

ثمّ يوحي الله إلى الملكين: اكتبا عليه قضائي وقدري ونافذ أمـري، واشترطا لي البداء فيما تكتبانه، فيقولان: ياربّ ما نكتب؟ فيوحي الله إليهما أن ارفعا رؤوسكما إلىٰ رأس أمّه، فيرفعان رؤوسهما. فإذا اللّوح يقرع جبهة أمّه فينظران فيه، فيجدان في اللّوح صورته وزينته وأجله وميثاقه شقيّاً أو سعيداً وجميع شأنه.

قال: فيملي أحدهما عـلىٰ صـاحبه فـيكتبان جمـيع مـا في اللّـوح. ويشترطان البداء فيما يكتبان، ثمّ يختمان الكتاب ويجعلانه بين عينيه، ثمّ يقيمانه قائماً في بطن أمّه.

قال: فربّما عتىٰ فانقلب. ولا يكون ذلك إلّا في كلّ عاتٍ أو مـاردٍ، فإذا بلغ أوان خروج الولد تامّاً أو غير تامّ، أَوحى الله إلى الرحم أن افتحي بابَك حتّىٰ يخرج خلقي إلىٰ أرضي وينفذ فيه أمري، فقد بلغ أوان خروجه.

قال: فيفتح الرحم باب الولد، فيبعث الله إليه ملكاً يقال له زاجـر، فيزجره زجرة، فيفزع منهـا الولد فينقلب فيصير رجلاه فوق البطن ورأسه في أسفل البطن؛ ليسهّل الله على المرأة وعلى الولد الخروج.

قال: فإذا احتبس زجره الملك زجرة أخرىٰ، فيفزع مـنها فـيسقط

الولد إلىٰ الأرض باكياً فزعاً من الزجرة.

قوله عليه السلام: إنّ الله عزّ وجلّ إذا أراد أن يخلق النطفة الّتي ممّا أخذ عليها الميثاق.

هذا نصّ في أنّ النطفة قد أُخذ عليها الميثاق وفيه إبطال لما يمكن أن يقال: إنّ النطفة مبدأ الإنسان بالقوّة، فلا يعقل أخذ العهد والميثاق من الشيء الذي لا شعور فيه ولا إدراك.

وقوله عليه السلام: وفيها الروح القديمة، الظاهر أنّ الضمير راجع إلىٰ الرحم. وهذه الروح القديمة فاقدة لروح الحياة والبقاء، وفاقدة لحسّ الشعور والإدراك، وبعد مضيّ أربعة أشهر تكون واجدة لروح الحياة والشعور. وليس هذا الشعور هو الصورة المقدّرة، بل هو خارج عن حقيقة الإنسان يجده تارة ويفقده أخرىٰ إلىٰ أن يصير إلىٰ أرذل العمر ولا يعلم بعد علم شيئاً، وقد تبيّن ممّا ذكرنا أنّ الصورة في الآية الكريمة هي الصورة العادية والتمثال لا الصورة النوعيّة. وليس المراد من الآية تقدير الصورة وكونها حتميةً طبق نظام العلّة والمعلول.

قوله تعالىٰ: «لا إله إلّا هو العزيز الحكيم». (٦)

فالله سبحانه متوحّد في فعاله وذو عزّة وحكمة في جميع ما صنعه، أي لا يمتنع عليه صنع ما أراد صنعه، وليس في فعاله فائتة وضائعة فإنّه حكيم لايفعل العبث واللّغو.

هُوَ

ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ

إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

قوله تعالىٰ: «هو الّذي أنزل عليك الكتابَ منه آيات محكمات ...».

الآية الكريمة صريحة في انقسام الكتاب إلى المحكم والمتشابه، وفيها تصريح أيضاً بأنّ الآخذين بالكتاب والمتمسّكين بـه ـ بـلحاظ الاعـتقاد والعـمل بـه ـ قسمان‌أهل زيغ وأهواء وانحراف. والراسخون في العلم، المستضيؤن بنور العقل.

أمّا الزائغون فيبغون سبيل الحقّ وصراط الصدق عوجاً، فيتّبعون ما تشابه من الكتاب طلباً للفتنة، ولهم بغية أخرىٰ أسوء عاقبة وأشدّ ضرراً عـلى الدّيـن وأهله؛ وهو التعرّض لتأويل الكتاب محكمه وظاهره ومتشابهه، يـؤوّلونه حسب ميولهم وطبق آرائهم، يحرّفون الكلم عن مواضعه، ويغيّرونها عن مجاري الإفادة والاستفادة، ويغيّرون أيضاً مناهج الإفهام بالمغالطات كي تنطبق علىٰ ما أخـذوه من المتشابهات، فيقيمون بذلك عماد ضلالهم وكفرهم.

وأمّا الراسخون في العلم فيعرفون أنّ القول بغير علم جناية بالضرورة، وأنّ تحريف الكلم عن مواضعه كفر بآيات الله ـ سبحانه ـ بالبداهة، فسبيلهم السكوت عمّا لايعلمون من المتشابه، والقيام بما عرفوا وعلموا من الدّين، والإيمان بما علموا وبما لايعلمون.

والظاهر أنّ الآية الكريمة ليست في مقام إثبات علم التأويل لله فـقط، بأن يختصّ الله ـ تعالىٰ ـ بعلم التأويل من دون إفاضته علىٰ أحد من عباده من الرسل المكرّمين والملائكة المقرّبين، مثل اختصاصه ـ تعالىٰ ـ بعلم الساعة واستئثاره به. بل الظاهر أنّ الآية الكريمة في مقام بيان: أنّ العلم بتأويل الكتاب خارج عن حدود التعاليم العادية لكلّ أحد. وليس كلّ الناس محجوجين ومسؤولين في مقابل التأويل

ومكلّفين به.

وواضح أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله هو الّذي أخذ علم التأويل من الله سبحانه وبعده أئمّة أهل البيت عليهم السلام، الّذين هم ورثة علمه صلّى الله عليه وآله. ولا يهمّنا البحث عن أنّ علم الرسول صلّى الله عليه وآله بالتأويل، هل كان من مجرىٰ هذه الكلمات والحروف، أو من طريق آخر غير الألفاظ والحروف؟ وأمّا غيره صلّى الله عليه وآله فلا سند لهم إلىٰ ذلك التأويل غير الألفاظ والحروف، أو التعلّم من رسول الله صلّى الله عليه وآله. وحيث إنّ علم التأويل خارج عن حدود التعاليم العادية فتعيّن أنّ طريق غير رسول الله صلّى الله عليه وآله إلىٰ تأويل الكتاب ليس إلّا الأخذ عنه صلّى الله عليه وآله.

وقد فصّلنا البحث في ذلك، وفي معنىٰ المحكم والمتشابه والتأويل والتفسير في البحث عن مقدمات التفسير في الجزء الأوّل.

قوله تعالىٰ: «و ما يذّكّر إلّا أولوا الألباب».(٧٠)

التذكّر هو العلم الصريح بالواقع، أعمّ من أن يكون بعد الغفلة والنسيان أو وجود العلم ابتداءً. ومورد التذكّر إنّما هو في العلوم الضروريّة والمستقلّات العقليّة البديهيّة. والغرض من الآية والمعلوم من سياقها أنّ قول الراسخين: آمنّا بالكتاب كلّه ولا نفرّق بين آية وآية، ومقصد ومقصد، هو الواجب المبرم والفريضة الثابتة بذاتها، المعلوم وجوبه بالعيان. وقد غفل عنه المبطلون والمترفون والجاهلون بشؤون الله ـ سبحانه ـ وشؤون حرماته، وإنّما يتذكّر ويعرف أولو الألباب، وليس هذا التذكّر انتقالاً من الدّليل إلىٰ النتيجة كما توهّم.

قوله تعالىٰ: «ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة».

قد ذكرنا سابقاً أنّ إيمان الراسخين إنّما هو إيمان عن بيّنة وبصيرة بما آمنوا وأذعنوا له من الحقيقة، وليس إيمانهم هذا إيماناً جامداً أي إيماناً بالواقع علىٰ ما هو عليه مع جهلهم بالواقع. فإفاضة الرحمة والهداية فضل من الله سبحانه. وقبضه تعالىٰ بعد بسطه عدل منه جلّ ثناؤه فلا إيجاب في فعله، ولا أمان من عدله إلّا بأمانه تعالىٰ. فلا يزالون يدعونه ـ تعالىٰ ـ ويتضرّعون إليه ـ سبحانه ـ خوفاً

وطمعاً ورغبة ورهبة، فهم يستجيرون به ـ تعالىٰ ـ من الإزاغة وسلب الهداية ويسألونه مزيد رحمة من رحماته.

والظاهر أنّ طلب الرحمة من لدنه ـ تعالىٰ ـ فيه إشارة إلىٰ أنّ الله ـ تعالىٰ ـ مالك لها وليست هي إلّا في قبضته وملكه وسلطانه. وهؤلاء الأفاضل الراسخون في الإيمان مع أنّهم عرفوا الله ـ تعالىٰ ـ واهتدوا بهدايته ونوره لا يزال الخوفُ يلازمهم؛ لأنهم كلما ازدادوا ايماناً بالله ومعرفة بآياته ازدادوا خوفاً وخشيةً منه. وهم في عين وجودهم لنعمة الهداية يرون أنّ الملك لله، أي أنّ الله ـ تعالىٰ ـ مالك الهداية بالحقيقة، فلا يملكون إلّا بتمليكه وعطائه. وكذلك لا ينقطع رجاؤهم وطمعهم عن مواهبه وكراماته، بخلاف مَن لم يعرف الله ـ سبحانه ـ فإنّه لا يخاف الله ولا يعتني بقبضه وبسطه، ومنعه وعطائه، ولم يعقد إيمانه علىٰ حقيقة ثابتة، ولم يتلجئ إلىٰ ركن وثيق.

قوله تعالىٰ: «إنّك أنت الوهاب». (٨)

تمجيد لله ـ سبحانه ـ قضاءً لغرض الضرورة، فإنّ مَن دخل حريم الأنس وجلس مجلس القرب لابدّ له بالضرورة العقليّة من مراعاة أدب الحضور وتمجيده تعالى وتكبيره بنعوت مجده وصفات قدسه. فهو سبحانه جواد إن أعطى وإن منع، ووهّاب إن بسط وإن قبض.

في الكافي ١٨/١، عن أبي عبدالله الأشعري، عن بعض أصحابنا، رفعه عن هشام بن الحكم عن أبي الحسن موسىٰ بن جعفر عليه السلام قال:

> يا هشام إنّ الله حكىٰ عن قوم صالحين أنّهم قالوا: **«ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب»** حين علموا أنّ القلوب تزيغ وتعود إلىٰ عماها ورداها.
>
> إنّه لم يخفِ اللهَ مَن لم يعقل عن الله، ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه علىٰ معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه، ولا يكون أحد كذلك إلّا مَن كان فعلهُ لقوله مصدّقاً، وسرّه لعلانيّته موافقاً، لأنّ الله ـ تبارك اسمه ـ لم يدلّ على الباطن الخفيّ من العقل إلّا بظاهر منه

وناطق عنه.

وفي تفسير العيّاشي ١٦٤/١، عن سماعة بن مهران قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

أكثروا من أن تقولوا: «ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا» ولا تأمنوا الزيغ.

قوله تعالىٰ: «ربّنا إنّك جامع الناس ليوم لا ريب فيه».

الآية الكريمة مسوقة باعترافهم وإقرارهم بأنّ الله ـ سبحانه ـ يجمع الخلائق كلّها في يوم لا ريب فيه؛ وهذا من الحقائق الأصيلة الّتي جاء بها القرآن الكريم وأصرّ علىٰ الإيمان به وتصديقه، فيجب علىٰ كلّ موحّد الإقرار بمفاد هذه الآية الكريمة.

قوله تعالىٰ: «إنّ الله لا يخلف الميعاد». (٩)

تصريح واعتراف بأنّه تعالىٰ صادق الوعد والقول ولا يخلف الميعاد البتّة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى

ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾

قوله تعالىٰ: «إنّ الّذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً».

تذكرة وإرشاد أنّ الأموال والأولاد ليست ممّا يدافع ويحترز بها عن سطواته تعالىٰ وأخذه أخذ عزيز مقتدر، بل يجب علىٰ كلّ مَن عرف اللهَ أن يعدّ نفسه للعمل الصالح ولتقوىٰ ربّه ـ جلّ ثناؤه ـ ولكنّ الكافرين ليسوا أهلاً للعمل الصالح

والتقوىٰ. وليس لهم إلّا أموالهم وأولادهم؛ وهما لا ينجيانهم من عذاب الله ـ سبحانه ـ في الآخرة.

قوله تعالىٰ: «وأولئك هم وقود النار». (١٠)

تهديد وتوبيخ بأنّ موقع هذه الفرقة الكافرة والنحلة الفاجرة أنّها وقود النار. وقد تقدّم تفسير الوقود في قوله تعالىٰ: **«فاتّقوا النارَ الّتي وَقودها النـاسُ والحجارة»**. [البقرة (٢)/٢٤]

قوله تعالىٰ: «كدأب آل فرعون والّذين من قبلهم كذّبوا بآياتنا».

الكاف للتشبيه. والمشبّه هم الّذين كفروا. والمشبّه به هم فرعون وآله والفراعنة والجبابرة الّتي كانت قبلهم. ووجه الشبه إنكار الله ـ سبحانه ـ وإنكار توحيده ودعوى الاستقلال لأنفسهم.

قوله تعالىٰ: «فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب». (١١)

أي أخذ الله ـ تعالىٰ ـ الّذين كذّبوا بآياته، بذنوبهم وعصيانهم وإنكارهم، بعقابه الشديد.

قوله تعالىٰ: «قل للّذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلىٰ جهنم وبئس المهاد». (١٢)

أمر الله ـ تعالىٰ حبيبه وصفيّه أن يقول لأعدائه: إنّكم ستُغلَبون بسيوف رجال الإسلام وتهلكون، وتصيرون إلىٰ جهنّم الّتي هي شرّ مكاناً وأسوأ مقرّاً.

قوله تعالىٰ: «قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة».

أي وقد كان لكم آية وعبرة في الفريقين الّذين التقيا في الحرب: فريق يقاتل في سبيل الله وطاعته وهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وجمع من المؤمنين، وأخرىٰ كافرة وهم جمعٌ من جبابرة قريش وفيهم أبو سفيان، يحاولون قتل الرسول صلّى الله عليه وآله وإبطال الدّين، وإنكار ما جاء به الأنبياء العظام والرسل الكرام من الأحكام والمعارف الإلٰهيّة.

قوله تعالىٰ: «يرونهم مثلَيهم رأي العين».

الظاهر أنّ معناه: أنّ الكفّار يرون المسلمين مثلَي عدد المشركين برؤية ظاهرة. وبذلك يظهر الضَّعف فيهم. وهذا هو المتناسب بظاهر الآية.

قال في الصافي /٨٥: «يرونهم مثليهم» يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين.

قوله تعالىٰ: «والله يؤيّد بنصره من يشاء».

فمعنىٰ هذا أن النصر لا يكون إلّا من عند الله، فقد وعد ـ تعالىٰ ـ أن ينصر مَن أطاعه بإطاعة أوليائه وأنبيائه وأوصيائهم. قال تعالىٰ:

«**وما النّصر إلّا من عند الله العزيز الحكيم**». [آل عمران (٣)/١٢٦]

و«**يا أيّها الّذينَ آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثّبت أقدامكم**». [محمد (٤٧)/٧]

قوله تعالىٰ: «إنّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار». (١٣)

حيث إنّ المسلمين كانوا فاقدين للعدد والعُدّة في مقابل الكفار، ومع ذلك كلّه غلبوا كفار قريش بنصر الله ـ تعالىٰ ـ وتأئيده إيّاهم، فذلك عبرة لأولي الأبصار.

قوله تعالىٰ: «زُيّن للنّاس حبّ الشّهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث».

الظاهر أنّ الآية الكريمة سيقت لتحذير الناس وتنفيرهم عن الافتتان بالدّنيا وزخارفها، وفيها تصريح بأنّ ماعند الله أحسن عاقبة ومآباً، فهذا تذكرة ونصيحة لمن أحبّ الدنيا وزخارفها، واشتغل بها، وجعلها تمام همّه وبغية نفسه، وقرّة عينه، واستهان بما أعدّه الله لعباده المتّقين. فعلى هذا ليس الفاعل للتزيين هو الله ـ تعالىٰ ـ بل هو ـ سبحانه ـ يحذّر الناس من الافتتان بها والرّكون إليها، وأنّها رأس كلّ خطيئة وعماد كلّ فتنة وضلالة. قال تعالىٰ:

«**واْعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة وأنَّ الله عنده أجر عظيم**».
[الأنفال /(٨)/٢٨]

ولا يخفى أنّ مَن قال: بأنّ الآية سيقت لتنفير الناس عن حبّ المذكورات، فلا محالة يكون فاعل التزيين عنده غير الله ـ سبحانه ـ من النفس وأمنيّاته الباطلة،

والشيطان وعمّاله.

قال الرازي في تفسير ١٩٤/٧: أمّا المعتزلة فالقاضي نقل عنهم ثلاثة أقوال: ... والقول الثالث، وهو اختيار أبي علي الجبائي والقاضي؛ وهو التفصيل. وذلك أنّ كلّ ما كان من هذا الباب واجباً أو مندوباً كان التزيين فيه من الله تعالىٰ، وكلّ ما كان حراماً كان التزيين فيه من الشيطان.

أقول: الكلام ليس في بيان الحكم الشرعيّ بعنوانه الأوليّ وتحريم النساء والأولاد، ومحبّتها ووجوبها، إنّما الغرض جعلها غايةً دون الآخرة. كما هو كذلك عند أبناء الدّنيا، بل اتّخذوا الدّنيا ندّاً لله سبحانه. وأين هذا من تحلّل النساء وغيرها من ملاذ الدّنيا ونعيمها؟ فإنّها خلقت لعباده الصالحين وخالصة لهم في الآخرة.

قال في المنار ٢٣٩/٣: أقول: وغفل الجميع عن كون الكلام أنّ الله ـ تعالىٰ ـ أنشأ الناس علىٰ هذا وفطرهم عليه. ومثل هذا لايجوز إسناده إلىٰ الشيطان بحال. وإنّما يسند إليه ما قد يعدّ هو من أسبابه كالوسوسة، الّتي تزيّن للإنسان عملاً قبيحاً، ولذلك لم يسند إليه القرآن إلّا تزيين الأعمال... وأمّا الحقائق وطبائع الأشياء فلا تسند إلّا إلىٰ الخالق الحكيم الّذي لا شريك له.

وقال في ص ٢٤٦: فقد علم ممّا شرحته أنّ الكلام في هذه الشهوات بيان لما فطر عليه الناس من حبّها وزيّنه في نفوسهم، وتمهيد لتذكيرهم بما هو خير منها، لا لبيان قبحها، بل خلقهم في أحسن تقويم، ولا جعل دينه مخالفاً لفطرته بل موافقاً لها.

أقول: لم يتفطّن أنّ الآية ليست لبيان فوائد خلق الله التكوينيّة، بل الآية كما ذكرناه في مقام التشويق إلىٰ الآخرة ونعيمها والدّعوة إلىٰ الله والتذكرة إلىٰ كراماته الّتي أعدّها لأحبّائه، وتنفير أبناء الدّنيا وعبدتها وتحذيرهم من أنّ ما أحبّوه كسراب بقيعة وأنّه كبيت العنكبوت. قال تعالىٰ:

«فأَعرض عن من تولّىٰ عن ذكرِنا ولم يُرِدِ إلّا الحيوٰةَ الدّنيا». [النجم (٥٣)/٢٩]

قال في الميزان ١٠٤/٣: وقد ذهلوا عن أنّ هذا العالَم بما يشتمل عليه من

أعيان الموجودات وأنواع المخلوقات مرتبط الأجزاء. متلائم الأبعاض، وقد تتبدّل أجزاؤه من جزء إلىٰ جزء، ويتحوّل بعضه إلىٰ بعض، فيوماً إنسان ويوماً نبات ويوماً جماد... وكذلك الحوادث الجارية مرتبطة ارتباط حلقات السلسلة، أيّ وضع فرض لواحدة منها مؤثّر في أوضاع ما يقارنها، وما يتقدّمها إلىٰ أقدم العهود المفروضة للعالم الطبيعيّ كالسلسلة، الّتي تنجرّ بجرّ الحلقة منها جميع الحلقات وهو السلسلة فأدنى تغيّر مفروض في ذرّة من ذرّات هذا العالم يوجب تغيّر الحال في الجميع... وكذلك أوصاف الأفعال وعناوين الأعمال مرتبطة الأطراف كارتباط الأمور المتقابلة المتعاندة، فلولا أحد المتعاندين لم يستقم أمر الآخر... ولو لم يتحقّق أحد الطرفين من أوصاف الأعمال لم يستقم أمر الآخر في آثاره المطلوبة منه في الاجتماع الإنسانيّ الطبيعيّ، ولا في الاجتماع الإلهيّ الّذي هو الدين الحقّ، فإنّ الإطاعةَ مثلاً حسنةٌ لأنّ المعصية سيّئة، والحسنة موجبة للثواب لأنّ السيّئة موجبة للعقاب... فقد تبيّن ممّا ذكرناه أنّ الواجب في الحكمة أن يشتمل هذا العالم الفساد كما يشتمل علىٰ الصلاح، وعلى المعصية كما يشتمل علىٰ الطاعة علىٰ ما قدّره الله في نظام صنعه وخلقه....

أقول: فيه أوّلاً: أنّه يلزم ممّا ذكره من حاكميّة النّظام العلّي والمعلولي وجوب صدور الفعل عن الفاعل إذا تمّت فاعليّته. وحيث إنّ الله ـ تعالىٰ ـ تامّ لا نقص فيه من جهة من الجهات فيجب صدور الفعل عنه وهذا الوجوب ينافي كونه مختاراً في أفعاله. وكذلك الأمر في الإنسان المختار إذا تمّت مقدّمات الفعل يجب صدوره عنه علىٰ رغم أنفه، وواضح أنّ وجوب الفعل ينافي اختياره.

فإن قيل: إنّ من أجزاء العلّة التامّة في الأفعال الإرادة.

قلت: إنّ الإرادة أيضاً فعل من الأفعال، داخل تحت نظام العلّة والمعلول. والأسباب حاكمة عليها، فيلزم كون الفعل صادراً عن الفاعل المختار إيجاباً عليه، إلّا أن تقول: بأن الإرادة ليست معلولة لعلّة، فينتقض قانون العلّية والمعلوليّة.

وثانياً: ما ذكره من كون أدنى تغيّر في ذرّة من ذرّات هذا العالم موجباً لتغيّر الحال في الجميع، ينافي مالكيّته وقدرته سبحانه. قال تعالىٰ:

«يا أيّها الناس أنتم الفقراء إلىٰ الله والله هو الغنيّ الحميد * إن يشأ

يذهبكم ويأت بخلقٍ جديدٍ * وما ذلك على الله بعزيز». [فاطر (٣٥)/١٥ ـ ١٧]

و«لله ما في السمٰوات وما في الأرض ولقد وصّينا الّذين أُوتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم أن اتّقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السمٰوات وما في الأرض وكان الله غنيّاً حميداً * ولله ما في السمٰوات وما في الأرض وكفىٰ بالله وكيلاً * إن يشأ يذهبكم أيّها النّاس ويأت بآخرين وكان الله علىٰ ذلك قديراً». [النساء (٤)/١٣١ـ ١٣٣]

فالآيات الكريمة تدلّ علىٰ أنّ الله غنيّ عنكم، فلا إيجاب عليه بوجه في ابتداء إيجادكم، ولا في إدامته، فيحمد ـ تعالىٰ ـ علىٰ فضله عليكم في إيجادكم ابتداءً، ويحمد أيضاً لو ذهب بكم بعدله وأتىٰ بخلق جديد، ولا يعجزه تعالىٰ ذلك ولا يمتنع عليه، فمفاد الآية الكريمة عدم إيجاب الخلق عليه تعالى ابتداءً وإدامةً مع فعليّة قدرته على الإيجاد والإبقاء، وتفيد أيضاً عدم تحديد علمه وقدرته بالخلق الموجود والنظام الأصلح. قال تعالىٰ:

«فلا أُقسم بربّ المشارق والمغارب إنّا لقادرون * علىٰ أن نبدّل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين». [المعارج (٧٠)/٤٠ و ٤١]

فتبديل قوم مكان قوم آخرين علىٰ مذهب أرباب الشرائع من الشؤون الجديدة الّتي يبتدئ بها، فإنّه ـ تعالىٰ ـ كلّ يوم هو في شأن حادث بالحقيقة، يضع المستكبرين ويرفع المستضعفين ويهلك ملوكاً ويستخلف آخرين، ولا فرق في ذلك بين أجزاء النظام قليلها وكثيرها، فقد خلق السماوات والأرض بالحقّ لغرض وغاية أرادها، فلو بدّل شيئاً من أجزائها وأشخاصها، فهو أيضاً لغرض وغاية حكيمة أرادها منزّهاً ومقدّساً عن الباطل واللّغو والعبث.

وثالثاً: أنّ العقل يعرف حسن الإطاعة ووجوبها بالاستقلال سواء أكانت في العالم معصية أم لا، وكذلك في قبح المعصية، لا يحتاج في شيء منهما إلى الآخر.

والقنطار: معيار. قيل: وزن أربعين أوقية من ذهب وقيل: هي جملة كثيرة مجهولة من المال. والمُقَنْطَرة: مُفَنْعَلَة من لفظه أي متمّمة، كما قالوا: ألف مؤلّفة

متمّمة. قاله في لسان العرب ١١٨/٥.

وفيه أيضاً ٣١٢/١٢: «والخيل المسوَّمة» قال أبو زيد: الخيل المسوّمة المرسلة وعليها ركبانها... وقيل: الخيل المسوّمة هي الّتي عليها السِّيما والسُّومة؛ وهي العلامة... والخيل المسوَّمة: المرعيّة، والمسوّمة: المعلّمة.

قوله تعالىٰ: «ذلك متاع الحيوٰة الدّنيا».

هذه الأمور الّتي ذكرت في الآية متاع الحياة الدّنيا الّتي هي ينبوع كلّ شرّ وفساد، وبها يختلّ صلاح المجتمع ونظامه، وبها ينهدم أساس الأديان والتوحيد، وهي من الأمراض الأصيلة في كلّ مجتمع صالح، وفي كلّ نحلة وملّة. وهذا كلّه إنّما هو بالافتتان بها والانكباب عليها، وأمّا مَن لم يرد من الدّنيا إلّا الآخرة، وكان همّه وسعيه فيها هو الفوز والفلاح في الآخرة فقد فاز في دنياه وآخرته.

قوله تعالىٰ: «والله عنده حسن المآب». (١٤)

ترغيب وتشويق للصّالحين بما أعدّه الله لهم من مواهبه وكراماته. وأحسن من جميع ذلك رضوانه ـ سبحانه ـ الأكبر. فلا ينبغي للمؤمنين أن يتّخذوا متاع الحياة الدنيا عن الله ـ سبحانه ـ وكراماته بدلاً.

قوله تعالىٰ: «قل أؤُنبّئكم بخير من ذلكم».

أمر الله ـ تعالىٰ ـ رسوله أن يقول للمؤمنين: أأخبركم بخير ممّا كان عليه عبدة الدّنيا المستغرقون في زينتها وشهواتها وأمنيّاتها.

قوله تعالىٰ: «للّذين اتّقوا عند ربّهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها».

فإنّ الله ـ تعالىٰ ـ هيّأ للمؤمنين ـ الّذين اتّقوا مقام ربّهم حقّ تقاته ـ جنّات تجري من تحتها الأنهار مطمئنّين خالدين ودائمين فيها.

قوله تعالىٰ: «وأزواج مطهّرة».

أي أزواج مطهّرة من كلّ دنس وآفة في نفسها ودينها وفي جميع شؤونها.

قوله تعالىٰ: «ورضوان من الله».

إي رضاؤه ـ تعالىٰ ـ عنهم وإكرامهم في دار خلده. وهذا غاية آمال المتّقين

وقرّه عين الموحدين.

قوله تعالىٰ: «والله بصير بالعباد». (١٥)

أي أنّ الله ـ سبحانه ـ بصير بعباده المتّقين ومدارجهم ومقاماتهم.

قوله تعالىٰ: «الّذين يقولون ربّنا إنّنا آمنّا فاغفرلنا ذنوبنا وقنا عذاب النار». (١٦)

أخبر الله ـ سبحانه ـ عن جمع من عباده المتّقين، أنّهم يقولون في مختلف حالاتهم وأوقاتهم: ربّنا إنّنا آمنّا. ويجدّدون الإيمان في آناء اللّيل والنهار كي يتوصّلوا بالإقرار والإيمان إلىٰ غفران الله تعالىٰ قصورهم في طاعاتهم وعباداتهم له، ويستعيذون ويسألونه تعالىٰ أن يقيهم من عذاب النار، والحرمان عمّا وعد للمؤمنين والمتّقين.

قوله تعالى: «الصابرين».

الصبر من الصفات الكريمة الفاضلة. وقد مدح الله ـ سبحانه ـ في آيات كثيرة الصابرين. قال تعالىٰ في ذكر صفات المؤمنين وكرائم أخلاقهم:

«والصّابرين في البأساء والضّراء وحين البأس أُولئك الّذين صدَقوا وأولئك هم المتّقون». [البقرة (٢)/١٧٧]

و**«والّذين صبروا ابتغاءَ وجه ربّهم وأقاموا الصّلوٰة وأنفقوا ممّا رزقناهم سرًّا وعلانيةً ويدرؤون بالحسنة السيّئة أُولئك لهم عُقبى الدار».** [الرعد (١٣)/٢٢]

قوله تعالىٰ: «والصادقين».

الصادقون هم الّذين يوافق قولهم عملهم ونيّاتهم الحقّ المبين.

قوله تعالىٰ: «والقانتين».

القنوت هو الخشوع والإقرار بالربوبيّة.

قوله تعالىٰ: «والمنفقين».

أي الباذلون مما يملكونه في سبيل الحقّ من المال والجاه، الّذي يشفعون به عند الناس في إنجاح حوائج المؤمنين، ويقبل الناس منهم لاطمئنانهم بأقوالهم.

قوله تعالىٰ: «والمستغفرين بالأسحار». (١٧)

قد تنحَّوا عن فراشهم وقاموا علىٰ أقدامهم يتوجّهون إلى الله راغبين وراهبين، يتضرّعون إلىٰ ربّهم في فكاك رقابهم وإنجاح حوائجهم.

في تفسير العيّاشي ١٦٥/١، عن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: قوله الله تبارك وتعالى «والمستغفرين بالأسحار». قال:

استغفر رسول الله صلّى الله عليه وآله في وتره سبعين مرّة.

قوله تعالىٰ: «شهد الله أنّه لا إلٰه إلّا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط».

المراد من الشهادة هو العلم والعرفان الواقعيّ، أو أداء ما يعلم من الحقّ عند الاحتياج إليه. والظاهر أنّ المراد في الآية الكريمة هو الأوّل، فهو ـ سبحانه ـ يشهد عن علم ومعرفة علىٰ ألوهيّته ووحدانيّته. ويشهد أيضاً الملائكة علىٰ معرفتهووحدانيّته. وكذلك يشهد العالمون بالحقائق والمعارف علىٰ أنّه لا إله إلّا هو. وهذا عين القيام بالقسط والعدل والحقّ.

في تفسير العيّاشي ١٦٥/١، عن جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية: «شهد الله أنّه لا إله إلّا هو ...». قال أبو جعفر:

شهد الله أنّه لا إله إلّا هو فإنّ الله ـتبارك وتعالىٰ ـ يشهد بها لنفسه وهو كما قال. فأمّا قوله: «والملائكة» فإنّه أكرم الملائكة بالتسليم لربّهم وصدقوا وشهدوا كما شهد لنفسه. وأمّا قوله: «وأولوا العلم قائماً بالقسط» فإنّ أولي العلم الأنبياء والأوصياء وهم قيام بالقسط؛ والقسط هو العدل في الظاهر، والعدل في الباطن أمير المؤمنين عليه السلام.

قوله تعالىٰ: «لا إله إلا هو العزيز الحكيم». (١٨)

وصف ـتعالىٰ ـ نفسه القدّوس أنّه ـ سبحانه ـ ما يفعل من تنظيم الشرائع الحقّة، والقوانين العادلة إلّا عن عزّة واختيار من غير إجبار عليه، وحكمة كاملة من دون عبث ولغو.

إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ
ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ
بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ
وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ
ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا
عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ
ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ
فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾
أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ
ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ
فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ

لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالىٰ: «إنّ الدّين عند الله الإسلام».

قال في لسان العرب ١٦٩/١٣: والدّين: الطاعة. وقد دنته ودنت له أي أطعته... والدّين لله من هذا إنّما هو طاعته والتعبّد له. ودانه ديناً أي أذلّه واستعبده.

أقول: من مصاديق الدّين الإقرار والانقياد لعدّة من الحقائق المعلومة بالفطرة والعقل. ومن مصاديقه عدّة من الحقائق التعبّديّة المتأخّرة رتبة عن الحقائق الفطريّة والعقليّة. وهذه الحقائق الثابتة الّتي كشف عنها العقل والفطرة عبارة عن معرفته ـ تعالىٰ ـ وتوحيد ـ جلّ ثناؤه ـ والإيمان والإذعان له ـ تعالىٰ ـ ولنعوته وما يرجع إلىٰ شؤون أُلوهيّته الثابتة بالذات. ومن مصاديقه معرفة الرسول بالرسالة، ومعرفة الإمام بالإمامة، ومعرفة الكتب الإلهيّة والصحف السماويّة. ومن مصاديقه المحسّنات والمقبّحات المعلومة بالعقل مثل وجوب الإيمان بلا جعل، وحرمة الإنكار بلا جعل، وتقديسه تعالىٰ وتنزيهه عن النقائص والمعايب طبق ما عرف وعلم بلا جعل، وهكذا احترام العلم والتسليم لما علم بالضرورة مثل حرمة الظلم وغصب الحقوق، وقبح الفساد، وقبح حبّ الجهل والدفاع عنه والجهاد مع العلم، والعداوة له. وهكذا إلىٰ آخر أبواب الطاعة والمعصية. وقد عبّر عنها في لسان الفقهاء بالمستقلات العقليّة الّتي تنتهي إليها الأحكام المجعولة الشرعيّة..

وهذا هو الدّين الّذي ارتضاه الله تعالىٰ لأنبيائه ورسله وسمّاه الإسلام. والعناية الملحوظة في هذه التسمية هو ما يترتّب علىٰ هذه المذكورات من التسليم والانقياد. وهذا هو الدّين القيّم، ولكنّ النّاس يزعمون أنّ الدّين عبارة عن التكاليف الّتي وضعت لتحصين الناس في نظام المجتمع، أو لفوائد في نفوس الأفراد يمكن تحوّلها وتبدّلها حسب تحوّل الزمان وأهله. وقد تكون الأمم مستغنيةً عن هذا التحصين والتربية؛ لرقيّها في الحضارات، وتنوّر أفكارها.

قوله تعالىٰ: «وما اختلف الّذين أوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جاءَهم العلم بغياً بينهم».

الدّين الإلهي مع تأسيسه على الفطرة وتحكيم دعائمه بالعقل والهدىٰ لاريب فيه، ولا مورد للاختلاف بين علمائه. ولذلك ترىٰ أنّ رجال الوحي وأئمّة التوحيد يبلّغون عن الله دينه الّذي ارتضاه لأنبيائه وملائكته، ويبشّر السابق منهم بمجيء اللّاحق ويصدّق اللّاحق دعوة السابق. والقرآن الكريم يمجّدهم، ويعظّم شأنهم، ويذكّر بمواقفهم الحميدة. ويشكر مجاهداتهم الحقّة، ويصدّق شرائعهم وعلومهم، ويصفهم بأنّهم بررة أتقياء، وأفاضل مطهّرون، ولهم عند الله مقامات، وأماكن رخيصة، ويشهد لهم أنّهم شهداء الله في أرضه، وأمناء الله في عباده وبلاده.

والآية الكريمة تصرّح بأنّ دين الأنبياء الّذي أخذوه عن الله هو الإسلام، وإنّما نشأ الاختلاف أوّل ما نشأ عند أهل الكتاب، فإنّهم قد اختلفوا وتشعّبوا شعباً، وتحزّبوا أحزاباً، فاليهود أنكروا المسيح المقدّس، والنصارىٰ أنكروا اليهود، وهم قد اختلفوا في رسول الله صلى الله عليه وآله خاتم المرسلين وإمام الأئمة المقرّبين فأنكروه. ولعلّ السرّ في بروز الاختلاف عند اليهود والنصارىٰ أنّ الأنبياء قبل موسىٰ ـعلىٰ نبيّنا وآله، وعليه السلام ـ ما جمع الله ـتعالىٰـ لهم النبوّة والسلطنة، وما مكّنوا في الأرض بما مُكِّنَ به موسىٰ عليه السلام، ولم تتحقّق بين أممهم دواعي التقدّم ونزاع الترفّع والاعتياش بالدّين والارتزاق بالمناصب الدينيّة، والجاه والترؤّس بعنوان الحبريّة والرهبانيّة، ولم يعهد التباغض والتحاسد في أهل ملّة واحدةزمان اليهود إلّا ما وقع من ابن آدم قابيل لأخيه من الحسد والقتل، وقد كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والميزان، لا يعرفون الاختلاف ولا يختلفون.

فالتزاحم والتنازع بين الّذين أوتوا الكتاب نشأ منهم بغياً بينهم وعدواناً منهم لا لأجل إحقاق الحقّ. وهكذا اختلاف أمّة الإسلام بعد نبيّهم، نشأ من الحسد والبغي والعدوان، فصار الدّين وأحكامه تتحوّل بتحوّل ملوك الإسلام والفراعنة والجبابرة الذين اتكؤوا علىٰ كرسيّ الإمارة، يميل الدّين معهم حيثما مالوا، وقد كان حولهم الأغبياء الجهلة، والأشقياء الفسقة، والعلماء الخونة يأكلون بهم الدّنيا ويقيمون لهم عماد ضلالهم، ويروّجون لهم شؤون رئاستهم فشوّهوا علوم

الدين، وصار الدّين وأهله غرباء مظلومين، ورجعت سنن كسرى وقيصر في بيت خلافة الإسلام بأشنع وجه، يرثها فاسق بعد فاسق، وكافر بعد منافق، ووقع منهم البغي الصريح واللّجاج به ضد الحقّ وأهله.

في الكافي ٣٨/٢، عن العدّة مسنداً عن عبدالله بن مسكان، عن بعض أصحابه، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: ما الإسلام؟ فقال:

دين الله اسمه الإسلام، وهو دين الله قبل أن تكونوا حيث كنتم وبعد أن تكونوا. فمن أقرّ بدين الله فهو مسلم، ومن عمل بما أمر الله عزّوجلّ به فهو مؤمن.

وفي تفسير العياشي ١٦٦/١، عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«إنّ الدّين عند الله الإسلام» قال: يعني: الدّين فيه الإيمان.

وفيه أيضاً ٣٠٨/٢، عن أبي العبّاس، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله: «سُنّةَ مَن قد أرسلنا قبلك من رسلنا». [الإسراء (١٧)/٧٧] قال:

هي سنّة محمّد ومن كان قبله من الرسل؛ وهو الإسلام.

وفي البحار ٢٨٦/٢٤، عن البصائر، عن عليّ ابن إبراهيم مسنداً عن المفضّل أنّه كتب إلىٰ أبي عبدالله عليه السلام، فجاء هذا الجواب من أبي عبدالله عليه السلام:

أمّا بعد فإنّي أوصيك ونفسي بتقوى الله وطاعته...إنّ الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ اختار الإسلام لنفسه ديناً ورضي من خلقه، فلم يقبل من أحد إلّا به، وبه بعث أنبياءه ورسله ثمّ قال: «وبالحقّ أنزلناه وبالحقّ نزل» [الإسراء (١٧)/١٠٥]

فعليه وبه بعث أنبياءه ورسله ونبيّه محمّداً صلّى الله عليه وآله، فأفضل الدّين معرفة الرسل وولايتهم...

فالدّين الّذي ارتضاه لأنبيائه ورسله وجميع عباده هو الإسلام، فحيث إنّه من الحقائق الواقعيّة فهو بحسب الواقع ثابت ومحقّق لا يحتاج وجوده إلىٰ وجود

متديّن، بل لو فرض أن هناك إنساناً أو ملكاً أو جنّاً أو ذا شعور لوجب عـليه التديّن والانقياد على اختلاف في التكاليف الشرعيّة المجـعولة. فليس بـين الدّيـن وأهله فاصلة زمان ومكان بل الفاصل هو الجهل به، وبعد ارتـفاع الجـهل يجب التديّن به، ونفس هذا الوجوب أيضاً من الدّين. فالإسلام هو الدّين المرضيّ عنده سبحانه أزلاً وأبداً، وهو وصيّة الله وعهده ـ سبحانه ـ في الأوّلين والآخرين. قال تعالى:

«ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل مـنه وهـو في الآخـرة مـن الخاسرين». [آل عمران (٣)/٨٥]

و«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضـيت لكـم الإسلام ديناً». [المائدة (٥)/٣]

و«شرع لكم من الدّين ما وصّىٰ به نوحاً والّذي أوحـينا إليك ومـا وصّينا به إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ أن أقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فـيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب». [الشورى (٤٢)/١٣]

و«لكلّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً». [المائدة (٥)/٤٨]

في الكافي ٢٨/٢، عن عليّ بن محمّد، عن بعض أصحابه مسنداً عن محمّد بن سالم، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

... إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ بعث نوحاً إلىٰ قومه «أن اَعبدوا الله واتّقوه وأطيعونِ». [نوح (٧١)/٣] ثم دعاهم إلى الله وحده وأن يـعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. ثمّ بعث الأنبياء ـ عليهم السلام ـ علىٰ ذلك، إلىٰ أن بلغوا محمّداً صلّى الله عليه وآله فدعاهم إلىٰ أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً وقال: «شرع لكم من الدّين ما وصّىٰ به نوحاً ...».

فبعث الأنبياء إلىٰ قومهم بشهادة أن لا إله إلّا الله، والإقرار بما جاء [به] من عند الله، فمن آمن مخلصاً ومات علىٰ ذلك أدخله الله الجنّة بذلك...

فلمّا استجاب لكلّ نبيّ من استجاب له من قومه من المؤمنين، جعل لكلّ نبيّ منهم شرعةً ومنهاجاً؛ والشّرعة والمنهاج سبيل وسنّة. وقال الله لمحمّد صلّى الله عليه وآله: «إنّا أوحينا إليكَ كما أَوحينانوح والنّبيّينَ من بعده». [النساء (٤)/١٦٣] وأمر كلّ نبيّ بالأخذ بالسبيل والسنّة. وكان من السنّة والسبيل الّتي أمر الله عزّ وجلّ موسىٰ عليه السلام أن جعل الله عليهم السبت...

ثمّ بعث الله عيسىٰ عليه السلام بشهادة أن لا إلٰه إلّا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وجعل لهم شرعة ومنهاجاً، فهدمت السبت الّذي أمروا به أن يعظّموه قبل ذلك، وعامّة ما كانوا عليه من السبيل والسنّة الّتي جاء بها موسىٰ، فمن لم يتّبع سبيل عيسىٰ أدخله الله النار. وإن كان الذي جاء به النبيّون جميعاً أن لا يشركوا بالله شيئاً.

ثمّ بعث الله محمّداً صلّى الله عليه وآله وهو بمكّة عشر سنين، فلم يمت بمكّة في تلك العشر سنين أحد يشهد أن لا إلٰه الله وأنّ محمّداً رسول الله إلّا أدخله الله الجنّة بإقراره، وهو إيمان التصديق، ولم يعذّب الله أحداً ممّن مات وهو متّبع لمحمّد صلّى الله عليه وآله علىٰ ذلك إلّا من أشرك بالرّحمٰن...

فلمّا أذن الله لمحمّد صلّى الله عليه وآله في الخروج من مكّة إلىٰ المدينة بني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إلٰه إلّا الله، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجّ البيت، وصيام شهر رمضان، وأنزل عليه الحدود وقسمة الفرائض، وأخبره بالمعاصي الّتي أوجب الله عليها وبها النّار لمن عمل بها...

أقول: في هذه الرواية الشريفة دلالة واضحة علىٰ أنّ المراد من الشرعة والمنهاج لكلّ نبيّ أو لكلّ أمّة هي الأحكام المجعولة الشرعيّة، الّتي أشرنا بإمكان الاختلاف فيها بين الأمم، لا الحقائق الواقعيّة والفطريّة الّتي كشف العقل عن وجوب التديّن بها والانقياد لها.

ثمّ إنّ الإسلام له آثار وأحكام من التوارث والتناكح وحقن الدّماء وغيرها من التشريف والتكريم. فلابدّ في إجراء تلك الأحكام والآثار من صدق النسبة وتحقّق التلبّس بالإسلام، فأدنىٰ مراتب التلبّس وتحقّق النسبة يكفي في ترتب هذه الآثار والأحكام. وتنقيح هذا البحث، وبيان حدود الإسلام وشرائطه من حيث ترتّب الآثار والأحكام علىٰ عهدة الفقيه، وخارج عن وظيفة التفسير.

والظاهر من روايات الباب أنّه يكفي فيه الإقرار بالشهادتين مع الالتزام والتسليم للأحكام والقوانين المقرّرة في الإسلام بحسب الظاهر، وكذلك الالتزام بما علم بالضرورة ممّا جاء به النبيّ صلّى الله عليه وآله. فهذه القاعدة تجمع المنافقين والمستضعفين والشكّاكين والضالّين، والفسّاق ومرتكبي الذّنوب ومقترفي الآثام. فمن قام بالعمل بالطاعات، والاجتناب عن الذّنوب، وخلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً فهو أفضل من الأوّل إلّا أنّه لمّا يدخل الإيمان في قلبه، فله ما للمؤمنين وعليه ما على المؤمنين، وللمؤمن فضل إيمانه.

فمن عرف ما آمن به وقرّ في قلبه، وقام بالإقرار عن علم وعرفان بما أذعن له وأسلم عليه، واتّقىٰ من كبار المعاصي، وأتىٰ بالفرائض، ولم يصرّ علىٰ الصغائر، فهو المؤمن، وفي أوّل درجة من درجات الإيمان، فإذا ارتكب كبيرة من كبار المعاصي سلب منه روح الإيمان، فيسقط من الإيمان ويخرج منه إلىٰ الإسلام.

وأمّا آثار الإسلام وأحكامه من ثبوت التوارث وغيره من الأحكام فتدلّ عليه روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام.

في الكافي ٢٤/٢، عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن القاسم الصيرفي شريك المفضّل قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول:

الإسلام يحقن به الدّم، تودّىٰ به الأمانة، وتستحلّ به الفروج؛ والثواب علىٰ الإيمان.

وفيه أيضاً/٢٥، عن محمّد بن يحيى مسنداً عن سماعة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أخبرني عن الإسلام والإيمان أهما مختلفان؟ فقال:

إنّ الإيمان يشارك الإسلام، والإسلام لا يشارك الإيمان.

فقلت: فصفهما لي. فقال: الإسلام شهادة أن لا إله إلّا الله، والتصديق برسول الله صلّى الله عليه وآله. به حقنت الدّماء وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلىٰ ظاهره جماعة الناس. والإيمان الهدىٰ، وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام،.وما ظهر من العمل به. والإيمان أرفع من الإسلام بدرجة، إنّ الإيمان يشارك الإسلام في الظاهر، والإسلام لا يشارك الإيمان في الباطن وإن اجتمعا في القول والصّفة.

وفي العيون ٦٤/٢، عن محمّد بن عمر مسنداً عن أبي محمّد التميمي، عن عليّ ابن موسى الرضا، عن آبائه، عن عليّ، عليهم السلام قال: قال النبيّ صلّى الله عليه وآله:

أمرت أن أقاتل الناس حتّى يقولوا: لا إله إلّا الله، فإذا قالوها فقد حرم عليّ دماؤهم وأموالهم.

في البحار ٢٧١/٦٨، عن أمالي الطوسي، عن المفيد مسنداً عن أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام: ما الإيمان؟ فجمع لي الجواب في كلمتين، فقال:

الإيمان بالله وأن لا تعصي الله. قلت: فما الإسلام؟ فجمعه في كلمتين، فقال: من شهد شهادتنا، ونسك نسكنا، وذبح ذبيحتنا.

وفي الخصال / ١٧٧، عن أبي محمّد بن جعفر مسنداً عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

من استقبل قبلتنا، وصلّىٰ صلاتنا، وأكل ذبيحتنا، فله مالنا وعليه ما علينا.

أقول: هذه الروايات كما ترىٰ تختلف في بيان حقيقة الإسلام وقيوده، في بعض منها الاكتفاء بالشهادتين، وفي بعض منها اشتراط النسك، وفي بعض تصحيح الذبيحة طبق شروط ذبيحة المسلمين.

وأمّا الإيمان، فالمؤمن من يكون علىٰ بيّنة وبصيرة بما آمن وأسلم، وقام بالعمل بإتيان الفرائض واجتناب الكبائر. فترك فريضة من فرائض الله، أو

ارتكاب كبيرة من المعاصي، أو الإصرار على الصغائر، كلّ هذهِ توجب سلب روح الإيمان منه إلىٰ أن يتوب، فإنّ الزاني لا يزني وهو مؤمن. وكذلك السارق لا يسرق وهو مؤمن؛ لحصول الحجاب بينه وبين الله سبحانه، وتحقّق الإدبار. فليس في ظرف الارتكاب خاضعاً وقانتاً، وقد فقد روح اليقين ونور الهدىٰ إلىٰ أن يفاض عليه بعد التوبة.

ومرادنا من نور الهدىٰ وروح اليقين هو معرفة الربّ بالربّ، أي بتعريفه تعالىٰ نفسه علىٰ عبده علىٰ حسب مراتب المعرفة شدّة وضعفاً. وعند ارتكاب المعصية يسلب عنه حال الحضور بين يدي الله ـ جلّ جلاله ـ فهو من الغافلين، وممّن هتك حرمات الله، واستهان بعظم شأنه فلابدّ من أن يطرد ويهان ويحتجب. فهذه سنّة الله العادلة الحقّة، وقد قضىٰ وحكم أن يطرد المجرمين، ولا يأذن لهم بالتشرّف بحضوره، فمن هنا يجب علىٰ أولي الألباب، والّذين يرجون التمكّن في مقام القرب، والتشرّف في حريم الحضور، أن يراقبوا جلال الله في السّرّ والعلن، وأن يهابوا كبرياءه خفية وجهرة.

فعلىٰ هذا، الإيمان هو عمل كلّه سواء أكان من الأعمال الجوانحيّة أم من الأعمال الجوارحيّة. ولا فرق في ذلك بين كون الإيمان أمراً بسيطاً والأعمال شرطاً له، أو كان الإيمان مركباً من الأعمال القلبيّة والقالبيّة. وإن كان الحقّ والمتناسب هو الثاني، إذ الإيمان عملٌ كلّه كما في روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

فباشتداد العلم والعرفان والبصيرة بوظائف العبوديّة تختلف درجات الإيمان اختلافاً بيّناً، فمنه التامّ البيّن تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه. وفي الروايات المباركة أنّ الإسلام يشارك الإيمان ولا يفارقه في كلّ درجة من درجاته، والإيمان ينفكّ عن الإسلام في المنزل الأوّل من منازله، وأنّ الإيمان متقوّم بالعمل، وكلّ الإيمان العمل، وأنّ الإيمان مبثوث على الجوارح كلّها، وأنّ العمدة والأصل في تلك الأعمال هو عمل القلب.

وممّا ذكرنا يظهر وهن ما قيل من أنّ الفرق بين الإيمان والإسلام هي الولاية، ولاية الذريّة الطاهرة، الأمّة المسلمة الفاضلة، الأئمّة من آل الرسول عليهم السلام،

فإنّ الولاية من جملة الفرائض، ولا فرق في تحقّق الإيمان بين فريضة وفريضة إلّا بالأهمّ والمهمّ. مثلا الإيمان بالله من أشرف الفرائض وأسناها ودونه سائر الفرائض العقليّة والشرعيّة، وكذلك الكفر بالله من أكبر الكبائر ودونه سائر الفسوق العقليّة والشرعيّة.

والروايات في هذا الباب كثيرة، ونحن نكتفي بذكر خبر منها يجمع ما نحن بصدده في هذا المقام.

في تحف العقول / ٣٢٥، في كلام الصادق عليه السلام في وصف المحبّة لأهل البيت عليهم السلام، قال: دخل عليه رجل، فقال عليه السلام له:

ممّن الرجل؟ فقال: من محبّيكم ومواليكم.

فقال له جعفر عليه السلام: لا يحبّ الله عبداً حتّى يتولّاه، ولا يتولّاه حتّى يوجب له الجنّة، ثمّ قال له: من أيّ محبّينا أنت؟ فسكت الرّجل. فقال له سدير: وكم محبّوكم يا بن رسول الله؟

فقال: علىٰ ثلاث طبقات: طبقة أحبّونا في العلانية ولم يحبّونا في السرّ. وطبقة يحبّوننا في السرّ ولم يحبّونا في العلانية. وطبقة يحبّوننا في السرّ والعلانية؛ هم النمط الأعلىٰ، شربوا من العذب الفرات، وعلموا تأويل الكتاب، وفصل الخطاب، وسبب الأسباب، فهم النمط الأعلىٰ. الفقر والفاقة، وأنواع البلاء أسرع إليهم من ركض الخيل، مسّتهم البأساء والضرّاء، وزلزلوا وفتنوا، فمن بين مجروح ومذبوح متفرّقين في كلّ بلادٍ قاصية، بهم يشفي الله السّقيم، ويغني العديم، وبهم تُنصرون وبهم تُمطرون، وبهم تُرزقون وهم الأقلّون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً وخطراً.

والطبقة الثانية النمط الأسفل أحبّونا في العلانية وساروا بسيرة الملوك، فألسنتهم معنا وسيوفهم علينا.

والطبقة الثالثة النمط الأوسط أحبّونا في السرّ ولم يحبّونا في العلانية. ولعمري لئن كانوا أحبّونا في السرّ دون العلانية، فهم الصّوامون

بالنهار، القوّامون باللّيل، ترى أثر الرهبانيّة في وجوههم، أهل سلم وانقياد.

قال الرّجل: فأنا من محبّيكم في السرّ والعلانية.

قال جعفر (ع): إنّ لمحبّينا في السرّ والعلانية علامات يعرفون بها. قال الرّجل: وما تلك العلامات؟ قال عليه السلام:

تلك خلال أوّلها أنّهم عرفوا التوحيد حقّ معرفته وأحكموا علم توحيده. والإيمان بعد ذلك بما هو وما صفته، ثمّ علموا حدود الإيمان وحقائقه وشروطه وتأويله.

قال سدير: يا بن رسول الله، ما سمعتك تصف الإيمان بهذه الصفة؟

قال: نعم، يا سدير، ليس للسائل أن يسأل عن الإيمان، ما هو؟ حتّىٰ يعلم الإيمان بمن. قال سدير: يا بن رسول الله، إن رأيت أن تفسّر ما قلت؟

قال الصادق عليه السلام؛ مَن زعم أنّه يعرف الله بتوهّم القلوب فهو مشرك. ومَن زعم أنّه يعرف الله بالاسم دون المعنى فقد أقرّ بالطّعن؛ لأنّ الاسم محدث. ومَن زعم أنّه يعبد الاسم والمعنىٰ فقد جعل مع الله شريكاً. وَمن زعم أنّه يعبد [المعنىٰ] بالصّفة لا بالإدراك فقد أحال علىٰ غائب. ومَن زعم أنّه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لأنّ الصّفة غير الموصوف. ومن زعم أنّه يضيف الموصوف إلىٰ الصفة فقد صغّر بالكبير وما قدروا الله حقّ قدره.

قيل له: فكيف سبيل التوحيد؟ قال (ع): باب البحث ممكن، وطلب المخرج موجود، إنّ معرفة عين الشاهد قبل صفته، ومعرفة صفة الغائب قبل عينه.

قيل: وكيف نعرف عين الشاهد قبل صفته؟ قال عليه السلام: تعرفه وتعلم علمه وتعرف نفسك به، ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك. وتعلم أنّ ما فيه له وبه. كما قالوا ليوسف: «إنّك لأنت يوسف قال أَنا

يوسف وهذا أخي» [يوسف (١٢)/٩٠] فعرفوه به ولم يعرفوه بغيره، ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهّم القلوب، أَما ترى الله يقول: «ما كان لكم أن تُنبتوا شجرها» [النمل (٢٧)/٦٠] يقول: ليس لكم أن تنصبوا إماماً من قبل أنفسكم تسمّونه محقّا بهوىٰ أنفسكم وإرادتكم. ثمّ قال الصادق عليه السلام: ثلاثة لا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولايزكّيهم ولهم عذاب أليم، مَن أنبت شجرة لم ينبتها الله، يعني من نصب إماماً لم ينصبه الله، أو جحد من نصبه الله، ومن زعم أنّ لهذين سهماً في الإسلام، وقد قال الله: «وربُّكَ يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة». [القصص (٢٨)/٦٨]

قال عليه السلام: معنىٰ صفة الإيمان، الإقرار والخضوع لله بذلّ الإقرار والتقرّب إليه به، والأداء له بعلم كلّ مفروض من صغير أو كبير من حدّ التوحيد فما دونه إلىٰ آخر باب من أبواب الطاعة أوّلاً فأوّلاً، مقرون ذلك كلّه بعضه إلىٰ بعض، موصول بعضه ببعض. فإذا أدّى العبد ما فُرض عليه ممّا وصل إليه علىٰ صفة ما وصفناه فهو مؤمن مستحقّ لصفة الإيمان، مستوجب للثّواب وذلك أنّ معنىٰ جملة الإيمان الإقرار، ومعنى الإقرار التصديق بالطاعة، فلذلك ثبت أنّ الطاعة كلّها صغيرها وكبيرها مقرونة بعضها إلىٰ بعض، فلا يخرج المؤمن من صفة الإيمان إلّا بترك ما استحقّ أن يكون به مؤمناً. وإنّما استوجب واستحقّ اسم الإيمان ومعناه بأداء كبار الفرائض موصولة وترك كبار المعاصي واجتنابها. وإن ترك صغار الطاعة، وارتكب صغار المعاصي فليس بخارج من الإيمان، ولا تارك له مالم يترك شيئاً من كبار الطاعة، ولم يرتكب شيئاً من كبار المعاصي، فما لم يفعل ذلك فهو مؤمن لقول الله: «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً». [النساء (٤)/٣١] يعني المغفرة مادون الكبائر. فإن هو ارتكب كبيرة من كبائر المعاصي كان مأخوذاً

بجميع المعاصي صغارها وكبارها معاقباً عليها، معذّباً بها. فهذه صفة الإيمان وصفة المؤمن المستوجب للثواب.

وأمّا معنىٰ صفة الإسلام فهو الإقرار بجميع الطاعة، الظاهر الحكم والأداء له. فإذا أقرّ المقرُّ بجميع الطّاعة في الظاهر من غير العقد عليه بالقلوب فقد استحقّ اسم الإسلام ومعناه، واستوجب الولاية الظاهرة وإجازة شهادته والمواريث. وصار له ما للمسلمين وعليه ما علىٰ المسلمين. فهذه صفة الإسلام.

وفرق ما بين المسلم والمؤمن: أَنّ المسلم إنّما يكون مؤمناً أن يكون مطيعاً في الباطن مع ما هو عليه في الظاهر. فإذا فعل ذلك بالظاهر كان مسلماً. وإذا فعل ذلك بالظاهر والباطن بخضوع وتقرّب بعلم كان مؤمناً. فقد يكون العبد مسلماً ولا يكون مؤمناً إلّا وهو مسلم.

وقد يخرج من الإيمان بخمس جهات من الفعل كلّها متشابهات معروفة: الكفر والشرك، والضلال، والفسق، وركوب الكبائر.

فمعنى الكفر كلّ معصية عصي الله بها بجهة الجحد والإنكار والاستخفاف والتهاون في كلّ ما دقّ وجلّ. وفاعله كافر ومعناه كفر، من أيّ ملّة كان ومن أيّ فرقة كان، بعد أن تكون منه معصية بهذه الصفات فهو كافر.

ومعنى الشرك كلّ معصية عصي الله بها بالتديّن، فهو مشرك، صغيرة كانت المعصية أو كبيرة، ففاعلها مشرك.

ومعنى الضلال الجهل بالمفروض؛ وهو أن يترك كبيرة من كبائر الطاعة، الّتي لايستحقّ العبد الإيمان إلّا بها بعد ورود البيان فيها والاحتجاج بها، فيكون التارك لها تاركاً بغير جهة الإنكار والتدّين بإنكارها وجحودها، ولكن يكون تاركاً علىٰ جهة التواني والإغفال والاشتغال بغيرها، فهو ضالّ متنكّب عن طريق الإيمان، جاهل به، خارج منه، مستوجب لاسم الضلالة ومعناها مادام بالصفة الّتي

وصفناه بها، فإن كان هو الّذي مال بهواه إلىٰ وجه من وجوه المعصية بجهة الجحود والاستخفاف والتهاون كفر. وإن هو مال بهواه إلىٰ التديّن بجهة التأويل والتقليد والتسليم والرضا بقول الآباء والأسلاف فقد أشرك. وقلّ ما يلبث الإنسان علىٰ ضلالة حتّىٰ يميل بهواه إلىٰ بعض ما وصفناه من صفته.

ومعنى الفسق، فكلّ معصية من المعاصي الكبار فعلها فاعل، أو دخل فيها داخل بجهة اللّذة والشهوة والشوق الغالب فهو فسق، وفاعله فاسق خارج من الإيمان بجهة الفسق، فإن دام في ذلك حتّىٰ يدخل في حدّ التهاون والاستخفاف، فقد وجب أن يكون بتهاونه واستخفافه كافراً.

ومعنىٰ راكب الكبائر الّتي بها يكون فساد إيمانه فهو أن يكون منهمكاً علىٰ كبائر المعاصي بغير جحود ولا تديّن ولا لذّة ولا شهوة، ولكن من جهة الحميّة والغضب يكثر القذف والسبّ والقتل وأخذ الأموال وحبس الحقوق، وغير ذلك من المعاصي الكبائر الّتي يأتيها صاحبها بغير جهة اللّذة. ومن ذلك الأيمان الكاذبة وأخذ الرّبا وغير ذلك، الّتي يأتيها من أتاها بغير استلذاذ، [و] الخمر والزّناء واللّهو، ففاعل هذه الأفعال كلّها مفسد للإيمان خارج منه من جهة ركوبه الكبيرة علىٰ هذه الجهة، غير مشرك ولا كافر ولا ضالّ، جاهل علىٰ ما وصفناه من جهة الجهالة، فإن هو مال بهواه إلىٰ أنواع ما وصفناه من حدّ الفاعلين كان من صفاته.

قوله تعالىٰ: «ومن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريع الحساب». (١٩)

هذا تهديد منه ـ سبحانه ـ أنّ الكافرين بآيات الله في غرور وغفلة عن مجازاته تعالىٰ وأخذه الأليم الشديد. وعن قريب يؤاخذهم ويحاسبهم علىٰ أعمالهم، ويجازيهم من دون مهلة وفرصة جزاءً بما عملوا ونكالاً بما كفروا..

قوله تعالىٰ: «فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن».

أي إن يجادلوك استناداً إلىٰ شيء من أباطيلهم فقل: أسلمت نفسي لله سبحانه وتوكّلت عليه، وكذلك من اتّبعني من المؤمنين، فإنّهم يعتمدون ويلتجئون إلى أمان الله وحفظه وحرزه الحصين من شرور الظالمين ومكائدهم.

قوله تعالىٰ: «وقل للّذين أوتوا الكتاب والأميّين، أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإنْ تولّوا فإنّما عليك البلاغ».

الآية الكريمة مسوقة لتوبيخ أهل الكتاب والأميّين منهم بقوله: «أأسلمتم ...». فإنّ الاستفهام لتوبيخهم وتقريعهم علىٰ كفرهم وإصرارهم على الإعراض والإدبار عن الحقّ المبين. فإن أسلموا وأقبلوا إلى الحقّ فقد اهتدوا، وتشرّفوا وسعدوا بقبولهم الحقّ والخضوع في قباله، وفازوا فوزاً كريماً. وإن أعرضوا واستكبروا ولم يؤمنوا بدعوتك المباركة فلا يضرّك شيئاً، فقد نصحت وبلّغت وأدّيت ما عليك من البلاغ ويجزيك الله سبحانه جزاء الهادين المحسنين.

قوله تعالىٰ: «والله بصير بالعباد». (٢٠)

أي ما يعملون من الأعمال والأفعال بعين الله ـ سبحانه ـ وبمرأى ومنظر منه فلا يخفى عليه. ويجازي المؤمنين العاملين ثواب المطيعين المحسنين، فإنّ الله سبحانه شكور لا يضيع لديه أجر المحسنين.

قوله تعالىٰ: «إنّ الّذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيّين بغير حقّ ويقتلون الّذين يأمرون بالقسط من الناس فبشّرهم بعذاب أليم». (٢١)

الظاهر أنّ المراد من الكفر في الآية الكريمة هو كفر الجحود سواءً كان كفره بجهة اعتقاده بالدهر والطبيعة بناءً علىٰ ظنّه وتخرّصه الموهوم، وعدم تعقّله وتفكّره في آيات التوحيد والبراهين القائمة عليه أم كان جحوده وكفره بما استيقن من الحقّ الواضح عناداً وتعزّزاً واستكباراً، وإشباعاً لآماله الخبيثة وإرضاءً لشهواته.

والظاهر أنّ المراد من الآيات هو عموم الآيات سواء أكانت تكوينيّة أو تشريعيّة. وحيث إنّ الكفر بآيات الله هو العناد واللّجاج به ضد الحقّ الواضح والعلم الباهر المبين كما أنّ قتل الأنبياء والآمرين بالقسط من ثمرة هذا الكفر ونتيجة هذا الاعتقاد، وحيث إن قتل رجال العدل والإصلاح، أعظم فساداً في الأرض

وأكبر جناية علىٰ عامّة البشر، فإذن لا يكون الحكم المستفاد من الآية الكريمة إلّا حكماً عقليّاً ضروريّاً سيق لتذكير العقول وتنبيه الناس. فهذا الحكم في الآية المباركة من البشارة بالعذاب الأليم، حكم كليّ عقليّ ينحلّ بانحلال موضوعه وينطبق عليه.

فإن قيل: إنّ الآيات الكريمة كلّها كذلك حيّة لا تموت تجري، كما يجري اللّيل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، فما الفرق فيما ذكرتم بين هذه الآية وغيرها من الآيات؟

قلت: المراد إيجاد الفرق بين الأحكام العقليّة الضروريّة والأحكام الشرعيّة المجعولة، فإنّ الحكم الكلّي الشرعي المجعول النازل لجماعة ينحلّ علىٰ موضوعه الخاصّ بشرط عدم النسخ، والحكم العقليّ الضروريّ ثابت قبل النزول وبعد النزول، وليس قابلاً للنسخ والرفع فلا محصّل لشأن النزول في هذا القسم إلّا الوعيد والاحتجاج على المرتكبين وتوبيخهم والتذكير والنصح لغيرهم، وتنفير عامّة البشر عن ساحة هؤلاء الخبثاء الأرجاس، سواء أكانوا هم اليهود قتلة الأنبياء أم آل حرب قتلة الربانيّين والصدّيقين. نعم تحديد عذابه ونكاله ـ تعالىٰ ـ المُعدّ لهم وأخذه إيّاهم أخذ عزيز مقتدر بإعمال عدله وسخطه بما يشاء ويريد، لا يكون العقل كاشفاً عنه، وإنّما العقل يكشف عن استحقاق العقوبة والهوان.

وقوله تعالىٰ: «بغير حقّ» توصيف وتوضيح للجملة السابقة، وليس بقيد، فلا مفهوم له. فإنّ قتل الأنبياء لا يكون إلّا عدواناً وبغير حقّ.

قوله تعالىٰ: «أولئك الّذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة».

الحبط في اللّغة بمعنى البطلان، فيكون الحبط في الآية بالنسبة إلىٰ أعمال الكفّار وقتلة الأنبياء هو البطلان الفقهي، أي لم تنعقد لهم من رأس؛ لفقدان شرط الصحّة؛ وهو الإيمان والتقرّب إلى الله سبحانه. فإنّ أعمالهم من الحسنات الاجتماعيّة كسدّ الثغور وتأمين الطرق، وتعمير المستشفيات وأمثالها، وكذلك حسناتهم الانفراديّة كالبرّ بالأرحام والفقراء والمستضعفين، وإن لم يكن من الأعمال التعبديّة القربيّة مثل الصلاة وأمثالها، غير أنّهم لم يتقرّبوا بها إلىٰ الله ولم يقع منهم عمل لله،

فلا وجه لصحّة أعمالهم وترتّب الآثار المطلوبة عليها والمثوبات الدنيويّة والأخرويّة. وإبطال أعمالهم لعلّه من جملة عقوباتهم وهوانهم علىٰ الله تعالى، وسخطه عليهم.

وكذلك أعمال النصاب والمنافقين المنتحلين الإسلام بحسب الظاهر، قتلة هُداة الحقّ ورجال العلم والتوحيد والإصلاح، فهم من أخبث الكفّار، وأعمالهم القربيّة من الصّلاة والزكاة والحجّ وغيرها، وحسناتهم الاجتماعيّة من الإعمار وغيرهما باطلة، وحبط عنهم ما كانوا يصنعون لعدم انتهاء نيّاتهم إلى الله ـتعالىٰ ـ فلا تصل إليه سبحانه، ويضلّ عنهم ما كانوا يعملون.

نعم أعمال الكفّار الّذين لم يعاندوا الله ـتعالىٰ ـ وأولياءه، ولم يفسدوا في الأرض بقتل الأنبياء وتحريف الأديان، وكالّذين هم يد إحسان وخيرات، ويكرمون الجار ويقرون الضيف، ويحسنون إلى الأرحام والأيتام كحاتم الطائي فلا يبعد من فضل الله وكرمه ـسبحانه ـ أن يحسن إليهم في الدّنيا جزاءً لأعمالهم الحسنة. ويحسن إليهم في الآخرة بتقليل عذابهم. فإنّه من الواضح أنّ النّار لها درجات كما أنّ للجنّة درجات، فليس كلٌّ من الكفّار علىٰ حدّ سواء في ذوق العذاب الإلهي، كما أنّ المؤمنين ليسوا علىٰ حدّ سواء في نيل النعم الإلهيّة في الدّنيا والآخرة، فعذاب الكافرين المعاندين المحاربين لله وأنبيائه عليهم السلام، الغاصبين حقوق الناس، المستكبرين في الأرض، القاتلين لرجال العلم والإصلاح، ليس كعذاب الكافرين الّذين ليس لهم عناد مع الله ـتعالىٰ ـ وأنبيائه عليهم السلام، ويعملون الصالحات ويحسنون إلى الفقراء والضعفاء، ولا يتخطّون الأحكام الضروريّة العقليّة.

بعبارة أخرىٰ، فمن كان تخلّفه وتخطّيه أكثر يكون عذابه أشدّ، إلّا أنّهم كلّهم أجمعين في عدم دخولهم الجنّة سواء، فهم سيدخلون النّار خالدين فيها أبد الآبدين.

وأمّا المؤمنون والمسلمون الّذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، فلا وجه للقول بحبط أعمالهم الحسنة بما يصدر عنهم من المعاصي صغيرة كانت أو كبيرة قبل

العمل وبعده، وإنّما ينحصر بطلان أعمالهم لمورد فقدان الشرائط المأخوذة في صحّة العمل وأجزائه، فبعد ما كانت مطابقة للمأمور بها يكفي في سقوط التكليف سواء أكان العامل فاسقاً أم عادلاً بالضرورة الفقهيّة. نعم، قبول عمله وترتّب الثواب عليه مشروط بعد إحراز الصحّة والإجزاء، بأن يكون العامل متّقياً ومجتنباً بعض الفسوق لامطلقاً، مثل حبس الزكاة وحبس حقوق الناس، وعدم إقبال المصلّي إلى صلاته إلّا إذا كان داخلاً في نفس العبادة.

فعلىٰ ما ذكرنا ينحصر بطلان عمل المسلم والمؤمن بعد وقوعه صحيحاً بما إذا ارتدّ بعد العمل ومات علىٰ ارتداده.

وتبيّن مما ذكرنا أنّ الناس في هذه الجهة علىٰ طوائف:

الأولىٰ: الكافر المعاند الّذي ارتكب قتل الأنبياء والآمرين بالقسط ومن يجري هذا المجرىٰ. فالآيات الكريمة الواردة في حبط الأعمال كلّها سيقت لبيان أعمالهم إلّا ما يستثنىٰ منها. فهي حابطة باطلة لا تترتّب عليها آثارها المطلوبة منها، من المثوبات في الدنيا والآخرة.

الثانية: الكفّار المبطنون لكفرهم المتظاهرون بالاسلام المنتحلون له، فهذه الطائفة مثل الطائفة الأولىٰ. تبطل أعمالهم أساساً، غاية الأمر أنّ أصحاب الطائفة هذهِ حيث إنّهم متظاهرون بالإسلام فلهم أعمال مثل أعمال المسلمين من الصلاة والصوم والحجّ، مثل أعمال بني أميّة أو بني العباس، بخلاف أعمال أصحاب الطائفة الأولى فإنّه ليس في أعمالهم مثل أعمال المسلمين.

الثالثة: الكفّار الّذين ليست معصيتهم إلّا الكفر بالله العظيم وليس فيهم ضرر على الدّين وأهله، ولهم أعمال حسنة كمعاونة الضعفاء وحسن الخلق ومداراة المسلمين وحسن الجوار معهم والإنصاف، ومراعاة العدل الاجتماعي وأمثال ذلك. فقد ذكرنا أنّ أعمالهم هذه لها مثوبات دنيويّة وأخرويّة غير أنّهم خالدون في النار أبد الآبدين.

الرابعة: المؤمنون والمسلمون الّذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، فإن كان صالح أعمالهم متّحداً مع الحرام، أو يستلزمه لزوماً بيّناً بديهيّاً سواء أكان

شرعيّاً أم عقليّاً مثل الصلاة في الغصب، والإنفاق بقصد المنّ والأذىٰ، والإنفاق مع الرياء، أو يكون فاقداً لجزء من أجزائه أو لشرط من شرائط صحّته، فهذه الأعمال أيضاً باطلة لعدم وقوعها على الوجه المأمور به. وأمّا الأعمال الّتي وقعت واجدة لشرائط الصحّة، ووقع بعدها أو قبلها معصية فلا وجه لبطلانها، إذ ليس من شرائط الصحّة كون العامل معصوماً أو متّقياً عادلاً.

ثمّ إنّه إذا وقعت الأعمال صحيحة، هل يقع التزاحم بين ثوابها وعقاب المعاصي الّتي قبلها أو بعدها؟ وهذا هو محلّ النزاع وموضع النقض والإبرام. وحيث إنّ المسألة سمعيّة لاعقليّة فلابدّ من استظهار حكم الله ـ تعالىٰ ـ من الكتاب وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وآله وأهل بيته الأئمّة المعصومين عليهم السلام. ويستفاد من الكتاب والسنّة أنّه ليس هناك استحقاق وإيجاب عليه ـ تعالىٰ ـ بل هو ـ سبحانه ـ يثمر الحسنة وينميها، ويتجاوز عن السيّئة حتّى يعفيها. ففي هذا القسم من الطاعات المختلطة بالمعاصي الواقعة قبلها أو بعدها لا يقبل الله بعض الطاعات ببعض الذنوب، وإن كان صحيحاً كما ورد في الأخبار أنّ حبس الزكاة يمنع من قبول الصلاة، وكذا في غيرها ممّا ورد التصريح به. ومآل ذلك الحرمان هو العدل الإلهي. وقد أخذه الله ـ تعالىٰ ـ بعدله وحبط ثواب عمله وهو فعله تعالى. فمن الجائز والممكن أن يصفح ـ سبحانه ـ عن الذنب العظيم ولا يجعله وسيلة لحبط العمل الصحيح الصالح. ومن الجائز أن يتضرّع الإنسان إليه سبحانه، ويقول كما يقول سيّد الساجدين في دعائه عليه السلام في يوم عرفة:

«ولا تحبط حسناتي بما يشوبها من المعصية»

ولا يخفى أنّه لا يمكن الالتزام بحبط الثواب منه ـ تعالىٰ ـ بعدله ـ سبحانه ـ في غير الموارد الّتي ورد النصّ فيها بالحبط فلابدّ في هذه الموارد من الرجوع إلى الكتاب والسنّة. وقد تقدّم بعض الكلام في الحبط في تفسير قوله تعالىٰ: «فأولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا والآخرة ...». البقرة (٢)/٢١٧

قوله تعالىٰ: «ومالهم من ناصرين». (٢٣)

هل الآية الكريمة لبيان هوانهم وذلّتهم وبروز قهره ـ تعالىٰ ـ ومالكيّته المطلقة

في الآخرة، وأنّه عنت له الوجوه، وخضعت له رقاب الجبابرة، فلا يتناصرون، ولا يتمكّنون من إذلال أهل الدّين، وإهانة المطيعين، واحتقار المرسلين الموحّدين، ولا ناصر لهم من دون الله كما كانوا في الدنيا. أو أنّ الآية الكريمة في مقام بيان أنّه لا ناصر لهم إلّا بإذن الله ومن الله، فإنّ الناصرين والشافعين لا ينصرون أحداً من عباد الله الصالحين إلّا بإذنه تعالىٰ، ولمن ارتضاه لا مطلقاً؟ الظاهر هو الأوّل فإنّه أدلّ علىٰ الهوان وأتمّ وأكمل في الخزي والمذلّة.

قوله تعالىٰ: «ألم تر إلى الّذين أوتوا نصيباً من الكتاب».

الظاهر أنّ المراد من «الّذين» هم العلماء بالتوراة أو الإنجيل، أو كليهما. فهم قد علموا بعضاً من الكتاب أو لهم نصيب من العلم بالكتاب. والظاهر أنّهم لم يكونوا من حمَلَة الكتاب كلّه.

قوله تعالىٰ: «يدعون إلىٰ كتاب الله ليحكم بينهم».

أي يدعون المسلمين أو شخص رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى الكتاب الّذي آمنوا به؛ للحكومة وفصل القضاء في محلّ التنازع.

قوله تعالى: «ثمّ يتولّى فريق منهم وهم معرضونَ». (٢٣)

أي يتولّىٰ بعضهم عن تحكيم كتابهم الّذي بين أظهرهم، والذي دعوا لتحكيمه ثمّ لم يرضوا بقضائه. فهذا دليل علىٰ أنّهم لم يكونوا مؤمنين به ولا مصدّقين له. وإلّا لم يستنكفوا عن قضائه. فهم معرضون عن الحق ويتلاعبون به ويتساهلون فيه.

ولعلّ وجه التعبير بـ«ثمّ» الدالّة على التراخي، أنّ التولّي بعد التروّي.

قوله تعالىٰ: «ذلك بأنّهم قالوا لن تمسّنا النّار إلّا أيّاماً معدودات وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون». (٢٤)

الظاهر أنّ هذا الّذي لفّقوه ليس إلّا ليكون عذراً لهم علىٰ جرأتهم علىٰ الله، وتولّيهم عن حكومة الكتاب، وإعراضهم عن الحقّ، فإنّهم حسبوا عند أنفسهم أنّ لهم عذاب أيّام قلائل، وعاقبة أمرهم إلىٰ دار القرار. وهذا من حشويّاتهم الباطلة، وهوساتهم الخرافيّة، سواء أكان قولهم هذا من جهة زعمهم أنّهم أحبّاء الله أم

لشفاعة الشافعين أو لكون عبادتهم العجل أربعين يوماً، كلّ ذلك افتراء علىٰ الله واغترار واطمئنان بما لفّقوه من حشويّاتهم وأدخلوه في الدين الإلهي.

ويمكن أن يقال: إنّ هذا، زعم الّذين ضعفوا عن العمل، وليس لهم همّة المؤمنين العاملين، وأتلفوا أعمارهم في الجنايات والملاهي، يعتذرون أنّ الله غفور كريم، وأنّه يقبل شفاعة الشافعين في حقّهم، وأنّه ما بعث الأنبياء وما أكرمهم إلّا ليشفعوا العصاة والفسّاق. وبعضهم يعتقدون أنّ الملاك طهارة القلب لا العمل.غير ذلك من الأمنيّات الباطلة، يدّعون من الله الكرامةَ بلا عمل ولا أدب. وإنّما رسبت هذه العقائد في الأديان الطاهرة المنزّهة الإلهيّة؛ لضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولتعطيل الحدود، وسقوط المجازاة والتعزيرات، وعدم إجراء الأحكام الواردة في حقّ الفسّاق. غاية الأمر يختلف نفوذ البدع وشيوع الخرافات من حيث عللها ودواعيها وطور سرايتها وكيفيّاتها.

قوله تعالىٰ: «فكيف إذا جمعنا ليوم لا ريب فيه وَوُفّيت كلُّ نفسٍ ما كسَبت».

أي، ماذا يصنع هؤلاء المفترون على الله، المعرضون عن الحقّ، المغترّون بافترائهم على الله، إذا جمعناهم للمحاكمة والقضاء في يوم الفصل، وإحقاق الحقّ ورفع الاختلاف وقد تلاشت عنهم أمنيّاتهم الكاذبة، ووفّي لهم جزاء أعمالهم؟

قوله تعالى: «وهم لا يظلمون». (٢٥)

إمّا تهديد لهم بإعمال عدل الله فيهم، أو تمجيد لله -سبحانه- أنّه لا يحمل عليهم في هذا الموقف أزيد ممّا جنوا علىٰ أنفسهم. وقد تقدّم البحث في ذلك أيضاً في تفسير قوله تعالىٰ: **«ثمّ تُوفّىٰ كلُّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يُظلمون»**. [البقرة (٢)/٢٨١]

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ

مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

قوله تعالىٰ: «قل اللّهمّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء».

أمر الله ـ تعالىٰ ـ رسولَه وصفيّه صلى الله عليه وآله بتمجيد ذاته تعالىٰ، كما في قوله تعالىٰ «**قل هو الله أحد**» وتمجيد الذّات الأحديّة من أهمّ مقاصد القرآن. ولم يعلم لنا بعدُ وجه ارتباط هذه الآية الكريمة بما قبلها من محاجّة اليهود، فالأولى السكوت عن ذكر الوجوه الّتي ذكروها في ارتباط هذه الآية بما قبلها، فإنّ أكثرَ هذه الوجوه الّتي ذكروها في إيجاد الارتباط بين الآيات غير خال عن التكلّف. وهذه أشبه شيء بالوجوه الّتي ذكرها الأدباء في كتبهم الأدبيّة، فإنّها علل بعد الوقوع.

والملك بالضمّ والكسر والفتح وسكون اللّام بمعنىً واحد.

قال في لسان العرب ٤٩٢/١٠ ـ ٤٩٥: ابن سيده: المَلْك والمُلْك والمِلْك: احتواء الشيء والقدرة علىٰ الاستبداد به. مَلَكَه يَمْلِكُه مِلْكاً ومَلْكاً ومُلْكاً وتملكاً الأخيرة عن اللّحياني لم يحكها غيره... وما له مَلْك ومِلْك ومُلْك ومُلُك؛ أي شيء يملكه...ومَلْك الطريق ومِلْكه ومُلْكه: وسطه ومعظمه. وقيل: حدّه. عن اللّحياني. ومِلْك الوادي ومَلْكه ومُلْه: وسطه وحدّه أيضاً. عنه أيضاً.

فلا مورد لتوهّم أنّ المِلْك ـ بالكسر ـ ملْك الأعيان. والمُلْك ـ بالضمّ ـ ملك الأمر والنهي. ولا شاهد علىٰ ذلك لا من اللّغة ولا من موارد استعماله. وهذا لابدّ من أن يستند إمّا إلى المادّة أو إلىٰ الهيئة. والمادّة في كلّها ـ م. ل. ك ـ واحد. والهيئة في كلّها هيئة المصدر من تلك المادّة، وليست فيها دلالة علىٰ هذا المعنىٰ، فالحاكم هي الموارد المستعملة فيها هذه الألفاظ وقد ذكرنا من اللّسان أنّه لا فرق بينهما في الموارد.

ومفهوم الملك من المفاهيم المعلومة في غيره ـ تعالىٰ ـ فهو عبارة عن إطلاق

القدرة والسلطنة علىٰ ما تحت يده واختياره، مثل تسلّط الإنسان بأفعاله من القبض والبسط، والنظر والغمض، والتكلّم والسكوت، وغيرها من الأفعال. فهذه الاستطاعة والتسلّط كمال وجوديّ غير القيوميّة، نعم يمكن فرض القيوميّة إذا أوجد الإنسان في صقع نفسه صوراً وأشباحاً عن رأيه ومالكيّته، فهي متقوّمة بنفس الإنسان لا إكراهاً ولا رغماً علىٰ نفسه بل بالمالكيّة والحرّيّة والإطلاق، فله الرأي في إبقائها بعد التحقّق وله الرأي في إعدامها أيضاً. وأمّا مالكيّة الإنسان بالأعيان الخارجيّة والتصرّف والمداخلة في أمور الناس وشؤونهم ونظام حياتهم وجماعاتهم، فليست بهذه المثابة من المالكيّة التكوينيّة.

والمشهور أنّ المالكيّة ليست لها تأصّل وواقعيّة خارجيّة، بل هي منتزعة من الحكم التكليفي مثل جواز التصرّف، وعدم المالكيّة منتزع من حرمة التصرّف، أو هي أمر اعتباريّ عقلائيّ فرضها العقلاء حفظاً لنظامهم ودفعاً للهرج والمرج.

والحقّ أنّ بعض أقسام هذه المالكيّة أمر واقعيّ أصيل، معلوم بالضرورة مثل الفوائد والعوائد المترتّبة علىٰ شخص وجود الإنسان الّتي استفادها بعمله وعمله. وهذا التوليد ليس له منشأ إلّا وجوده وشعاع وجوده فقط، فإنّه ليست نسبة عوائد عمل الإنسان الحرّ المُنشأة من وجوده من غيره في عرض سواء، ولا يمكن القول بعدم أولويّته بالنسبة إلىٰ هذه العوائد، إذ الإنسان الحرّ لا يملكها إلّا الله فلا وجه لسلب أولويّته عمّا أفاده بنفسه. وكيف يمكن القول بأنّ هذه النسبة والرابطة أمر اعتباريّ يدور نفياً وإثباتاً مدار اعتبار العقلاء؟! فكلّ نسبة ورابطة تنتهي مستقيماً أو غير مستقيم إلىٰ تلك الألويّة فهي نسبة واقعيّة لا أن تكون وهميّة اعتباريّة. فعلىٰ هذا لو دلّ دليل شرعيّ على المالكيّة، فهو إمّا إرشاد إلىٰ هذه النسبة الواقعيّة، أو أمر تعبديّ يجب الالتزام به.

وأمّا مالكيّة الأمر فواضح أنّ الناس عبيد لله ومملوكون له ـ تعالىٰ ـ بالحقيقة، ومتقوّمون به ـ سبحانه ـ فليس لأحدٍ التصدّي والتصرّف والمداخلة في أمور الناس، والاستقلال والاستبداد في أمورهم، إلّا لله ـ تبارك وتعالى ـ الّذي خلقهم، ولمن أذن له في ذلك وأعطاه الملك، فيجب إطاعته ـ تعالىٰ ـ وامتثاله،

وإطاعة أولي الأمر الّذين هم مأذونون من ناحيته ـ تعالىٰ ـ في مالكيّة الأمر.

وأمّا الجبابرة والفراعنة الذين يتسلّطون علىٰ رقاب الناس ويستبدّون بالأمر والنهي، ونظم الأمور وتشريع القوانين من دون إذن من الله ـ تعالىٰ ـ فلا يجب إطاعتهم وامتثال أوامرهم، ولو كان مورد أمرهم حلالاً بحسب الواقع، فضلاً عمّا كان ظلماً وفساداً، فإنّ عدلهم فساد في الأرض. وما قلنا من عدم وجوب إطاعتهم وامتثال ما يريدونه إنّما هو بالنسبة إلى الأحكام الأوليّة، فكون امتثالهم واجباً بالنسبة إلى الاعتبارات الثانويّة لا ينافي ذلك.

فلا مناص من جواز التصدّي للأمر بل وجوبه بإذن من الله وعطاء منه سبحانه، وعلىٰ حدّ ما عيّنه ـ تعالىٰ ـ سعة وضيقاً، حتّىٰ باب الأطفال والزّوجات، وحتّىٰ بالنسبة إلىٰ أعضاء نفسه المملوكة له بإذن الله ـ تعالىٰ ـ فضلاً من عامّة الخلق، فلابدّ من تطبيق المداخلة في شؤون نفسه علىٰ قانون التشريع، لا الاستبداد والاستقلال في قبال الربّ تبارك وتعالىٰ. وهذا باب الولاية الكلّيّة وشعبها.

فقوله تعالىٰ: «**مالك الملك**» عام يشمل بعمومه هذا القسم من الملك أيضاً. والظاهر أنّ المراد منه المعنىٰ والاسم المصدريّ فيشمل الجاه والمال، والحول والقوّة، والإمامة والرسالة والنبوّة، وكلّ ما يكون مملوكاً لله. والملك في قوله تعالىٰ: «**تؤتي الملك من تشاء**» وقع متعلّقاً للإيتاء والإعطاء، وهو أيضاً عام بحسب ظاهر الآية، إلّا أنّ العقل يستثني منه المالكيّة الخاصّة لمقام الألوهيّة والرّبوبيّة، فإنّها لا يصحّ ولا يصلح إيتاؤها لغيره، مثل خلق الخلق وتدبيرهم وأمثال ذلك. وتستثنىٰ منه أيضاً مالكيّة الجبابرة واللّصوص، فإنّ تمكّنهم في الأرض تكويناً ومداخلتهم وتصرّفاتهم في أمر التشريع ونظام الاجتماع، وإن كانت لا تخرج عن حيطة ملكه تعالى، وليس هو تعالىٰ منعزلاً عنها، إلّا أنّه يمكن القول بإيتائه ـ تعالىٰ ـ إيّاها لهم. فإمها له ـ تعالىٰ ـ واستدراجه لهم، ونقمته علىٰ هؤلاء الأراذل والأشقياء، وإن سمّيناها إيتاءً، إنّما هو بحسب التوسّع في اللّغة لا الإيتاء الحقيقي، فإنّ هذا ليس من سنخ الإيتاء الّذي أكرم الله ـ تعالىٰ ـ به أولياءه وأحبّاءه، وجعلهم خلفاءَ في الأرض وفوّض إليهم أمور عباده، يحكمون بحكمه ويسيرون بأمره. وكذلك غيرها من

كراماته ـ تعالىٰ ـ لهم مثل اختصاصهم بالنبوّة واصطفائهم بحمل الوحي والرّسالة، فإنّه من البديهي أنّ مالكيّة الجبابرة وثوب علىٰ حقّ الغير واغتصاب لحقّ مَن جعله الله تعالىٰ له، وهو ـ سبحانه ـ لا يرضى لهم بذلك. وأمّا قوله تعالىٰ: «**ألم تر إلى الّذي حاجّ إبراهيمَ في ربّه أن آتاه اللهُ الملكَ**». [البقرة (٢)/٢٥٨] ـ بناءً علىٰ رجوع الضمير إلى نمرود ـ فإنّما هو بضرب من التوسّع، وليس تمليكاً منه ـ سبحانه ـ كرامة لنمرود وحرماناً لإبراهيم عليه السلام وليّ العصر، والخليفة المطلق في الأرض بإذن الله سبحانه وأمره.

في تفسير العيّاشي ١٦٦/١، عن داود بن فرقد قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام قوله تعالىٰ: «**قل اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ...**». فقد أتى الله بني أميّة الملك؟ فقال:

ليس حيث تذهب الناس إليه. إنّ الله آتانا الملك وأخذه بنو أميّة، بمنزلة الرجل يكون له الثوب ويأخذه الآخر فليس هو للّذي يأخذه.

وفي البحار ١٣٣/٤٥، عن السيّد وغيره: فقامت زينب بنت عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقالت: الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله علىٰ رسوله وآله أجمعين، صدق الله كذلك يقول: «**ثمّ كانَ عاقبةَ الّذينَ أساءوا السُّوأى أَن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون**». [الرّوم (٣٠)/١٠]

أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارىٰ، أنّ بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة؟ وأنّ ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمختَ بأنفك، ونظرتَ في عطفك، جذلان مسروراً، حيث رأيت الدّنيا لك مستوسقة، والأمور متّسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، مهلاً مهلاً أنسيت قوله الله تعالىٰ: «**ولا يحسبنَّ الّذين كفروا أَنّما نُملي لهم خير لأنفسهم إنّما نُملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين**». [آل عمران (٣)/١٧٨]

فالإيتاء الواقعيّ والحقيقي كرامة مَنَّ اللهُ ـ تبارك وتعالى ـ بها علىٰ عباده المصطفين، وقد ظُلموا في الأرض، وقد أَذن اللهُ لهم أن يقاتلوا الظالمين، الذين

يريدون أن يدفعوهم ويطردوهم من حقّهم ويخرجوهم من الأرض وما فيها صفر اليد. قال تعالىٰ:

«أُذن للّذين يقاتلون بأنّهم ظلموا وإنَّ الله علىٰ نصرهم لقدير».
[الحجّ (٢٢)/٣٩]

في الوسائل ٥٣١/٩، عن رسالة المحكم والمتشابه، عن تفسير النعماني بإسناده عن عليّ عليه السلام قال:

... والضرب الآخر ما رجع إليهم ممّا غصبوا عليه في الأصل. قال الله تعالى: «إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةً». [البقرة (٢)/٣٠] فكانت الأرض بأسرها لآدم، ثمّ للمصطفين الّذين اصطفاهم الله وعصمهم فكانوا هم الخلفاء في الأرض، فلمّا غصبهم الظلمة علىٰ الحقّ الّذي جعله الله ورسوله لهم، وحصل ذلك في أيدي الكفّار، وصار في أيديهم علىٰ سبيل الغصب حتّىٰ بعث الله رسولَه محمّداً صلّى الله عليه وآله فرجع له ولأوصيائه، فما كانوا غصبوا عليه أخذوه منهم بالسيف فصار ذلك ممّا أفاء الله به، أي ممّا أرجعه الله إليهم.

أقول: وكذلك الكلام في الأمر والنهي، والنبوّة والرسالة، لم يجعل الله للظالمين فيها نصيباً. قال تعالىٰ:

«وإذ ابتلىٰ إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمّهن قال إنّي جاعلك للنّاس إماماً قال ومن ذرّيّتي قال لا ينال عهدي الظالمين». [البقرة (٢)/١٢٤]

وقد فسّرت الإمامة في هذه الآية في الأخبار الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام بافتراض الطاعة.

في البحار ١٤٢/٢٥، عن البصائر، عن محمّد بن عبد الجبّار مسنداً عن عبدالحميد بن نصر قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

ينكرون الإمام المفترض الطاعة ويجحدون به، والله ما في الأرض منزلة أعظم عند الله من مفترض الطاعة، فقد كان إبراهيم دهراً ينزل عليه الأمر من الله وما كان مفترض الطاعة حتّى بدا لله أن

يكرمه ويعظّمه فقال: «إنّي جاعلُك للنّاس أماماً» فعرف إبراهيم ما فيها من الفضل فقال: «ومن ذرّيّتي قال لا ينال عهدي الظالمين».

وكذلك قوله تعالىٰ: «أم يحسدون النّاس علىٰ ما آتاهم الله من فضله فـقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم مُلكاً عظيماً». [النساء (٤)/٥٤]

في البحار ٢٨٧/٢٣، عن البصائر، عن محمّد بن عيسى وابن يزيد معاً عن بريد العجليّ، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: «فقد آتينا آل إبراهيم ...».

... قلت: فما معنىٰ قوله: «وآتيناهم ملكاً عظيماً» قال: الملك العظيم أن جعل فيهم أئمّةً، ومن أطاعهم أطاع الله، ومَن عصاهم عصى الله، فهو الملك العظيم.

وفيه أيضاً، عن البصائر أيضاً، عن أحمد بن محمّد مسنداً عن أبي بـصير، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالىٰ: «أم يحسدون الناسَ علىٰ ما آتاهم الله من فضله ... وآتيناهم ملكاً عظيماً» قال:

الطاعة المفروضة.

أقول: هذا من أجلّ درجات الولاية الإلهيّة، وأعظم منصب ومقام، حيث أعطاهم الله وجوب طاعتهم بوجوب طاعته علىٰ الناس أجمعين. فبهذا الاعـتبار جعل الله سبحانه أمرَهم أمره وحكمهم حكمه، وجعل قولهم عين الشريعة وحاقّ الدّين. والشواهد علىٰ هذا كثيرة ولو أردنا استقصاءها لخرجنا من سياق المقام.

فتبّين أنّ المتعلّق في «تؤتي الملك» غير المـتعلّق في قـوله تـعالىٰ: «مـالك الملك». وليس الملك الاغتصابيّ بإيتاء من الله ـتعالىٰـ فليس مثل المـلك الّـذي أعطاه الله ـتعالىٰـ للمصطفين من عباده.

قوله تعالىٰ: «وتنزع الملك ممّن تشاء».

بعد ما علمت أنّ المتعلّق في قوله تعالىٰ: «تؤتي الملك» أخصّ من المتعلّق في قوله: «مالك الملك» لاتتوهّم أنّ متعلّق النزع بعينه هو متعلق الإيتاء. إذ لو كان المتعلّق في قوله تعالىٰ «تنزع الملك» بعينه هو المتعلق في قوله: «تؤتي الملك» للزم

من ذلك ـ معاذ الله ـ أن يخذل الله ـ تعالىٰ ـ أولياءه بعد تأييدهم بالوحي وغيره من مواهبه المكنونة، ويطردهم بعد إكرامهم وإجلالهم. حاشا الله ـ سبحانه ـ عن أمثال ذلك.

فإن قلت: إنّ النزع معلّق بالمشيئة، فأيّ مانع أن يكون متعلّق النزع عين متعلّق الإيتاء؛ إلّا أنّ النزع معلّق بمشيّئته ـ تعالىٰ ـ فهو ـ تعالىٰ ـ ينزع الملك ممّن يشاء مطلقاً سواء أكان من أوليائه المصطفين أم من غيرهم من المؤمنين والعلماء والحكّام والفقهاء، وإن لم يشأ في المصطفين أبداً، إذ صدق القضيّة الشرطيّة غير متوقّف على الوقوع الخارجيّ؟

قلت: هذا الكلام وأمثاله من الفرضيّات لايليق بكلامه ـ تعالىٰ ـ وقد جرت سنّته الحكيمة البيّنة لبيان المعارف والحقائق، لا التكلّم في الفرضيّات الّتي لا واقعيّة لها.

فإن قلت: فكم من هذه الفرضيّات في القرآن الكريم مثل قوله تعالىٰ: «لو كان فيهما آلهةٌ إلّا اللهُ لفسدتا». [الأنبياء (٢١)/٢٢]

قلت: كلّا هذا تذكرة إلىٰ أمر واضح غفلت عنه العقول؛ وهو أنّ التعدّد في الألوهيّة أدلّ دليل علىٰ بطلان الصانع العليم الحكيم، وأنّ التعدّد دليل قطعيّ على المخلوقيّة، فإتقان الصنع وإبداعه العجيب الّذي تدهش له العقول تذكرة وهداية إلى الله سبحانه، فترتفع الغفلة والنسيان ويتعرف ـ سبحانه ـ إلىٰ عباده متوحّداً خارجاً عن الحدّين حدّ التعطيل والتشبيه.

فاتّضح أنّ ما ملّكه الله ـ تعالىٰ ـ لأوليائه من أنواع الملك مثل الإمامة والرسالة، والنور والبرهان، والهدى والخلافة في ملكه وأرضه، وما يترتّب علىٰ هذه المواهب الملكوتيّة غير قابلة للنزع من حيث أعيانها وآثارها وأحكامها الوضعيّة. وأمّا في الأشخاص فلا مانع من الالتزام بنزع ملكهم طبق حكمته؛ مثل نزع العلم عن بلعم بن باعور، ومثل نزع عمله عن الفقيه المتعلّم من الكتاب والسنّة إذا شاء طبق الحكمة.

فتلخّص أنّ النزع ناظر إلىٰ ملك الجبابرة والفراعنة، فلا مانع من سلب

الملك عنهم بعد تمام المدّة والقضاء الإلهي. وكذلك في مورد المؤمنين غير المصطفين، فإنّه ـ تعالىٰ ـ يرفع المستضعفين ويضع المستكبرين.

قوله تعالىٰ: «وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء».

قد مرّ تفسير العزّة مراراً. والذلّة حيث جعلت في مقابل العزّة فهي بمعنىٰ سلب العزّة.

قوله تعالىٰ: «بيدكَ الخير».

أي في قبضتك وملكك وسلطانك. فأمر العطاء والخلق لايكون إلّا عن أمرك وإذنك. وفيه تصريح بأنّ قبضه ـ تعالىٰ ـ ليس عن عجزه ونقصه بل لمكان مالكيّته سبحانه لأمر العطاء والهبة، وهو تعالىٰ لايكون واهباً وفاعلاً إلّا بالاختيار.

وهذه الجملة بمنزلة التعليل لإيتاء الملك والإعزاز، كما أنّ قوله تعالىٰ: «**إنّك علىٰ كلّ شيء قدير**». تعليل للجميع، إعطاء الملك ونزعه، والإعزاز والإذلال. ولو قيل: إن قوله تعالىٰ: «**بيدك الخير**» تعليل للإعطاء والإعزاز، وقوله تعالىٰ: «**إنّك علىٰ كلّ شيء قدير**» بمنزلة التعليل للإذلال وسلب الملك، لما كان خالياً عن الوجه.

والخير في الكتاب والسنّة استعمل بعنايات مختلفة؛ وهو سواء أكان صفة مشبّهة أم مصدراً أو اسم مصدر أو أفعل تفضيل، أريد به في المقام العطاء والهبة والفيض. وقد يراد منه المختار والصفوة. قال تعالىٰ:

«**إنَّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات أُولئك هم خير البريّة**». [البيّنة (٩٨)/٧]

وقد يستعمل في مورد الصالحات من الأعمال. قال تعالىٰ:

«**فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره**». [الزّلزلة (٩٩)/٧]

وقد يستعمل بمعنى المال. قال تعالىٰ:

«**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصيّة للوالدين والأقربين بالمعروف**». البقرة (٢)/١٨٠

ولا يبعد أن تكون هذه الاستعمالات والمعاني بلحاظ الاختيار والخيرة، فإنّ

العقل والعلم يرشد الإنسان إلى اختيار ما فيه جودة ومنفعة ومصلحة وحسن، في مقابل ما فيه الرداءة والمضرّة والمفسدة والقبح. وهذا الاختيار والانتخاب والاصطفاء إنّما هو بحسب الواقع والثبوت واللّبّ لا بحسب زعم الأشخاص وطبيعتهم، فمن الممكن أن يختار إنسان ما هو شرّ له ومضرّة.

وكيف كان فالخير أمر وجوديّ ويقابله الشرّ تقابل التضادّ، فإنّ الشرّ أيضاً أمر وجوديّ مثل الخير. ولا يتوهّم أنّ الشرّ أمر عدميّ عبارة عن فقدان الذات أو فقدان كمال الذات مثل المرض الذي هو فقدان العافية والصحّة، إذ يمكن أن يقال: إنّ العافية عبارة عن فقدان المرض. فلابدّ من أن يفهم ويعقل أنّ الشرّ مثل الأمراض المهلكة والجراحات والصدمات، والأحزان والآلام والمحن، وما أعدّ الله ـ تعالىٰ ـ للانتقام من أعدائه من النار الكبرىٰ ـ أعاذنا الله منها ـ وعقاربها وحيّاتها، وحميمها وصديدها، وغسّاقها وغسلينها، وسلاسلها وأغلالها، وشرابها الّذي يقطع أمعاء سكّانها، ليست أموراً عدميّة بل كلّ هذه أمور وجوديّة.

الظاهر أنّ الباعث للقول بعدميّة الشرّ هو الاعتقاد بأنّ مبدأ الوجود خير محض لا يصدر منه إلّا الخير، فالشرّ في الوجود غير معقول، أو أنّ المراد من الشرّ هو الفسوق والقبائح ويستحيل صدور القبائح منه ـ تعالىٰ ـ فيكون الصادر منه ـ تعالىٰ ـ خيراً فقط. ولكن حيث إنّ أفعاله ـ تعالىٰ ـ ليست صادرة منه ـ سبحانه ـ على نحو الرشح والفيضان والتولّد والانفصال، وبعبارة أخرىٰ حيث ليست أفعاله ـ تعالىٰ ـ صادرة منه تعالىٰ علىٰ طبق العلّيّة والمعلوليّة وليست تطوّراً منه ـ تعالىٰ ـ فلا يستحيل صدور الشرّ منه سبحانه إذ كلّ صانع فمن شيء صنع وخالق العالم لا من شيء صنع، فلا امتناع في خلقه تعالى الشرّ. قال تعالىٰ:

«ولا يحسبنَّ الّذين يبخلون بما آتاهم اللهُ من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السّمٰوات والأرض والله بما تعملون خبير». [آل عمران (٣)/ ١٨٠]

و«قل هل أُنبّئكم بشرٍّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أُولئك شرّ مكاناً

وأضلُّ عن سواءِ السبيل». [المائدة (٥)/٦٠]
و«إنّ شرّ الدّوابّ عند الله الصمّ البكم الّذين لا يعقلون». [الأنفال (٨)/٢٢]
و«وإذا أنعمنا على الإنسان أَعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشرّ كان يؤساً». [الإسراء (١٧)/٨٣]
و«قل أفأُنبِّئُكم بشرٍّ من ذلكُم النَّار وعدها اللهُ الّذين كفروا وبئس المصير». [الحج (٢٢)/٧٢]
و«إنَّ الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنّم خالدين فيها أولئك هم شرُّ البريّة». [البيّنة (٩٨)/٦]

أقول: مفاد الشرّ المستعمل في هذه الآيات ـ كما ترى ـ صريح في كون الشرّ أمراً وجوديّاً تحت تدبير عليم حكيم. وما كان من الشرور في الآخرة فهي نكبة ونقمة، وعذاب ونكال وهوان أعدّت للكافرين والمجرمين، وما كان منها في الدنيا، فما يرد منها لأهل الإيمان يمكن أن يكون اختباراً وكفّارة وتطهيراً لبعض آثامهم وذنوبهم، وما كان منها لغيرهم فهو عذاب في الدّنيا وأضعاف ذلك في الآخرة.

وقد أطلق الشرّ وأريد منه المضرّات والصدمات الواردة من الجبابرة والفسقة والظلمة وغيرهم على الضعفاء والمظلومين. فبعد تحقّق المعاصي والفسوق، وظهور الفساد والطغيان لابدّ من الاستعاذة والاستجارة بالله ـ سبحانه ـ لدفع هذه الشرور والمضرّات، فلا دافع ولا عاصم من القتل والنهب والتجاوز إلّا الله، فيقال أصبحتُ وأمسيتُ متحصّناً ومعتصماً بالله من شرّ كلّ دابّة من فسقة الإنس والجنّ، والعرب والعجم، ومن شرّ ما أعرف وما أنكر، وما أعلم ومالا أعلم، «ما من دابةٍ إلّا هو آخذ بناصيتها». [هود ١١/٥٦]

والعوذات والأحراز المرويّة في كتب الأدعية من هذا القبيل ما يعسر إحصاؤه. قال تعالىٰ:

«قل أعوذ بربّ الفلق * من شرّ ما خلقَ * ومن شرّ غاسقٍ إذا وقب

* ومن شرّ النّفّاثات في العُقد * ومن شرّ حاسدٍ إذا حسد». [الفلق (١١٣)/١ ـ ٥]

وهذه كلّها ناظرة إلى المضرّات الواردة من الظالمين على المظلومين وليست أموراً عدميّة، بل كلّها أمور وجوديّة والناس منهم في أمان الله وستره وحجابه، ولو ابتلى الناس بشرّ الأشرار لينتقم الله له إمّا في الدّنيا أو في الآخرة أو فيهما.

ولا مانع من إطلاق الشرّ على الحرمات أيضاً لو وجدنا مورداً استعمل فيه لفظ الشرّ.

فاتّضح أنّ من الشرور ما هو فعل لله تبارك وتعالىٰ. ومنها ما هو من آثار أعمال العباد بعضهم لبعض، فما كان فعلاً من أفعال العباد فيُنزّه الله ـ تعالىٰ ـ عنه وعن آثام خلقه وذنوبهم. وما كان منها فعلاً لله ـ تعالىٰ ـ ومن قهره وسخطه فيمجّد علىٰ عدله وجلاله.

قوله تعالىٰ: «إنّك علىٰ كلّ شيء قدير». (٢٦)

قد ذكرنا أنّ هذه الجملة في موقع التعليل لأطوار تصرّفه ـ تعالىٰ ـ من إعطاء الملك، ونزعه وإعزازه وإذلاله. وكذلك جميع الشؤون الخاصّة لمقام الألوهيّة من الإيجاد والإبقاء والإفناء. وبديهيّ أنّ القدرة في مرتبة متقدّمة على الخلق، وبعد تحقّق الخلقة والفعل أيضاً، فإطلاق القدير ولا سيّما بعد تصريحه ـ تعالىٰ ـ بقوله: «على كلّ شيء قدير» عامّ يشمل جميع المقدورات. ولايصح الاستدلال به المحال العقلي مثل خلق الشريك، أو تطوّره بأطوار خلقه، وتنزّله في مراتب مقدوراته. وكذا في خلقه الذنوب والمعاصي والقبائح الصادرة من عباده.

قوله تعالىٰ: «تُولج اللّيل في النّهار وتولج النّهار في اللّيل».

قال البيضاوي في تفسيره ١٥٥/١: وإيلاج اللّيل والنهار إدخال أحدهما في الآخر بالتعقيب أو الزيادة والنقصان.

في الصحيفة السجاديّة المباركة الكاملة من دعائه عليه السلام عند الصباح والمساء قال:

الحمد لله الّذي خلق اللّيل والنهار بقوّته، وميَّز بينهما بقدرته، وجعل

لكلّ واحدٍ منهما حدّاً محدوداً، وأمداً ممدوداً، يولج كلَّ واحدٍ منهما في صاحبه، ويولجُ صاحَبه فيه بتقدير منه للعباد فيما يغذوهم به، وينشئهم عليه.

قوله تعالىٰ: «وتُخرج الحيّ من الميّت وتخرج الميّت من الحيّ».

قال في المنار ٢٧٥/٣: وقد مثّل المفسّرون للحياة الحسيّة خروجَ النخلة من النواة والعكس، وخروج الإنسان من النطفة، والطائر ونحوه من البيضة وبالعكس. والتمثيل صحيح.

أقول: هذا التمثيل في المقام لا ينطبق علىٰ الآية، إذ ليس فيه خروج شيء عن شيء، وخروج الحيّ من الميّت وبالعكس. فهذه الأمثلة إنّما تصلح لأن تكون أمثلة للتحوّل والتبدّل. فالنطفة الإنسانيّة من مقدّمات توليد الحيّ من الميّت، وكذلك خروج النواة من النخلة من مقدمات توليد النخلة الأخرى، وليس مثالاً لانفصال الميّت من الحيّ. وخروج الإنسان من النطفة تبدّل وتحوّل.

قال في الميزان ١٤٤/٣: ويمكن أن يراد أعم من ذلك ومن خلق الأحياء كالنبات والحيوان من الأرض العديمة الشعور، وإعادة الأحياء إلى الأرض بإماتتها. فإنّ كلامه تعالىٰ كالصريح في أنّه يبدّل الميّت إلى الحيّ والحيّ إلى الميّت قال تعالىٰ: «**ثمّ أنشأناه خلقاً آخر فتبارك اللهُ أحسن الخالقين * ثمّ إنّكم بعد ذلك لميّتون**». [المؤمنون (٢٣)/١٥]، إلىٰ غيرها من الآيات.

أقول: قد ذكرنا أنّ الآية الكريمة ليست في بيان تبديل الميّت حيّاً والحيّ ميّتاً، بل الآية الكريمة في بيان انفصال الحيّ من الميّت وبالعكس. والّذي يهدينا إليه الكتاب والسنّة في معنىٰ الموت والحياة في أمثال المقام، هو الكفر والإيمان. قال تعالى:

«**أَوَ من كانَ مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في النّاس كمن مثله في الظُّلمات ليس بخارج منها**». [الأنعام (٦)/١٢٢]

و«**لينذر من كان حيًّا ويحقَّ القول على الكافرين**». [يس (٣٦)/٧٠]

فالآية الكريمة نصّ في خروج الشيء عن الشيء لا تبديل شيء إلىٰ شيء.

والتبديل الّذي هو مفاد الآية الّتي استشهد بها في المقام أجنبيّ عن هذه الآية الكريمة.

في معاني الأخبار/ ٢٩٠، عن الإمام العسكري عليه السلام قال: حدّثني أبي، عن أبيه، عن جدّه، عن الصادق عليه السلام أنّه قال:

... إنّ الله عزّ وجلّ يقول: «**يخرج الحيَّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ**». [الرّوم ١٩/٣٠] يعني: المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن».

وفي مجمع البيان ٤٢٨/٢: وقيل إنّ معناه تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن. عن الحسن. روي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام.

أقول: الظاهر أنّ اتّصافه بصفة الإيمان والكفر ليس باعتبار ما سيختار من صفة الإيمان والكفر، بل الظاهر أنّ هذا الاتّصاف باعتبار ما مضىٰ في العوالم السابقة قبل النسل من عالم الذرّ والميثاق. والروايات الواردة في هذا الباب كثيرة، ويتضمّن كثيرٌ منها خروجَ المؤمن من الكافر وبالعكس.

في الكافي ٥/٢، عن عليّ بن محمّد مسنداً عن إبراهيم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

... وقال الله عزّ وجلّ: «**يخرج الحيَّ من الميّت ومخرج الميّت من الحيّ**». [الأنعام (٦)/٩٥] فالحيّ: المؤمن الّذي تخرج طينته من طينة الكافر، والميّت الّذي يخرج من الحيّ، هو الكافر الّذي يخرج من طينة المؤمن. فالحيّ: المؤمن. والميّت: الكافر. وذلك قوله عزّ وجلّ: «**أَومن كان ميتاً فأحييناه ...**». [الأنعام ١٢٢/٦]

وفيه أيضاً/ ٦، عن أبي عليّ الأشعري، مسنداً عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

... إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قبل أن يخلق الخلق قال: كن ماءً عذباً، أخلق منك جنّتي وأهل طاعتي، وكن ملحاً أجاجاً، أخلق منك ناري

وأهل معصيتي، ثمّ أمرهما فامتزجا. فمن ذلك صار يلد المؤمن الكافر والكافر المؤمن...

وفي العلل/ ٨٣، عن محمّد بن الحسن مسنداً عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن أوّل ما خلق الله عزّ وجلّ؟ قال:

إنّ أوّل ما خلق الله ـ عزّ وجلّ ـ ما خلق منه كلّ شيء. جعلت فداك ما هو؟ قال: الماء. إنّ الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ خلق الماء بحرين: أحدهما عذب والآخر ملح. فلمّا خلقهما نظر إلىٰ العذب، فقال: يا بحر، فقال: لبّيكَ وسعديكَ. قال: فيكَ بركتي ورحمتي، ومنكَ أخلق أهل طاعتي وجنّتي. ثمّ نظر إلىٰ الآخر فقال: يا بحر، فلم يجب. فأعاد عليه ثلاث مرّات يا بحر، فلم يجب، فقال: عليكَ لعنتي، ومنك أخلق أهل معصيتي، ومَن أسكنته ناري، ثمّ أمرهما فامتزجا. قال: فمن ثمّ يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وقد فصّلنا البحث في ذلك في كتابنا «توحيد الإماميّة» في فصل مواقف التعريف، من أرادها فليراجعها.

وأعلم أنّ الآية الكريمة المبحوث عنها ـ مع قطع النظر عن ثبوت العوالم السابقة ـ تدلّ علىٰ خروج المؤمن من الكافر والعكس باعتبار ما سيختارون من الكفر والإيمان، فلا حاجة ـ في تفسير الآية ـ إلىٰ القول بالتبدّل والتحوّل حتّىٰ بناءً علىٰ عدم قبول العوالم قبل النسل.

قوله تعالىٰ: «وترزق من تشاء».

لا إشكال في إطلاق الرزق على المواهب المعنويّة والفواضل الأخرويّة. وهل هذا علىٰ نحو الحقيقة أو علىٰ نحو المجاز؟ فلا يهمّنا تحقيق ذلك.

ولا كلام أنّ الأحكام المجعولة علىٰ الرزق من التقدير والتحديد، والقبض والبسط، والحلال والحرام، إنّما هي في مرتبة تحقّق الأرزاق وخلقها، فالتقدير لأرزاق الناس كمّاً وكيفاً، وقلّة وكثرة إنّما هو من مجاري الحلال والمشروع، فالرزق المقدّر لمن يشاء بما يشاء كيف يشاء هو الرزق المشروع. وحيث إنّ كثيراً

من المرزوقين ليسوا بمؤمنين بالله بل إنّ كثيراً من أهل الإيمان أيضاً لا يراعون حدود الأحكام، وتجاوزوها وطلبوا الرزق من غير الطريق الذي أحلّه الله، فلابدّ من تقدير ثانٍ للأرزاق في مرتبة العصيان والطغيان، فقد جرت سنّة الله الحكيمة بإبقاء هذا العالم وهذا الكيان إلىٰ مدّة معلومة مقدّرة، ولا يقطع عنهم موادّ رزقه سواء أطاعوه أم عاندوه وخالفوه. وقد عبّر عن هذه السنّة المقدّسة بالرحمانيّة العامّة الشاملة للبرّ والفاجر، والمؤمن والكافر.

وواضح أنّ هذا العطاء العام ما لوحظ فيه الحنان والعطف والإكرام فحسب بل يشمل الخزي والخذلان، والإمداد والاستدراج والهوان، فقوله تعالى: «وترزق من تشاء» تمجيد لله سبحانه بالرزّاقيّة، فلا يمكن سريان إطلاقه بالنسبة إلى المخذولين أيضاً فإنّ إرزاق المخذولين إنّما هو من ناحية العدل الإلٰهي وجلاله لهوانهم وخزيهم، بخلاف إرزاق المخذولين فإنّه حنان وعطف وكرامة عليهم، فقد أغناهم الله بجلاله عن الحرام. فالمتناسب في المقام هو تمجيده ـ سبحانه ـ بالفضل والكرم، وهي سنّته الأوّليّة والقدر المتيقّن، بخلاف الهوان والخذلان فإنّه في مرتبة متأخّرة عنها، وبعد تحقّق الكفران والعصيان فيحتاج تفسير الآية بها إلىٰ مؤونة زائدة وعناية أخرى. ويحتاج أيضاً إلىٰ عدم إرادة الرزق المشروع الحلال، وهو كما ترىٰ.

فتلخّص أنّ الظاهر بحسب القواعد وبمعونة ما سيجيء من الروايات المأثورة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ الرزق المقدّر بما يشاء كيف يشاء في الآية الكريمة هو الرزق الحلال بغير حساب.

في الكافي ٧٤/٢، عن العدّة مسنداً عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: خطب رسول الله صلّى الله عليه وآله في حجّة الوداع فقال:

يا أيّها الناس والله ما من شيء يقرّبكم من الجنّة ويباعدكم من النّار إلّا وقد أمرتكم به. وما من شيء يقرّبكم من النار ويباعدكم من الجنّة إلّا وقد نهيتكم عنه. ألا وإنّ الرّوح الأمين نفث في روعي أنّه لن تموت نفسٌ حتّىٰ تستكمل رزقها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحمل أحدكم استبطاء شيء من الرزق أن يطلبه بغير حلّه، فإنّه

لا يدرك ما عند الله إلّا بطاعته.

وفيه أيضاً ٨٠/٥، عن العدّة مسنداً عن إبراهيم بن أبي ولّاد، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

ليس من نفس إلّا وقد فرض الله لها رزقها حلالاً يأتيها في عافية، وعرض لها بالحرام من وجه آخر، فإن هي تناولت شيئاً من الحرام قاصّها من الحلال الّذي فرض لها. وعند الله سواهما فضل كثير؛ وهو قوله عزّ وجلّ: «**واسألوا الله من فضله**». [النساء (٤)/٣٢]

وفيه أيضاً/ ٨١، عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن إسحاق بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ خلق الخلق، وخلق معهم أرزاقهم حلالاً، فمن تناول شيئاً منها حراماً قصّ به من ذلك حلال.

وفي الوسائل ٤٧/١٧، عن محمّد بن محمّد المفيد في المقنعة قال: قال الصادق عليه السلام:

الرّزق مقسوم علىٰ ضربين: أحدهما واصل إلىٰ صاحبه وإن لم يطلبه. والآخر معلّق بطلبه. فالّذي قسّم للعبد علىٰ كلّ حال آتيه، وإن لم يسعَ له. والّذي قسّم له بالسعي فينبغي أن يلتمسه من وجوهه؛ وهو ما أحلّه له دون غيره، فإن طلبه من جهة الحرام فوجده، حسب عليه برزقه وحوسب به.

أقول: والشواهد علىٰ ما ذكرنا كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية. ولا يخفىٰ أنّ الرزق مقسوم من الله، وقد عيّن الشارع وجوه الحلال من الرزق، وجرت المقادير والتقسيمات من الله ـ تعالىٰ ـ مضبوطة معيّنة من طريق مجاري الحلال، ولله فضل إحسان، يمكن أن يهب لمن يشاء بما يشاء بعد السؤال والإلحاح، والبرّ بالأرحام وغيرها، ولكن بعد عصيان الناس قدّر الله ـ تعالىٰ ـ تقديراً ثانياً من حيث التخلية بينهم وبين الحرام، فلا يمنع الله ـ سبحانه ـ عن ارتكاب الحرام تكويناً ـ كما هو المشاهد ـ اختباراً وامتحاناً أو استدراجاً وخذلاناً وإملاءً وهواناً. كلّ ذلك أيضاً

علىٰ قدر مقدّر.

قوله تعالىٰ: «بغير حساب». (٢٧)

الظاهر أنّ المراد هو أنّ الله لا يحاسب عليه بل يرزقه من دون حساب عليه، لا أنّه يعطي ويرزق بلا حساب ولا مقدار. وأمّا ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في النهج، الخطبة/ ٨٢:

ما أصف من دار أوّلها عناء وآخرها فناء، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب.

فالظاهر أنّ الحساب والعقاب علىٰ الأعمال لا علىٰ تعداد اللُّقَم والأكلات. فإنّ المؤمن لا تعدّ عليه لُقَمُهُ وأكلاته، ولا يحاسب الله عليه بل يرزقه بغير حساب.

في العيون ١٢٩/٢، عن أبي علي الحسين بن أحمد مسنداً عن إبراهيم بن عباس الصّولي الكاتب قال: كنّا يوماً بين يدي عليّ بن موسىٰ عليهما السلام فقال لي:

ليس في الدنيا نعيم حقيقي. فقال له بعض الفقهاء ممن يحضره: فيقول الله عزّ وجلّ: «ثمّ لتسئلن يومئذٍ عن النعيم». [التكاثر (١٠٣)/٨] أمّا هذا النعيم في الدنيا وهو الماء البارد. فقال له الرّضا عليه السلام وعلا صوته: كذا فسّرتموه أنتم وجعلتموه علىٰ ضروب: فقالت طائفة: هو الماء البارد. وقال غيرهم: هو الطعام الطيّب. وقال آخرون: هو النوم الطيّب. قال الرّضا عليه السلام: ولقد حدّثني أبي، عن أبيه أبي عبدالله الصادق عليهم السلام، أنّ أقوالكم هذه ذكرت عنده في قول الله تعالىٰ: «ثمّ لتُسألنّ يومئذٍ عن النّعيم» فغضب عليه السلام وقال: إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لا يسأل عباده عمّا تفضّل عليهم به ولا يمنّ بذلك عليهم، والامتنان بالإنعام مستقبح من المخلوقين، فكيف يضاف إلىٰ الخالق عزّ وجلّ ما لايرضى المخلوق به؟! ولكنّ النعيم حبّنا أهل البيت وموالاتنا، يسأل الله عباده عنه بعد التوحيد والنبّوة....

أقول: الظاهر أنّ السؤال عن الولاية يرجع أيضاً إلىٰ السؤال عن التسليم والانقياد بأعظم فريضة من فرائض الله، أو العصيان والكفران بها.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالىٰ: «لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياءَ».

الاتّخاذ هو الاختيار والاكتساب. والوليّ هو الصديق والمحبّ والناصر إذا استعمل في الأشخاص، وإذا استعمل في الله ـتعالىٰـ فهو بمعنى آخر غير المعاني المتصوّرة المفهومة.

قوله تعالىٰ: «من دون المؤمنين».

قد يتوهّم في بادئ الأمر أنّ «دون» فيه معنى الأنزليّة والأسفليّة، فعليه يكون المعنى: اتّخذ المؤمنون الكافرين والمؤمنين أولياء، وجعلوا المؤمنين أسفل وأنزل من الكافرين، وجعلوا المؤمنين في مرتبة دون مرتبة الكافرين في الولاية. ولكنّ الأمر ليس كذلك بل المراد أنّ الآية الكريمة خطاب لمن محّض وَدادهُ وخلوصه ووفاؤه ومحبّة سريرته وباطنه للكافرين، ولم يشرك فيها المؤمنين لا قليلاً ولا كثيراً؛ وهم الكفّار الّذين ما جعلوا لله ولاية علىٰ أنفسهم. ولو جعلوا ولاية لغير الله مع الله لصاروا مشركين. ولو جعلوا ولايتهم لغير الله بالله وبأمره وإذنه، وجعلوها ـ أيضاً ـ من شؤون ولايته ـ تعالىٰ ـ لكانوا موحّدين بالحقيقة.

ولمّا كان التولّي لأعداء الله، والتبرّي من أوليائه، من المحرّمات الضروريّة العقليّة، فتكون الآيات الواردة في هذا الباب تذكرة لحكم العقل الضروريّ. فلا يهمّنا البحث عن الإطلاق والتقييد فيها، إذ موضوعات الأحكام العقليّة صريحة، ومتعلّقاتها معلومة عند كلّ عاقل. والآيات والأخبار إرشاديّة تتّبع موارد الأمر المرشد إليه، إنّ ضيّقاً فضيّق وإنّ مطلقاً فمطلق.

فمورد البحث في هذه الآية الكريمة النصيحةُ للمؤمنين، وقد كانت لهم أرحام وأقوام من الكفّار في مكّة، ومع ذلك كان الكفّار أشدّ لجاجاً وعناداً من المؤمنين. وقد نبّه الله ـ سبحانه ـ المؤمنين أنّه لا يجوز التودّدُ إلى الكافرين وهو لا ينفع المؤمنين، إذ الكفار لا يقبلونه منهم، ولو تمكّنوا منهم لوثبوا عليهم وأبادوهم عن آخرهم.

قوله تعالىٰ: «ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء».

أي فمن ارتكب هذه الجناية الوقحة فقد انقطعت عرى الولاية بينه وبين الله تعالى، فخرج عن ولاية الله مطلقاً كما يرشد إلىٰ هذه الكلّيّة قوله تعالىٰ: «في شيء» فإنّه نكرة في سياق النفي. وقد قال ـ سبحانه ـ في سورة المائدة في ذيل نهي المؤمنين عن اتّخاذ اليهود والنصارىٰ أولياء: «ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين». [المائدة (٥)/٥١]. وقال تعالىٰ حكاية عن إبراهيم علىٰ نبيّنا وآله

وعليه السلام: «ربِّ إنَّهنَّ أَضللن كثيراً من النّاس فمن تبعني فإنَّه منّي ومن عصاني فإنَّك غفور رحيم». [إبراهيم (١٤)/٣٦]

قوله تعالىٰ: «إلّا أن تتّقوا منهم تقاةً».

فلا بأس بإعمال التقيّة مع مراعاة الشرائط الّتي أخذت في جوازها وفي مواردها.

في العيّاشي ١٦٦/١، عن الحسين بن زيد بن علي، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليه السلام قال:

كان رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ يقول: لا إيمان لمن لا تقيّة له.

ويقول قال الله: «إلّا أن تتّقوا منهم تقاةً».

قوله تعالىٰ: «ويُحذّركم اللهُ نفسه».

خطاب لجميع أهل الإيمان، وتحذير وتخويف إيّاهم بأن لا تسامحوا في شيء من جلال الله ـ سبحانه ـ وكبريائه.

قوله تعالىٰ: «وإلى الله المصير». (٢٨)

أي إلىٰ الله قضاءُ الحقّ، وحكم العدل في تشخيص الحقّ والباطل.

قوله تعالىٰ: «قل إن تُخفوا ما في صدوركم أو تُبدوه يعلمه الله».

تذكرة وإرشاد منه ـ تعالىٰ ـ إلىٰ نفوذ علمه في جميع ما يعلم سواء أكان مخفيّاً في الصدور أم ما كان ظاهراً من الأعمال.

قوله تعالىٰ: «ويعلم ما في السمٰوات وما في الأرض».

لا ينحصر علمه ـ سبحانه ـ بأعمال العباد ظاهرة وباطنة، بل يعمّ علمه وإحاطته عياناً لجميع ما سواه من الخلق من السماوات والأرض وما فيهما، وما بينهما.

قوله تعالىٰ: «والله علىٰ كلّ شيء قدير». (٢٩)

تصريح بأنّه ـ تعالىٰ ـ قادر علىٰ كلّ شيء إيجاداً وإبقاءً.

قوله تعالىٰ: **«يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً».**

الظاهر أنّ قوله ـ تعالىٰ ـ: «يوم» ظرف لوجدان ما عمل من خير وسوء. وقوله تعالىٰ: «**محضراً**» بصيغة المفعول، فيه عناية علىٰ أنّه كان فاقداً ثمّ أحضر لديه، لا أنّه كان حاضراً عنده من قبل. فهذا إخبار منه ـ سبحانه ـ علىٰ شيء من أخبار القيامة وأهوالها، وأنّ كلّ نفس تجد ما عملت من أعمال الخير حاضراً. والمراد من الحاضر إحضاره عند عامله، فأعمال السوء والأخلاق الرذيلة يواجه بها العامل، ولا يقدر دفعها عن نفسه كي يتخلّص من عارها ونكالها، ويودّ ويتمنّى أن يكون بينه وبين هذه الأعمال أمداً بعيداً، هيهات، هيهات ما ذلك بيديه. فلا محالة يعذّب بما عمل، ويبتلىٰ بعارها ونكالها.

قوله تعالىٰ: «ويحذّركم الله نفسه».

تحذير وتهديد شديد للغافلين والمتجاهلين لساحته ـ تعالىٰ ـ وعدم مراعاتهم موقعه الكريم الجليل.

قوله تعالىٰ: «والله رءُوف بالعباد». (٣٠)

الظاهر أنّ الغرض إخباره ـ تعالىٰ ـ وبيانه بأنّ القادر العليم ليس شأنه أخذ المتجاهلين والعاصين دائماً، بل هو توّاب على المذنبين ورحيم للخاطئين أيضاً، فلا محالة يجب الحذر في ساحة قدسه، وتجب المراقبة الشديدة لمقام جلاله وكبريائه.. وكذلك تجب التوبة إليه والاستغفار منه؛ ليتوب الله ـ تعالىٰ ـ علينا ويقبل إلينا بكراماته وألطافه وغفرانه.

قوله تعالىٰ: «قُل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله».

بيان: الآية الكريمة خطاب للمؤمنين الّذين تشرّفوا بمراتب من الإيمان، وتمكّنوا فيها على اختلاف درجاتهم ومقاماتهم، ويدعوهم الله ـ سبحانه ـ إلىٰ اتّباع الرّسول صلّى الله عليه وآله في جميع الموارد بما أنّه إمام مفترض الطاعة. وهذا من أعظم فرائض الله ـ سبحانه ـ علىٰ عباده المؤمنين، فإنّه صلّى الله عليه وآله يدعو الناس إلىٰ دين الله وتوحيده وطاعته، فمن هذا الحيث هو مبلّغ عن الله ـ سبحانه ـ وصادع بأمره. فليست طاعته إلّا طاعة لله، وردّه إلّا ردّاً على الله العظيم وكفراً به سبحانه. وأمّا من حيث افتراض طاعته علىٰ الناس فيما يأمر وينهىٰ، فتجب طاعته

عليهم بأمر الله ـ سبحانه ـ فالاتّباع له والائتمار بأمره، والانتهاء عند نهيه كـاشف عن أنّ الّذين يتّبعونه، حازوا مرتبة سامية من الإيمان؛ وهو حبّهم الله ـ تـعالىٰ ـ وحبّ الله ـ تعالىٰ ـ إيّاهم وغفرانه ذنوبهم.

وليس المخاطبون هم الكفّار الّذين يدعون إلى الإيمان بالله ـ تعالىٰ ـ ورسوله صلّى الله عليه وآله فإنّهم لا يقرّون ولا يعترفون بالله ـ سبحانه ـ فضلاً عن دعوىٰ حبّ الله، ولا يستوجبون حبّ الله ـ تعالىٰ ـ بمحض الإقرار والإذعان، بل حبّهم لله ومحبّة الله ـ تعالىٰ ـ إيّاهم متوقّف علىٰ شرائط من الإخـلاص والوفـاء والصـدق والصبر في جنب الله والقيام بطاعته..

فالآية الكريمة صدراً وذيلاً تنادي بأنور بيان، بأنّ المتّبعين له صلّى الله عليه وآله يحبّهم الله ويحبّونه، ويستوجبون ـ بفضله ـ تعالىٰ ـ وبوعده النافذ ـ الكرامات المكنونة، والرّحمات المختصّة بعباده الصالحين. فمفاد الآية الكريمة هي الدعوةاتّباعه صلّى الله عليه وآله بما أنّه إمام مفترض الطاعة قال تعالىٰ:

«إنّا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقّ لتحكم بـين النـاس بمـا أَراك الله». [النساء (٤)/١٠٥]

فالرأي منه صلّى الله عليه وآله صواب ومن غيره في مـقابله خـطأ. قـال تعالى:

«فلا وربّك لا يؤمنون حتّىٰ يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجـدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليماً». [النساء (٤)/٦٥]
و«وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فـانتهوا». [الحـشر (٥٩)/٧]

فلا تجب طاعة أحد علىٰ أحد إلّا طاعة الله ـ سبحانه ـ فإنّه مالك بالذات لجميع ما سواه، وطاعة مَن أعطاه الله ـ تعالىٰ ـ منصب الخلافة ومقام الإمامة، فإنّه تجب طاعته بإيجاب الله ـ تعالىٰ ـ فما أعطى الله لأحدٍ أفضل وأجلّ من الخلافة، وما أكرم الله أحداً بما أكرم الله به بعض أوليائه بـإعطائهم مـقام الإمـامة، أي مـقام افتراض الطاعة. وما جعل الله لأحد هذا المقام الخطير بمثل ما أعطىٰ محمّداً صلى

الله عليه وآله. فمعرفته صلّى الله عليه وآله بمقام إمامته الكبرىٰ وولايته العظمىٰ من نفائس علوم القرآن، وإمامته صلّى الله عليه وآله أوسع حدوداً من إمامة النبيّين الّذين كانوا أئمّة، وأوسع أيضاً من مقام أوصيائه الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

فتحصّل أنّ مرتبة هذا الاتّباع، وما يترتّب عليه من الآثار الصالحة إنّما هي بعد مرتبة الإيمان بالله وتوحيده، وامتثال فرائضه واجتناب نواهيه بحسب مفاد الآية الكريمة.

في روضة الكافي / ٢٤، عن محمّد بن علىٰ مسنداً عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة الوسيلة قال:

... ولا مصيبة عظمت ولا رزيّة جلّت كالمصيبة برسول الله صلّى الله عليه وآله؛ لأنّ الله ختم [حسم] به الإنذار والإعذار، وقطع به الاحتجاج والعذر بينه وبين خلقه، وجعله بابه الّذي بينه وبين عباده، ومهيمنه الّذي لا يقبل إلّا به، ولا قربة إليه إلّا بطاعته. وقال في محكم كتابه: «مَن يطع الرّسول فقد أطاع الله ومَن تولّىٰ فما أرسلناك عليهم حفيظاً» [النساء (٤)/٨٠] فقرن طاعته بطاعته ومعصيته بمعصيته، فكان ذلك دليلاً علىٰ ما فوّض إليه، وشاهداً له علىٰ من اتّبعه وعصاه. وبيّن ذلك في غير موضع من الكتاب العظيم؛ فقال ـ تبارك وتعالىٰ ـ في التحريض علىٰ اتّباعه، والترغيب في تصديقه، والقبول لدعوته: «قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفرلكم ذنوبكم». [آل عمران ٣/ ٣١]

فاتّباعه صلّى الله عليه وآله محبّة الله، ورضاه غفران الذنوب، وكمال الفوز ووجوب الجنّة، وفي التولّي عنه والإعراض محادّة الله وغضبه وسخطه، والبعد عنه مسكن النار، وذلك قوله: «ومن يكفر به من الأحزاب فالنّار موعده». [هود (١١)/١٧] يعني الجحود به والعصيان له.

قوله عليه السلام: فقرنَ طاعته بطاعته، توضيح منه عليه السلام أنّ

المستفاد من الآية الكريمة أنّ طاعة الرسول صلّى الله عليه وآله قرين وعديل لطاعته، إلّا أنّ طاعته ـ تعالىٰ ـ واجبة بذاتها، يدركها الإنسان بعقله من دون احتياج إلىٰ جعل وتشريع، وطاعة الرسول واجبة بإيجابه ـ تعالىٰ ـ وتشريعه.

وقوله عليه السلام: وكان ذلك دليلاً علىٰ ما فوّض الله إليه. الظاهر أنّ ذلك، إشارة إلى المقارنة المذكورة، ضرورة أنّ استقلاله صلّى الله عليه وآله بالأمر والنهي وبأمره ـ تعالىٰ ـ دليل قاطع علىٰ أنّ له صلّى الله عليه وآله حقّ الأمر والنهي من الله في الموارد الّتي أمر بها تعالىٰ، وأذن له صلّى الله عليه وآله بها. ثمّ استدلّ علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: «إن كنتم تحبّون الله ...». وصرّح أنّ اتّباع الرسول محبّة الله ورضاه غفران الذنوب، وكمال الفوز ووجوب الجنّة.

وفيه أيضاً/ ١٤، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن حفص المؤذّن، عن أبي عبدالله عليه السلام في رسالته إلىٰ جماعة الشيعة، قال:

> مَن سرّه أن يعلم أنّ الله يحبّه فليعمل بطاعة الله وليتّبعنا، أَلم يسمع قول الله عزّ وجلّ لنبيّه صلّى الله عليه وآله: «قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني ...»؟ واللهِ، لا يطيع اللهَ عبدٌ أبداً إلّا أدخل الله عليه في طاعته اتّباعنا. ولا والله، لا يتّبعنا عبدٌ أبداً إلّا أحبّه الله. لا والله، لا يدع أحد اتّباعنا أبداً إلّا أبغضنا. ولا والله، لا يبغضنا أحد أبداً إلّا عصى الله. ومَن مات عاصياً لله أخزاه اللهُ وأكبّه علىٰ وجهه في النار. والحمدُ لله ربّ العالمين.

أقول: قوله عليه السلام: وليتّبعنا، عطف علىٰ قوله: فليعمل بطاعة الله وهو عطف الخاصّ على العامّ، وإظهار للخصوصيّة الّتي في الاتّباع وهي الطاعة الخاصّة لله. ثمّ صرّح عليه السلام بالفرق بين الطاعة لله من غير اتّباعهم والطاعة المقرونة باتّباعهم، وأنّ كلّ عبد يطيع الله ـ سبحانه ـ يدخله الله بإطاعته هذه في اتّباع الرّسول ـ صلّى الله عليه وآله وآله ـ عليهم السلام. وقد جرت سنّة الله الحكيمة أنّ يحبّ من يحبّ أولياءَه واتّبعهم، وهكذا جعل معصيتهم معصيته.

وفي تفسير العيّاشي ١٦٧/١، عن بشير الدّهان، عن أبي عبدالله عليه

السلام قال:

قد عرفتم فيَّ منكرين كثيراً وأحببتم فيَّ مبغضين كثيراً. وقد يكون حبّاً لله وفي الله ورسوله، وحبّاً في الدّنيا. فما كان في الله ورسوله فثوابه على الله، وما كان في الدنيا فليس في شيء.. ثمّ نفض يده ثمّ قال: إنّ هذه المرجئة، وهذه القدريّة، وهذه الخوارج ليس منهم أحد إلّا يرىٰ أنّه علىٰ الحقّ، وإنّكم إنّما أحببتمونا في الله ثمّ تلا: «**أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرّسولَ وأُولي الأمرِ منكم**». [النساء (٤)/٥٩] «**وما آتاكم الرسولُ فخُذوهُ وما نهاكُم عنه فانتهُوا**». [الحشر (٥٩)/٧] «**مَن يطع الرسول فقد أَطاع الله**». [النساء (٤)/٨٠] «**إن كنتم تحبّون اللهَ فاتبعوني ...**».

أقول: وجه تمسّكه عليه السلام في شأن الحبّ بالآيات الأربع الّتي أساس الكلام فيها على الطاعة والاتّباع، هو أنّ الظاهر من كلامه عليه السلام أنّ طاعتهم واتّباعهم لاينفكّ عن حبّهم، فالحبّ مقرون بالطاعة والاتّباع، أو حبّهم يورث طاعتهم واتّباعهم، أو أنّ طاعتهم واتّباعهم يورثان حبّهم.

فهذه الرواية ـ وغيرها من الروايات الّتي في سياقها ـ تدلّ علىٰ تعميم وجوب اتّباع الرسول على اتّباعهم، وأنّ قوله تعالىٰ: «**اتّبعوني يحببكم الله**» يشمل اتّباعهم أيضاً، ويترتّب على اتّباعهم ما يترتّب على اتّباع الرسول صلّى الله عليه وآله، وأنّ الإمامة المجعولة لرسول الله صلّى الله عليه وآله مجعولة لهم أيضاً، وأنّ المراد من قوله تعالى: «**وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**» هي الأوامر والنواهي الصادرة عنه صلّى الله عليه وآله من حيث مقام الخلافة والإمامة، لا الأحكام الشرعيّة الّتي تنزل عليه وتوحىٰ إليه صلّى الله عليه وآله، وأنّ طاعة الرّسول صلّى الله عليه وآله في الآيتين، وطاعة أولي الأمر في إحداهما بلحاظ أنّ طاعة الرّسول صلّى الله عليه وآله وأولياء الأُمور إنّما هي من حيث مقام الإمارة المجعولة له صلّى الله عليه وآله ولأوليائه عليهم السلام.

وأمّا الكلام في تعيين موارد التفويض، وبعبارة أخرىٰ بيان موارد وجوب

طاعته وطاعة أوصيائه عليهم السلام واتّباعهم فليطلب من مظانّه. والبحث هاهنا في أنّ جميعهم على اختلاف درجاتهم ومقاماتهم يجب اتّباعهم فيما أمروا ونهوا بحسب مقام إمامتهم فضلاً عن مقام تبليغهم أوامر الله وأحكامه من الحلال والحرام والفرائض.

والروايات في وجوب طاعتهم بلحاظ مقام خلافتهم متواترة عن طرق الشيعة. وقد ورد كثير منها في تفسير قوله تعالى: **«وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»**.

في الكافي ٢٦٧/١، عن محمّد بن يحيىٰ مسنداً عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

> إنّ الله تبارك وتعالىٰ أدّب نبيّه صلّى الله عليه وآله فلمّا انتهىٰ به إلىٰ ما أراد قال له: **«وإنّك لعلىٰ خلق عظيم»** [القلم (٦٨)/٤] ففوّض إليه دينه فقال: **«وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»**. وإنّ الله ـ عزّ وجل ـ فرض الفرائض ولم يقسم للجدّ شيئاً، وإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أطعمه السدس فأجاز الله جلّ ذكره ذلك، وذلك قول الله عزّ وجل: **«هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب»** [ص (٣٨)/٣٩].

وفيه أيضاً، عن محمّد بن يحيىٰ مسنداً عن عبدالله بن سنان قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

> لا والله، ما فوّض الله إلىٰ أحد من خلقه إلّا إلىٰ رسول الله صلّى الله عليه وآله وإلى الأئمة عليهم السلام. قال الله عزّ وجلّ: **«إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين النّاس بما أراك الله»**. [النساء (٤)/١٠٥] وهي جارية في الأوصياء عليهم السلام.

وفيه أيضاً، عن العدّة مسنداً عن زرارة قال: سمعتُ أبا جعفر وأبا عبدالله عليهما السلام يقولان:

> إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ فوّضَ إلىٰ نبيّه صلّى الله عليه وآله أمر خلقه؛

لينظر كيف طاعتهم، ثمّ تلا هذه الآية : «وما آتاكم الرّسول فخذوه ...».

وفي الاحتجاج ١١٧/٢، في احتجاج الصادق عليه السلام علىٰ أبي حنيفة، قال عليه السلام :

تزعم أنّكَ تفتي بكتاب الله ولست ممّن ورثه. وتزعم أنّكَ صاحب قياس؛ وأوّل مَن قاس إبليس لعنه الله، ولم يُبنَ دين الإسلام على القياس. وتزعم أنّكَ صاحب رأي؛ وكان الرأي من رسول الله صلّى الله عليه وآله صواباً ومن دونه خطأً؛ لأنّ الله ـ تعالىٰ ـ قال: «فأحكم بينهم بما أنزل اللهُ». [المائدة (٥)/٤٨] ولم يقل ذلك لغيره.

أقول: الآية في سورة المائدة: «وأن احكم بينهم». ويمكن أن يكون المراد منه قوله تعالى: «إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك الله». [النساء (٤)/١٠٥]

معنى المحبّة

محبّة العباد لربهم ومحبّة الله سبحانه لعباده قد ورد في الكتاب والسنّة كثيراً، ولا إشكال في ثبوت هذه الحقيقة القرآنيّة، ولا كلام في أنّ نيل هذا المقام والفوز به من أجلّ مراتب الإيمان. قال تعالىٰ:

«والّذينَ آمنوا أشدُّ حبّاً لله». [البقرة (٢)/١٦٥]

و«فسوف يأتي الله بقومٍ يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين». [المائدة (٥)/٥٤]

و«والله يحبُّ المتطهّرين». [التوبة (٩)/١٠٩]

الحبُّ في المخلوقات علىٰ أقسامه وأنواعه بحسب مقامات الأشخاص، وتفاوت أفكارهم مثل حبّ الرئاسة والعلم والسلطنة والزعامة والجاه والمال والأولاد والنساء والشهوات والفساد، كلّ ذلك أمور وجوديّة اختياريّة، منها ما هو مذموم قبيح يجب تهذيب النفس وتطهيرها منه، ومنها ما هو حسن محمود

يجب تحصيله وتحلية النفس به. وكلّ هذه أمور اختياريّة كسبيّة للإنسان بلا واسطة أو بوسائط خفيّة أو جليّة، فيجب على الإنسان التخلّص من قيود الميول النفسانيّة، والتطهّر منها، وانتخاب ما هو المحمود والمأذون به بحسب العقل والشرع.

ولا فرق بين الحبّ وغيره من أفعال الجوانح الّتي هي أصول الأخلاق من الصبر والتواضع، والكبر والإنكار والإيمان، والطمع والمناعة والنزاهة وغيرها؛ وكلّها أفعال اختياريّة للإنسان في مرتبة متقدّمة علىٰ أعمال الجوارح، منبعثة من الشعور والإدراك، فعلاً كان أو انفعالاً؛ ومرجع الانفعال أيضاً هو الفعل.

فالمشعور به في الجميع ما هو المشهود بالوجدان وهو أنّها أفعال اختياريّة حسنة كانت أو قبيحة، يقصدها الإنسان لأجل نفسه، والغاية والغرض يرجع إليه. يقصدها الفاعل لإدراك كمال أو جبران نقيصة، أو دفعها أو تحصيل نشاط أو غيرها من الأغراض. وليس بين هذه الميول النفسانيّة وبين حبّ العبد لله ـ سبحانه ـ شبه واشتراك. فإنّ متعلّق الحبّ فيها أمور ماديّة أو معنويّة يدركها الإنسان ويميل إليها، ويحبّها لآماله وأغراضه بخلاف حبّه تعالىٰ، فإنّ نفس ذاته ـ سبحانه ـ والعلم والعرفان به في عين حقانيّته وظهوره، لا مناسبة بينه وبين ما سواه. وكذا معنىٰ حبّ الله ـ تعالىٰ ـ عباده فإنّه لا يمكن الترديد والتشكيك فيه. وما فسّروه به من إيثار الطاعة وغيره فتفسير بلوازمه وآثاره.

وتفسير المحبّ بالمطيع والمشتاق مع وضوح معنىٰ وحقيقة كلّ منهما إخلاءٌ للفظ الحبّ عن معناه الحقيقي، أو التزام بأنّ الطّاعة والشوق والحبّ ألفاظ مترادفة.

نقل في المنار ١٩٩/٣، عن الغزالي أنّه قال في معنىٰ محبّة الله للعبد في الإحياء: قد ذكرنا أنّ محبّة الله ـ تعالىٰ ـ حقيقة وليست بمجاز، إذ المحبّة في وضع اللّسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق... فأمّا حبّ الله العبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنىٰ أصلاً، حتّى أنّ اسم الوجود الّذي هو أعمّ الأشياء اشتراكاً لا يشمل الخالق والخلق علىٰ وجه واحد، بل كلّ ما سوى الله ـ تعالىٰ ـ فوجوده مستفاد من وجود الله تعالىٰ فالوجود التابع لايكون مساوياً للوجود المتبوع، وإنّما الاستواء علىٰ إطلاق الاسم... وواضع اللّغة إنّما وضع هذه الأسامي أوّلاً للخلق،

فإنّ الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق، فكان استعمالها في حقّ الخالق بطريق الاستعارة والتجوّز والنقل.

أقول: إنّه وإن أصاب في عدم تجويز إطلاق الألفاظ بمعانيها الموجودة في الخلق علىٰ الخالق تنزيها لساحته ـ تعالىٰ ـ عن هذه المعاني، إلّا أنّ التزامه بالاستعارة والتجوز هدم ما بناه أوّلاً، كيف والاستعارة والتجوّز متوقّفان على التشبيه والعناية. وهذا أهون من القول بالتشكيك في حقيقة أسمائه تعالىٰ وأوصافه، فإنّ بناء التشكيك علىٰ تقديسه ـ تعالىٰ ـ عن جميع ما في الخلق مع إبقائه وحفظه السنخيّة، وبناء المجاز والاستعارة علىٰ التشبيه المطلق والتناسب بين المعنى الحقيقي والمجازي.

قال في الميزان ٤١١/١: إنّ الحبّ تعلّق وجودي وانجذاب خاصّ بين العلّة المكمّلة أو ما يشبهها والمعلول المستكمل أو ما بشبهه... إنّ الحبّ ذو مراتب مختلفة من الشدّة والضعف، فإنّه رابطة وجوديّة، والوجود مشكّل في مراتبه... إنّ الله ـ سبحانه ـ أهل للحبّ بأيّ جهة فرضت فإنّه تعالىٰ في نفسه موجود ذو كمال غير متناه، وأي كمال فرض غيره فهو متناه، والمتناهي متعلّق الوجود بغير المتناهي، وهذا حبّ ذاتيّ مستحيل الارتفاع... إنّ الحبّ لمّا كانت رابطة وجوديّة، والروابط الوجوديّة غير خارجة الوجود عن وجود موضوعاتها ومن تنزّلاته، أنتج ذلك أنّ كلّ شيء فهو يحبّ ذاته، وقد مرّ أنّه يحبّ ما يتعلّق بما يحبّه، فيحبّ آثار وجوده. ومن هنا يظهر أنّ الله ـ سبحانه ـ يحبّ خلقه لحبّ ذاته.

قال الفيض في أصول المعارف /٣٤: وإذ ثبت ابتهاجه ـ سبحانه ـ بذاته ثبت ابتهاجه بلوازمه وآثاره الّتي هي موجودات العالم بأسرها، إذ كلّ من أحبّ ذاتاً متّصفة بالبهاء والكمال، فلا محالة يحبّ ما يصدر عنه، وينشأ منه بذاته من الآثار واللّوازم من حيث إنّها تصدر عنه وتنبعث منه. ولمّا لم يكن للمخلوقات حيثيّة سوى كونها أثراً من آثار ذاته، ورشحاً من رشحات فيضه وجوده فلا يمكن أن يتعلّق بها ابتهاج ومحبّة منه ـ سبحانه ـ إلّا من جهة ابتهاجه بذاته ومحبّته لها، فابتهاجه بها منطوٍ في ابتهاجه بذاته بل هو هو بعينه. ومن هنا قال بعض أهل

المعرفة عند سماع قوله تعالىٰ: «يحبّهم ويحبّونه» : بحقّ يحبّهم فإنّه ليس يحبّ إلّا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه، فلا يتجاوز حبّه ذاته وتوابع ذاته من حيث تعلّقها بذاته، فهو إذن لا يحبّ إلّا نفسه، انتهىٰ كلامه. ولمّا كان الابتهاج عبارة عن نفس الإدراك وإدراكه سبحانه للأشياء وعلمه بها وصدورها عنه علىٰ نحو من الترتيب، فكلّ ما هو أقرب منه وأشرف وأكمل في سلسلتي البدء والرجوع فهو أحبّ إليه.

وقال في الأسفار ١٨٣/٧: فُعلم أنّ العشق الجامع لكلّ معشوقات الأشياء على ثلاثة أنحاء: الأكبر والأوسط والأصغر، فالعشق الأكبر عشق الإلٰه جلّ ذكره؛ وهو لا يكون إلاّ للمتألّهين الكاملين الّذين حصل لهم الفناء الكلّي، وهؤلاء المشار إليه في قوله تعالىٰ: «يحبّهم ويحبّونه». فإنّه في الحقيقة ما يحبّ إلّا نفسه لا غيره، فالمحبّ والمحبوب في الطرفين شيء واحد....

أقول؛ المتحصّل من كلماتهم أنّ الله ـ تعالىٰ ـ حيث أدرك أنّه مبدأ كلّ جمال وزينة وبهاء، ومنشأ كلّ حسن ونظام، ابتهج بإدراك ذاته، ومعلوم أنّ المدرَك كلّما كان أجمل وأبهىٰ كان الابتهاج أشدّ وأقوىٰ وأجلّ، فابتهاجه تعالىٰ بإدراك نفسه أشدّ وأجلّ. وإذا ثبت ابتهاجه بذاته ثبت ابتهاجه وحبّه بلوازم ذاته وآثاره، إذ ابتهاج ذاته ليس إلا من جهة إدراك أنّه مبدأ كلّ هذه الآثار، فلا محالة يكون حبّ ذاته هو بعينه حبّ لوازم ذاته وآثاره الصادرة عنه، ويكون ابتهاجه وحبّه ـ تعالىٰ ـ ذا مراتب تشكيكيّة باعتبار مراتب آثاره تعالىٰ في الجمال والبهاء، فما تكون مرتبته أقرب إليه ـ تعالىٰ ـ يكون حبّه تعالىٰ له أشدّ، كما أنّ صدوره عنه ـ تعالىٰ ـ كذلك حتّى قالوا: لو لم يكن عشق لما يوجد موجود كما قالوا في الإنسان: إنّه لو لم يوجد في الإنسان شوق لم يصدر منه فعل.

هذا خلاصة ما قالوا في محبّة الله ـ تعالىٰ ـ لعباده ومحبّة العباد لربّهم، ولا مسوّغ لإطالة الكلام في المقام في بحث التفسير، والغرض من إيرادها في المقام هو التذكرة للدارسين كي يواظبوا ويراقبوا أنفسهم أن لايقعوا في هذه الشبهات المظلمة الموهومة، وأن يحترزوا من تصوّره ـ سبحانه ـ بهذه الفرضيّات الّتي لا سبيل إلىٰ

إثباتها. وأنت ترى أنّهم أثبتوا حبّه ـ تعالىٰ ـ بجميع الموجودات في العالم حتّى الشيطان والظالمين والعاصين والمتمرّدين والمعاندين، والحال أنّ الكتاب والسنّة ينفيان حبّه ـ تعالىٰ ـ بغير المطيعين من عباده.

أمّا تفسير محبّته ـ تعالىٰ ـ لعباده بحسب الكتاب والسنّة فإنّه لا يحبّ الكافرين ولا يحبّ الفساد، فيجب تقديس الربّ وتنزيهه عن حبّ الكافرين والمفسدين والكفر والفساد. ولا سبيل إلىٰ تعقّل محبّته ـ تعالىٰ ـ وتصوّرها، ولا يجوز تفسيرها بالابتهاج والإرادة والعلم ونحوها. نعم، لمّا كان حبّه فعلاً من أفعاله سبحانه ونسب إلىٰ نفسه القدّوس أنّه يحبّ المحسنين والمتطهّرين. وصرّح في محكم كتابه ووعد حبّه لمن اتّبع رسوله صلّى الله عليه وآله، فالطريق الوحيد في المعرفة بحبّه ـ تعالىٰ ـ هو الاستدلال بالآيات والعلامات الدالّة عليه، وإثباته خارجاً عن حدّ التشبيه والتعطيل من دون تصوّر وتوهّم وفرض ومثال وتشبيه وسنخيّة، فآيات حبّه ـ تعالىٰ ـ لعباده هي مواهبه ونعماؤه وإحسانه علىٰ سبيل الكرامة لا على سبيل الاستدراج والإملاء.

في البحار ١٣٢/٩٤، في مناجاة عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال:

... إلهي كم تتحبّب إلي بالنّعم وأنت غنيّ عنّي، وأتبغّض إليك بالمعاصي وأنا إليك محتاج ...

أقول: إعطاؤه ـ تعالىٰ ـ مواهبه وكراماته وتشريفاته دليل قطعيّ علىٰ حبّه، فيعرّف ـ تعالىٰ ـ نفسه إلىٰ أولي الألباب بالآئة ونعمائه؛ وهذا برهان علىٰ أنّهوصول، ودود، بارّ، عطوف.

وفيه أيضاً ٢٢/٧٠، عن قصص الأنبياء، عن الصدوق مسنداً عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

أوحى الله ـ تعالىٰ ـ إلىٰ موسىٰ عليه السلام: أحببني وحبّبني إلىٰ خلقي. قال موسىٰ: يا ربّ إنّك لتعلم أنّه ليس أحد أحبّ إلىٰ منكَ فكيف لي بقلوب العباد؟ فأوحى الله إليه: فذكّرهم نعمتي وآلائي فإنّهم لا يذكرون منّي إلّا خيراً.

وفيه أيضاً، عن المحاسن، عن عبد الرحمن بن حمّاد، عن حنّان بن سدير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: قال الله:

ما تحبّب إلىٰ عبدي بشيء أحبّ إلىٰ ممّا افترضته عليه، وإنّه ليتحبّب إليّ بالنافلة حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به، وبصره الّذي يبصر به، ولسانه الّذي ينطق به، ويده الّتي يبطش بها، ورجله الّتي يمشي بها، إذا دعاني أجبته، وإذا سألني أعطيته....

هذا بالنسبة إلىٰ طريق معرفة حبّة ـ تعالىٰ ـ لعباده، وأمّا حُبّ العباد لله سبحانه فما أكثر مدّعي الحبّ من أهل البدع والنصّاب والمنحرفين عن الرسول صلّى الله عليه وآله والأئمّة الطاهرين ـ عليهم السلام ـ ولاسيّما المتصوّفة الّذين لهجوا بكلمة الحبّ والعشق وتولّعوا بالوجد والسّماع، إلّا أنّ أئمّة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ قلعوا أساس هذه الأوهام والخرافات، وبيّنوا أنّه ليس إلىٰ حبّه ـ تعالىٰ ـ سبيل إلّا بالطّاعة والتقوىٰ بعلم مفروض من الكتاب والسنّة، وبفقه مشروع عن طريق الدّين. وعلامة حبّ العبد ربّه هو إيثار الطاعة والتقوىٰ، وتقديم رضاه ـ تعالىٰ ـ علىٰ آماله ومشتهياته.

في البحار ١٤/٧٠، عن أمالي الصدوق، عن أبيه مسنداً عن المفضّل، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

كان فيما ناجى الله ـ عزّ وجلّ ـ به موسىٰ بن عمران عليه السلام [أن قال له: يا ابن عمران: كذب من زعم أنّه يحبّني، فإذا جنّه اللّيل نام عنّي. أَليس كلّ محبّ يحبّ خلوة حبيبه؟ ها أنا ذا يا ابن عمران] مطّلع علىٰ أحبّائي إذا جنّهم اللّيل حوّلت أبصارَهم ومثّلت عقوبتي بين أعينهم. يخاطبوني عن المشاهدة ويكلّموني عن الحضور. يا ابن عمران هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع في ظلم اللّيل، وادعني فإنّك تجدني قريباً مجيباً.

وفيه أيضاً / ٢٤، عن فلاح السائل، روى الحسين بن سيف صاحب الصادق عليه السلام في كتاب أصله الّذي أسنده إليه قال: سمعت أبا عبدالله عليه

السلام يقول:

لا يمحّض رجل الإيمان بالله حتّىٰ يكون الله أحبّ إليه من نفسه وأبيه وأمّه وولده وأهله وماله، ومن النّاس كلّهم.

وفيه أيضاً / ١٥، عن أمالي الصدوق، عن ابن المتوكّل مسنداً عن ابن أبي عمير، عمّن سمع أبا عبدالله عليه السلام يقول:

ما أحبّ الله عزّ وجلّ من عصاه ثمّ تمثّل فقال:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه   هذا محال في الفعال بديعُ

لو كان حبّكَ صادقاً لأطعته   إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيعُ

وفي النهج، الخطبة/ ١٦٠، قال عليه السلام:

فتأسَّ بنبيّكَ الأطيبِ الأطهرِ صلّى الله عليه وآله فإنَّ فيه أسوةً لمن تأسّىٰ، وعزاءً لمن تعزّىٰ، وأحبُّ العِبادِ إلى الله المتأسّي بنبيّه والمقتصُّ لأثرهِ، قَضَمَ الدّنيا قضماً ولم يُعِرها طَرفاً.

وفيه أيضاً، الخطبة/ ٨٧، قال عليه السلام:

عبادَ الله! إنّ مِن أحبِّ عبادِ الله إليه عبداً أعانهُ اللهُ علىٰ نفسه، فاستشعرَ الحُزنَ، وتجلببَ الخوفَ، فزهرَ مِصباحُ الهُدىٰ في قلبهِ، وأعدَّ القِرىٰ ليومِهِ النازِل به، فقرَّبَ علىٰ نفسِهِ البعيدَ، وهوَّنَ الشدِيدَ، نظَر فأبصرَ (فأقصر) وذكرَ فاستكثرَ، وارتوىٰ مِن عذبِ فُراتٍ سُهِّلَت له موارِدُه، فَشرِبَ نَهلاً، وسلكَ سبيلاً جَدَداً، قد خلعَ سرابيلَ الشّهواتِ، وتخلّىٰ مِنَ الهُمومِ إلّا همّاً واحداً أنفرد به، فخرجَ من صفةِ العمىٰ، ومُشاركة أهلِ الهوىٰ، وصارَ من مفاتيحِ أبوابِ الهُدىٰ، ومغالِيقِ أبوابِ الرّدىٰ، قد أبصرَ طريقَهُ وسلكَ سبيلَه، وعرَفَ منارَه وقطعَ غمارَه، واستمسكَ من العُرىٰ بأوثقِها، ومِن الحِبالِ بأمتنِها، فهو من اليقينِ علىٰ مِثل ضوءِ الشّمس، قد نصبَ نفسَه لله ـ سبحانه ـ في أرفع الأُمور، من إصدارِ كلّ واردٍ عليه، وتصيير كلّ فرعٍ إلىٰ أصله. مصباحُ ظُلماتٍ كشّافُ عشواتٍ

(غشوات)، مِفتاحُ مُبهمَاتٍ، دَفّاعُ معضلاتٍ، دليلُ فلواتٍ، يقولُ فيُفهِمُ، ويسكتُ فَيسلمُ، قد أخلصَ لله فاستخلَصَهُ، فهو من معادِنِ دينه، وأوتادِ أرضه. قد ألزمَ نفسَه العدلَ، فكان أوّلَ عدِله نفيُ الهَوىٰ عن نفسِهِ، يصِفُ ٱلحقَّ ويعملُ به، لا يدَعُ للخيرِ غايةً إلّا أمَّهَا، ولا مَظِنَّةً إلّا قصدَها، قد أمكنَ الكتابَ من زِمامِهِ، فهُوَ قائِدُهُ وإمامُهُ، يَحُلُّ حيثُ حَلَّ ثَقلُهُ، وينزِلُ حيثُ كانَ منزِلُهُ.

فتلخّص في المقام أمور:

الأوّل: أنّ محبّة الله ـ تعالىٰ ـ مختصّة بعباده المؤمنين المطيعين. والآية الكريمة المبحوث عنها تقيد إطلاقات أدلّة الحبّ باتّباع الرسول صلّى الله عليه وآله، وحيث إنّ هذا الاتّباع من شؤون شخصه صلّى الله عليه وآله بلحاظ مقام الخلافة، يرثه خلفاؤه في جملة ما يرثونه من الشؤون الخاصّة بمقام الخلافة، غاية الأمر لابدّ من تحديد هذا الاتّباع بالأدلّة الناظرة إلىٰ هذا الباب.

الثاني: أنّ محبّة الله ـ تعالىٰ ـ لعباده الصالحين من جملة أفعاله ومن شؤون رحمته الخاصّة لأوليائه، فليس لغيرهم فيه نصيب، بخلاف ما ذهب إليه المتصوّفة من أنّ كلّ ما هو معلوم له ـ تعالىٰ ـ محبوب له على الترتيب الصدوريّ، فأحبّ خلقه إليه أقرب إليه بحسب مراتب الصدور، الأحبّ فالأحبّ.

الثالث: أنّ طريق معرفة حبّه ـ تعالىٰ ـ لأوليائه وأهل الكرامة عليه، إنّما هو بالآيات والعلامات وهو من أجلّ مقامات الإيمان، فيرجع الأمر إلىٰ عرفانه ـ تعالى ـ بالبرّ والرأفة، والعطف والحنان، وخاصّة ظهور عطفه وحنانه ـ تعالىٰ ـ فيما خاطب به حبيبه ورسوله بأنواع التكريم والتشريف، وفيما يقصّ عليه من قصص أحبّائه المصطفين، وبما أكرمهم وشرّفهم وبما خصّصهم بالمكانة العليا، وهذا من النواحي العجيبة من علوم القرآن. قال تعالىٰ:

«وألقيتُ عليكَ محبّةً منّي ولِتُصنَعَ علىٰ عيني ... واصطنَعْتُكَ لنفسي». [طه (٢٠)/٣٩ و ٤١]

و«واصبر لحكمِ ربّك فإنّك بأعيننا». [الطور (٥٢)/٤٨]

فلابدّ من التفكّر والتدبّر والخضوع عند قراءة هذه الآيات كي يجد القارئ حلاوة مخاطبة الله ـ تعالىٰ ـ لعباده الصالحين ومزيد لطفه وإكرامه لهم، وحينئذٍ ينشرح صدره للإيمان، وتنزل السكينة عليه، ويحصل له الإذعان لله ـ تعالىٰ ـ بأنّه هو البارّ الوصول العطوف، وهذا عين المعرفة بالله بلحاظ عطفه وحنانه. وتشتدّ هذه السكينة الإلهيّة لدى القارئ ويزيده الله هدىً علىٰ هداه، ويقلّب قلب المؤمن بما يشاء، ويكرمه بالمزيد من نعمه. وحينئذٍ يرجو من فضله ـ تعالىٰ ـ أن يوقع في قلب المؤمن حبّه، فمن البعيد جدّاً عند تحبّبه ـ تعالىٰ ـ لعبده وتعريفه نفسه، وتودّده بآيات تطوّله وحنانه وإكرامه، أن لا يشرح صدرَ عبده بحبّه، فحينئذٍ يتلاقى الحبّان، وقلّما ينفكّ أحد الحبّين عن الآخر، فمَن استأنس بحريم القرب، وتمكّن من موقف الأنس، لا يجوز له الاسترسال واللّعب والتغزّل، والوجد والسماع، كما هو دأب المبتدعة من الصوفيّة، وهذا دليل على احتجابهم وخذلانهم، وشدّة حماقتهم وجهالتهم وبلادتهم. وبديهيّ أنّ هذا خلاف السيرة المسلّمة من الأوصياء والأنبياء عليهم السلام، وإهانة لعظمة المقام وخطر الموقف، وعذرهم بفنائهم في الله، وغفلتهم عن الدّنيا الدنيّة وما فيها، وهو أشنع من جرمهم. وبهذا تتبدّل السكينة بالقسوة، والأدب باللّعب، فمن الواجب بضرورة العقل البديهيّ على الّذين أكرمهم الله ـ سبحانه ـ بالتشرّف بين يديه، وقرّبهم من حريم قدسه، أن يراقبوا جلالَ الله، وأن يتواضعوا لكبريائه تواضعَ الخائفين القانتين، وأن يبالغوا في مراعاة آداب الحضور من التسبيح والتقديس والتمجيد.

فتحصّل أنّ حبّه ـ تعالىٰ ـ لعباده، ومحبّة العباد لربّهم، متوقف علىٰ التمكّن التامّ، والتثبّت الكامل في مقام الطاعة والتقوىٰ. والآية الكريمة في مقام تقييد الطاعة والتقوىٰ باتّباع الرّسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ وآلِهِ الطاهرينَ ـ عليهم السلام ـ فدعوى الحبّ لله من دون اتّباعهم هي دعوىٰ غير صحيحة، بل ردّ وإنكار علىٰ الله في أعظم فريضة من فرائضه.

الرابع: تبيّن ممّا ذكرنا أنّ مفاد الأدلّة: هو إثبات محبّة الله بالآيات والعلامات الدالّة عليها، خارجة عن الحدّين من غير تصوّر وتشبيه وتحديد، ومرجعه تعالىٰ

تعريفه ـتعالىٰـ نفسه، وتحبّبه بإعمال برّه وصلته وإحسانه. وهكذا محبّة العباد لربّهم، مرجعها معرفة العبد ربّه أنّه ـسبحانهـ يكرمه ويشرّفه ويصطفيه بكرامات خاصّة ومواهب عظيمة، فيقلّب قلب المؤمن بخواطر توجب تعظيماً وإقبالاً وسكينة خاصّة، وهذا لا يفي به البيان. وكلتا المعرفتين سواء تتلاقيان أو لم تتلاقيا في عين شدّة المعرفة واليقين، لا طور ولا كيف لهما بحسب الواقع، ولا توصفان أبداً، فإنّ قلب المؤمن بين إصبعي الرحمان. كما أنّه لا توصف معرفة العبد لله ـتعالىـ بألوهيّته وكبريائه وجلاله وعظمته، إذ ليس هذا إلّا فعلاً من أفعاله ـتعالىـ قد تفضّل به علىٰ عباده، فلا كيف ولا طور لفعله، كما لا كيف ولا طور لذاته وأسمائه وصفاته. ولا نهاية لذاته ونعوته وأفعاله.

ومن هنا يعلم أنّ القول بالسنخيّة بين محبّة الإنسان بالأمور الواقعة تحت اختياره وعلمه من الأمور الدنيويّة الماديّة، وكذلك غيرها من الأمور المعلومة له وبين محبّتهم لله تعالىٰ، لا يرجع إلىٰ معنىً محصّل.

قوله تعالىٰ: «ويغفر لكم ذنوبكم».

الغرض المسوقة له في الآية بيان منشإ حبّ الله ـتعالىٰـ وغفرانه ورضوانه، فقد جعل الله ـسبحانهـ حبّه وغفرانه لمن أطاعه باتّباع رسوله صلّى الله عليه وآله. وقد تقدّم عن عليّ عليه السلام في خطبة الوسيلة حيث قال في قوله تعالى: **«قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني»**:

> فاتّباعه صلّى الله عليه وآله محبّة الله، ورضاه غفران الذنوب وكمال الفوز، ووجوب الجنّة...

قوله تعالىٰ: «والله غفور رحيم». (٣١)

الظاهر أنّ الغفران والرحمة متفرّعان من المورد. وإرداف الرحمة بالغفران قرينة علىٰ عدم الإطلاق في الرحمة لغير مورد الغفران، فيكون متعلّق الرحمة أهل الإيمان فقط، فالمرحومون ليسوا إلّا المغفورين فقطّ. وقد تقدّم في تفسير سورة الفاتحة أنّ الرّحيم من أسمائه ـسبحانهـ لوحظت فيه عنايته لعباده المؤمنين من الرحمات الخاصّة لهم في الدّنيا والآخرة بلحاظ إيمانهم وإسلامهم، وأمّا الرحمة الّتي

تشمل البرّ والفاجر إملاءً واستدراجاً وغيرهما من الجهات فالمتكفّل لهذا الحيث هو اسم الرحمان.

قوله تعالىٰ: «قل أطيعوا الله والرّسول».

افتتاح الكلام بقوله: «قل» فيه إشعار وإشارة إلىٰ أنّ الآية الكريمة مستقلّة في حدّ نفسها، منقطعة عمّا قبلها، ومورد الدعوة ومتعلّقها عامّ شامل لكلّ من بلغ من أهل العالم حاضراً كان أو غائباً، وثنيّاً كان أو كتابيّاً. وموضوع الدّعوة أعمّ من الأحكام العقليّة الضروريّة من عظائم الفرائض وأصول الشرائع.

وقوله تعالىٰ: «والرسول» أي، وأطيعوا الرسول. والأمر بإطاعة الرسول صلّى الله عليه وآله أمر مولوي، ولا وجه للقول بأنّ الأمر بطاعة الرسول هو الأمر بطاعته ـ تعالىٰ ـ في الموارد الّتي بلّغها رسول الله صلّى الله عليه وآله من أحكامه ـ تعالى ـ كي يكون الأمر بطاعته أمراً إرشادياً، ضرورة أنّ قوله تعالىٰ: «أطيعوا الله» قد استوعب علىٰ نحو الإرشاد جميع موارد وجوب طاعته ـ تعالىٰ ـ سواء أكانت من المستقلّات العقليّة أو مما يبلّغه الرسول صلّى الله عليه وآله من أحكامه ـ تعالى ـ المولويّة، فلابدّ من الالتزام بأنّ الأمر بطاعة الرسول صلّى الله عليه وآله أمر مولويّ فيما يأمر وينهى رسول الله صلّى الله عليه وآله بإذن الله سبحانه.

فإن قلت: إنّ الآية السابقة دلّت علىٰ وجوب اتّباع النبيّ صلّى الله عليه وآله فيما يأمر وينهى بإذن الله ـ تعالىٰ ـ فلو كانت طاعة الرسول صلّى الله عليه وآله في هذه الآية أيضاً علىٰ نحو الآية السابقة للزم التكرار أو التأكيد.

قلت: إذا كانت الآيتان مستقلّتين في حدّ أنفسهما فلا مانع من القول بأنّ الأمر بطاعة الرسول صلّى الله عليه وآله أمر مولوي، وقد ورد في القرآن الكريم في غير موضوع الأمرُ بوجوب اتّباع النّبي صلّى الله عليه وآله ووجوب طاعته من غير أن يلتزم أحد من المفسّرين بتكرار شيء منها وكونها تأكيداً، فعلىٰ عهدة المفسّر تشخيص العناية في كلّ واحد من الآيات.

قوله تعالىٰ: «فإن تولّوا فإنّ الله لا يحبّ الكافرين». (٣٢)

إن كان المراد من الإدبار والإعراض عن طاعته ـ تعالىٰ ـ وطاعة رسوله

صلّى الله عليه وآله علىٰ سبيل الجحود والتكذيب، فيكون المراد بـالكافرين هـم الكافرون بما جاء به النبيّ صلّى الله عليه وآله. وإن كان المراد هو الإعراض عـن العمل والامتثال، يكون المراد كفر الطّاعة كما في قوله تعالىٰ: «ولله على الناس حجّ البيت منَ استطاع إليـه سـبيلاً ومَـن كـفر فـإنّ الله غـنيّ عـن العـالمين». [آل عمران/ ٩٧]

والوجه الثاني هو الأشبه بالمقام، فإنّ إيجاب طاعة الرّسول صلّى الله عليه وآله إنّما هو بعد الإيمان بالله، وبعد التصديق برسوله وبما جاء بـه مـن عـند الله، والتذكرة بطاعة الله إنّما جيء بها لإيجاب طاعة النبيّ صلّى الله عليه وآله.

فعلى هذا يكون المراد من نفي الحبّ في «لا يحبّ الكافرين» هو حـرمانهم عن رحمة ربّهم وكرامته سبحانه.

قال في مجمع البيان ٢/٣٣٢: معناه أنّه يبغضهم ولا يريد ثوابهم.

أقول: ويؤيّد هذا المعنىٰ ما تقدّم عن أمير المؤمنين عليه السلام في خـطبة الوسيلة حيث قال: والتولّي عنه والإعراض محادّة الله وغضبه وسخطه والبعد منه مسكن النّار. وذلك قوله: «ومن يكفر به من الأحزاب» يعني الجحود والعصيان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالىٰ: «إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً».

الاصطفاء في اللّغة بمعنى الاختيار والاجتباء. فاصطفاهم أي جعلهم صفوةً. وقد استعمل في الكتاب والسنّة بالتعدّي إلى المفعول الثاني باللّام مثل قول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه يوم عرفة:

بحقّ من انتجبت من خلقكَ، وبمن اصطفيته لنفسكَ.

ومثل قوله تعالىٰ:

«إنَّ الله اصطفى لكم الدّين». [البقرة (٢)/١٣٢]
وقد يستعمل بدون ذكر المفعول الثاني. قال تعالىٰ:
«إنَّ الله اصطفاك وطهّرك». [آل عمران (٣)/٤٢]
و«ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلّا من سفه نفسه ولقد اْصطفيناهُ في الدّنيا وإنّه في الآخرة لمن الصّالحين». [البقرة (٢)/١٣٠]

وقد يتعدّىٰ إلى المفعول الثاني بـ«علىٰ» مثل الآية المبحوث عنها. ومثل قوله تعالىٰ: «أَصطفى البنات علىٰ البنين». [الصّافّات ١٥٣/٣٧]

وقد يذكر ما به الاصطفاء أيضاً مثل قوله تعالى: «إنّي اصطفيتك علىٰ النّاس برسالاتي وبكلامي». [الأعراف (٧)/١٤٤]

والظاهر أنّ الاصطفاء في جميع هذه الموارد علىٰ معنىٰ واحد. والمراد منه في أمثال المقام هو أخذه ـ تعالىٰ ـ بعض عباده بيد ولايته يربّيه ويؤدّبه، ويسدّده ويمدّه بكراماته الخاصّة ومواهبه المكنونة. فاختصاصه ـ تعالىٰ ـ أولياءه الكرام بالنبوّة والرسالة هو عين الاصطفاء عملاً وخارجاً، وعين الكرامة وعين تمكينه وتثبيته عبده في مقام الولاية، ويرفعه ـ تعالىٰ ـ إلىٰ أن يصل مقام الإمامة الكبرى. فالاصطفاء في المرتبة الأولىٰ في مقام الولاية إنّما يتحقّق بالعصمة، ثمّ لايزال يزيد طهارة علىٰ طهارة وكرامة علىٰ كرامة. وهكذا عند استعماله بالباء لا يتحقّق إلّا بالموهبة الخاصّة عملاً وخارجاً، فإنّ ترجيحه ـ تعالىٰ ـ عبده واختياره وانتخابه واجتباءه بالنبوّة ثمّ بالرسالة، ثمّ بالكتاب والشريعة كرامة علىٰ كرامة وفضيلة علىٰ فضيلة.

فالاصطفاء بهذه الموارد كلّها من مصاديق الاصطفاء المطلق، ومن أفراده البارزة وهو عين الاصطفاء العمليّ، غاية الأمر لابدّ من المعرفة بالعنايات المتنوّعة، لا إخراج الاصطفاء عن معناه اللّغويّ. فالاصطفاء علىٰ مراتبه المتفاوتة الأعلىٰ فالأعلىٰ شامل للمؤمنين والمتّقين، والأنبياء والمرسلين إلىٰ أن يبلغ مقام الإمامة الّذي هو من أجلّ مقامات الولاية. والاصطفاء ـ علىٰ ما نعرف من موارده ـ إنّما هو بالعمل وصنع الله الجميل الحكيم. فعليك التدبّر التامّ في الموارد كي لايشتبه عليك

المفهوم بالمصداق. فيكون ما به الاصطفاء عين ما به التقديم والتفضيل. ولمّا كانت مواهبه ـ تعالىٰ ـ متفاوته بحسب مراتبها، فالمرتبة السابقة والتمكّن فيها، والقيام بوظائفها مقدّمة لنيل ما فوقها بعطائه تعالىٰ. فإذا اتّخذ الله عبداً نبيّاً، فاصطفاه بالنبوّة، ثمّ يصطفيه بالرسالة، ثمّ بالخلّة، ثمّ بالإمامة، وهكذا المراتب النازلة قبل النبوّة. فلفظ الاصطفاء إذا استعمل بالباء لا إطلاق فيه ولا عموم، وفيه تصريح بما به الاصطفاء مثل قوله تعالىٰ: «إنّي اصطفيتكَ على النّاس برسالاتي وبكلامي».
وإذا استعمل مجرّداً عن الباء فلابدّ للباحث من معرفة ما به الاصطفاء بحسب القرائن والمقامات فيما به الاصطفاء.

قوله تعالىٰ: «وآل إبراهيمَ وآل عمران علىٰ العالمين». (٣٣)

قال في مجمع البيان ٤٣٣/٢: وقوله: «وآل إبراهيم وآل عمرانَ» قيل أراد به نفس إبراهيم ونفس عمران كقوله: «وبقيّة ممّا ترك آلُ موسىٰ وآل هٰرونَ». [البقرة ٢٤٨/٢] يعني موسىٰ وهارون.

وفيه أنّ المقيس عليه ليس بمسلّم، فإنّ التابوت كما أنّه تراث موسىٰ وهارون كذلك تراث المصطفين من آلهما. والظاهر أنّ المراد في الآية المبحوث عنها إبراهيم وآله وعمران وآله، روعي فيه الإيجاز البليغ بمعونة دلالة المقام، فإنّ الذرّيّة ليست تابعةً لإبراهيم وعمران متفرّدين. وفي آل إبراهيم وعمران الرسل والأنبياء، وفيهم الأوصياء والأصفياء. قال تعالىٰ:

«ووهبنا له إسحٰق ويعقوب وجعلنا في ذرّيّته النبوّة والكتاب».
[العنكبوت (٢٩)/٢٧]

و«ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذرّيّتهما النبوّة والكتاب».
[الحديد (٥٧)/٢٦]

و«ووهبنا له إسحٰق ويعقوب كُلًّا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذرّيّته داود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسىٰ وهٰرون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريّا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس كلٌّ من الصّالحين * وإسمٰعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلًّا فضّلنا علىٰ العالمين». [الأنعام (٦)/٨٤ ـ ٨٦]

فلا وجه للقول بأنّ المراد من آل إبراهيم هو إبراهيم وإخراج ذرّيّته من عموم الآية، كما أنّه لا وجه أيضاً لتوهّم عدم شمول الآية لإبراهيم وعمران.

وعمران سواءً كان والد موسىٰ أم والد مريم القدّيسة، هو من آل إبراهيم، ووجه العناية للتعرّض به بالخصوص لعلّه من باب الأهميّة لمقام موسى، أو لعلّه لإدراج عيسىٰ بن مريم البكر البتول في آل إبراهيم.

ولا مجال للمناقشة في دخول محمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ وآله الأصفياء الطاهرين عليهم السلام في آل إبراهيم. وغير خفيّ علىٰ أولي الألباب أنّ آل إبراهيم وآل عمران، والذرّيّة الّتي بعضها من بعض فيهم أنبياء عظام مثل موسىٰ وعيسىٰ ونبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله، وفيهم أوصياء كرام، وفيهم أصفياء ليسوا بأنبياء ولا أوصياء، فلا محالة ما به الاصطفاء في الأنبياء والرسل حملهم الكتاب والنبوّة، وفي الأوصياء كونهم مستودعين الحكمة والنور، وفيهم من كان وارثاً للإمامة الكبرى مثل إمام الموحّدين علىٰ وآله الطاهرين عليهم السلام، فإنّهم كما يرثون جميع آثار العلم والحكمة والضياء والنور، يرثون أيضاً مقام الخلافة العظمى من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمّا غير الأنبياء والأوصياء من الأصفياء من آل إبراهيم وعمران فيمكن أن يقال: إنّ اصطفاء بعض منهم بالتطهير والمصونيّة من الآثام والذنوب، مع تفرّد كلّ منهم بمزيّة وفضيلة بخصوصه، إلّا أنّه يشكل إسراء العموم والإطلاق بالنسبة إلىٰ غير الحجج من الأصفياء، فإنّهم ليسوا في مرتبة الحجج الّذين لهم المناقب والكرامات الخاصّة في عرض الكرامات الخاصّة بالأنبياء والرّسل غير أنّهم ليسوا أنبياء ـ بل لا يبعد دعوى انصراف اصطفاء الآل إلى الحجج المصطفين سواءً كانوا أنبياءَ أم أوصياءَ كما في قوله تعالىٰ: «**أم يحسدون النّاس علىٰ ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً**». [النساء (٤)/٥٤]

قوله تعالىٰ: «ذرّيّة بعضها من بعض».

قال البيضاوي ١٥٧/١: «ذرّيّة بعضها من بعض» حال أو بدل من الآلين أو منها ونوح... والذرّيّة: الولد، يقع على الواحد والجمع. فعلية من الذّرّ أو فعولة من

الذرء أبدلت همزتها ياءً ثمّ قلبت الواو ياءً وأدغمت.

أقول: حيث إنّه تابع فيكون في العموم والإطلاق أيضاً تابعاً لمتبوعه. وقد استظهرنا أنّ المراد من الآل هم الأنبياء وأوصياؤهم المصطفون، فيكون هذا قيداً آخر أي الأنبياء وأوصياؤهم الّذين عصمهم الله ـ سبحانه ـ من سفاح الآباء الجاهلين، ومن دنس الأرحام الخبيثة، وجعلهم من نسل المصطفين، وأنبتهم في المنابت المطهّرة، وكفّلتهم الحجور الطيّبة الطاهرة، وربّتهم النفوس الزكيّة في بيوتات المجد والفضيلة.

في تفسير العيّاشي ١٦٩/١، عن أحمد بن محمّد، عن الرضا، عن أبي جعفر عليه السلام:

> من زعم أنّه قد فرغ من الأمر فقد كذب؛ لأنّ المشيئة لله في خلقه يريد ما يشاء ويفعل ما يريد. قال الله: «**ذرّيّة بعضها من بعض والله سميع عليم**» آخرها من أوّلها، وأوّلها من آخرها. فإذا أخبرتم بشيء منها بعينه أنّه كائن وكان في غيره منه، فقد وقع الخبر علىٰ ما أخبرتم عنه.

أقول: أفاد عليه السلام عدم صحّة إطلاق الذرّيّة إلّا علىٰ أفراد بيت واحد، مع لحاظ وحدة ما بين هؤلاء الأفراد.

قوله تعالىٰ: «والله سميع عليم». (٣٤)

أي أنّ الله ـ سبحانه ـ يدرك ويعلم بعلمه العيانيّ الحقيقيّ غير المتناهي ما يعرفه الناس بآذانهم.

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ

وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

قوله تعالىٰ: «إذ قالت امرأة عمران ربِّ إنّي نذرت لك ما في بطني محرّراً».

شرع ـ سبحانه ـ في سرد قصّة عيسىٰ ـ عليه السلام ـ بأعذب بيان. فإنّه سبحانه قد أكرم صفيّه ورسوله عيسىٰ بمواهبه وعناياته الخاصّة وكراماته المبذولة، إذ جعل أعراقه ونسبه من الذّريّة المصطفين المعصومين المحفوظين تحت ولايته،

المؤيّدين بنظراته الرحيمة.

وعمران المذكور في الآية الكريمة من آل إبراهيم، وهو أبو مريم الصدّيقة. ويظهر من بعض الروايات أنّه عليه السلام كان نبيّاً من أنبياء بني إسرائيل. ولمّا كان شأن عمران وشخصه ومقامه الرفيع غير دخيل في الغرض المسوق له في الآية فقد طوىٰ سبحانه عن ذكره، حتّىٰ لم يتبيّن أنّ عمران كان حيّاً حين النذر أم لا. ولا يمكن الاستظهار من الآية أنّ عمران كان قد مضىٰ حين النذر، وإلّا لم تكن لأمّها ولاية على النذر، إذ الآية ليست في مقام تشريع النذر وشرائطه وأحكامه. علىٰ أنّه لا يصحّ لنا الاستدلال بأحكام شريعة الإسلام عليهم، وأيضاً يمكن أن يكون ذلك كلّه بإذن منه.

والظاهر من الآية الكريمة أنّ أُمّ مريمَ عليها السلام كانت تأمل أنّ ما في بطنها ذكر، فنذرت أن يكون محرّراً لخدمة الكنيسة. والمراد من كونه محرّراً يمكن أن يكون استخلاصه من معونة أبويه وتحمّل مؤونتهما، أو تمحّضه لعبادة ربّه. وهذا الاعتقاد من أمّ مريم لم يكن جزافاً وأمنيّة عاديّة، فإنّه سبحانه لا يحكي في مقام حنانه وإبراز كراماته لأحبّائه ما هو من الأمور العاديّة، ولا ينسب إليهم الأمنيّات غير الحقيقية. وأمنيّتها علىٰ ما في بعض الروايات كانت من جهة أنّ عمران زوجها كان قد أخبر بها ممّا أوحى الله إليه أنّ الله يهب له غلاماً يُبرئ الأكمه والأبرص.

في البحار ۲۰۳/۱٤، عن قصص الأنبياء، بإسناده عن الصدوق مسنداً عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

> إنّ الله ـ تعالىٰ، جلّ جلاله ـ أوحى إلىٰ عمران أنّي واهب لك ذكراً مباركاً يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتىٰ بإذن الله، وأنّي جاعله رسولاً إلىٰ بني إسرائيل. قال: فحدّث عمران امرأته حنّة بذلك وهي أمّ مريم، فلمّا حملت كان حملها عند نفسها غلاماً فقالت: «ربّ إنّي نذرتُ لك ما في بطني محرّراً» فوضعت أنثى فقالت: «وليس الذكر كالأنثىٰ». إنّ البنت لا تكون رسولاً، فلمّا وهب الله لمريمَ عيسىٰ بعد ذلك كان هو الّذي بشّر الله به عمران.

وفيه أيضاً، عن قصص الأنبياء، مسنداً عن محمّد بن أبي طلحة قال: قلت للرّضا عليه السلام:

أيأتي الرسل عن الله بشيء ثمّ تأتي بخلافه؟ قال: نعم إن شئت حدّثتك، وإن شئت أتيتكَ به من كتاب الله تعالىٰ جلّت عظمته. «ادخُلوا الأرض المقدّسة الّتي كتب الله لكم». الآية [المائدة (٥)/٢١] فما دخلوها ودخل أبناء أبنائهم. وقال عمران: إنّ الله وعدني أن يهب لي غلاماً نبيّاً في سنتي هذه وشهري هذا، ثمّ غاب وولدت امرأته مريم وكفّلها زكريّا. فقالت طائفة: صدق نبيّ الله. وقال الآخرون: كذب. فلمّا ولدت مريمُ عيسىٰ ـ عليه السلام ـ قال الطائفة الّتي أقامت علىٰ صدق عمران: هذا الّذي وعدنا الله.

قوله تعالىٰ: «فتقبّل منّي إنّك أنت السميع العليم». (٣٥)

دعاء منها ليقبل ـ تعالىٰ ـ نذرها. وتمجيد له ـ سبحانه ـ بالسميع والعليم. والظاهر أنّ المراد ليس هو السمع المؤوّل بعلمه ـ تعالىٰ ـ بالمسموعات، بل المراد إجابته ـ تعالىٰ ـ دعاء الداعين. وهذا شائع في الأدعية فإنّه ـ تعالىٰ ـ يسمع جميع دعاء الداعين ويستجيب. ويعلم مضمرات القلوب ونجيّات الصدور ولحظات العيون وهمسات الألسن.

قوله تعالىٰ: «فلمّا وضعتها قالت ربِّ إنّي وضعتُها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثىٰ».

فلمّا وضعت حملَها وتبيّنت أنّها أُنثىٰ ووجدتها خلاف ما كانت تأمله وترجوه من كون حملها ذكراً، يكون رسولاً من الله يُبرِئ الأكمة والأبرص، نادت ربَّها متحسّرةً وحزينة تشكو إلىٰ ربّها عدمَ نيلها ما تمنّت من كرامات ربّها وموهبته لها، وقالت: ليس الذكر الموعود كالأُنثى الموهوبة. ولا تصلح الأنثىٰ لحمل أثقال النبوّة وأعباء الرسالة، وللعبادة الدائمة الخالصة، بل لابدّ من أن تترك العبادة أيّاماً.

وقوله تعالىٰ: «والله أعلم بما وضعت» مقول لله ـ سبحانه ـ معترض بين كلام أمّ مريم فيما يحكيه عنها القرآن الكريم.

قال في المنار ٢٨٩/٣: قال تعالىٰ: «والله أعلم بما وضعت» أي بمكانة الأنثى الّتي وضعتها، وأنّها خير من كثير من الذكور، ففيه دفع لما يوهمه قولها من خسّة المولودة وانحطاطها عن مرتبة الذكور. وقد بيّن ذلك بقوله: «وليس الذكر» الّذي طلبت أو تمنّت «كالأنثىٰ» الّتي وضعت، بل هذه الأنثىٰ خير ممّا كانت ترجو من الذكر.

أقول: الظاهر من كلامه أنّ قوله تعالىٰ: «وليس الذكر كالأنثىٰ» ليس مقولاً لقول أمّ مريم بل هو مقول له تعالىٰ. ولكنّ الظاهر بحسب القرائن الموجودة في المقام أنّ المراد من الآية الكريمة هو تفضيل الذكر على الأنثى في الموارد الّتي ذكرناها من حمل أثقال النبوّة وأعباء الرسالة، والعبادة الدائمة، وتعقيب ما كانت تأمله من كون الحمل ذكراً إلّا أنّ الفرق بين هذا التعبير المذكور في الآية وبين أن تقول: ليست الأنثىٰ كالذكر، أنّ في الثاني تصريحاً بخسّة المولودة والزهد عنها واليأس عمّا وعد الله ـ سبحانه ـ إيّاها من إكرامها، ولكنّ التعبير الأوّل لا يدلّ إلّا علىٰ عدم صلاحيّة الأنثىٰ لنذرها، وأمنيّتها من الرسالة والكرامة. وقد أظهرت تحسّرها وحزنها في مناجاتها ربّها مع التحفّظ الشديد بالأدب اللّائق في المقام بالنسبة إلىٰ مقام الربّ ـ تبارك وتعالىٰ ـ وشأن المولود، ومع التجنّب عن لحن الاعتراض في عين إظهار الرّضا والتسليم بالقضاء النافذ الحكيم.

والتفاسير المرويّة عن أئمة أهل البيت حاكية ـ تصريحاً وتلويحاً ـ أنّ هذه الجملة من كلام أمّ مريمَ في مقام مناجاتها مع ربّها، منها ما تقدّم عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

... فوضعت أنثىٰ فقالت: «وليس الذكر كالأنثىٰ» إنّ البنت لا تكون رسولاً...

ومنها ما في تفسير العيّاشي ١٧٠/١، عن حفص البختري، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله: «إنّي نذرت لكَ ما في بطني محرّراً».

المحرّر يكون في الكنيسة ولا يخرج منها فلمّا وضعتها أنثىٰ «قالت ربّ إنّي وضعتها أنثىٰ والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثىٰ»، إنّ الأنثىٰ تحيض فتخرج من المسجد، والمحرّر لا يخرج من المسجد.

قوله تعالى: «وإنّي سمّيتها مريم».

قال في الميزان ١٨٦/٣: معنىٰ مريم في لغتهم العابدة والخادمة علىٰ ما قيل... فقولها: «وإنّي سمّيتها مريم» بمنزلة أن تقول: إنّي جعلت ما وضعتها محرّرة لك. والدليل علىٰ كون هذا القول منها في معنى النذر قوله تعالىٰ: «فتقبّلها ربّها بقبول حسن»...

أقول: سواءٌ أكان مريم في لغتهم بمعنى العابدة أم الخادمة للكنيسة ليس هذا نذراً ثانياً للمولودة بعد تخلّف النذر الأوّل، بل النذر كما أنّه كان منطبقاً على الذكر كذلك يكون منطبقاً على الأنثى أيضاً، فإنّ صريح الكلام أنّ متعلق النذر هو عنوان «ما في بطني» لا الذكر بخصوصه. غاية الأمر أنّ أملها بأنّه ذكر لا يمكن بحسب ظاهر الكلام أن يكون قيداً لمتعلّق النذر نفياً وإثباتاً.

قوله تعالى: «وإنّي أعيذها بكَ وذرّيّتها من الشيطان الرجيم». (٣٦)

إعاذتها وذرّيّتها بالله ـ سبحانه ـ من الشيطان الرجيم بمنزلة الدعاء لها ولذرّيّتها. فهذا الدعاء وتمنّي كلّ خير، والإعاذة من كلّ مكروه وعاهة من الأمور الجارية والسيرة المسلّمة عند الموحّدين بالنسبة إلىٰ أولادهم وأعقابهم. فهم لإشفاقهم وحنانهم علىٰ ذرّيّاتهم يجدّون كلّ الجدّ في تربيتهم وسلامتهم وإصلاحهم وتنظيم أمور بيوتهم؛ لإبقاء ما أكرمهم الله به من شعاع التوحيد وفضيلة الإسلام، وينقطعون إلى الله، ويتضرّعون إليه في سؤال ذلك كلّه. قال تعالىٰ:

«ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرّة أعين واجعلنا للمتّقين إماماً». [الفرقان (٢٥)/٧٤]

وفي الصحيفة السجاديّة من دعائه ـ عليه السلام ـ لولده، قال بعد ما دعا بعدّة من الخيرات والكرامات لأولاده الحاضرين:

... وهب لي من لدنك معهم أولاداً ذكوراً، واجعل ذلك خيراً لي، واجعلهم لي عوناً علىٰ ما سألتك، وأعذني وذرّيّتي من الشيطان الرجيم...

وقال تعالىٰ:

«ربِّ أجعلني مقيم الصّلوٰة ومن ذرّيّتي ربّنا وتقبّل دعاءِ». [إبراهيم (١٤)/٤٠]

قال في الميزان ١٨٧/٣: والكلام في قولها: «وذرّيّتها ...» من حيث إنّه قول مطلق من غير شرط وقيد، لا يصحّ التفوّه به في حضرة التخاطب ممّن لا علم له به... فليس إلّا أنّها كانت تعلم أن سترزق من عمران ولداً ذكراً صالحاً، ثمّ لمّا حملت وتوفّي عمران، لم تشكّ أنّ ما في بطنها هو ذلك الولد الموعود، ثمّ لمّا وضعتها وبان لها خطأ حدسها، أيقنت أنّها سترزق ذلك الولد من نسل هذه البنت المولودة، فحوّلت نذرها من الابن إلى البنت، وسمّتها مريم (العابدة الخادمة)...

أقول: سبيل الدعاء والاستعاذة وتمنّي الخيرات والتوقّي من الآفات سبيل كلّ مسلم موحّد. وهذا بناءً علىٰ ما هو المشهور من سنّة الله الحكيمة القيّمة في إجراء النسل وإبقائه، فلا يمكن الاستدلال به بدعوى علم الغيب للآباء والأمّهات، وإن كان بعضهم عالمين بدليل خارج، إلّا أنّه خارج عن مفاد الآية. ومعنىٰ إعاذتها وذرّيّتها بالله من الشيطان: أن يحفظها الله ويعصمها وذرّيّتها من مكائد الشيطان ـوهمزه ولمزه وحبائله كلّهاـ في حصنه الحصين، الّذي يدخل فيه من يشاء من عباده المخلصين وأوليائه الصالحين، وأن لا يجعل في أعمالهم وعلومهم وعقولهم للشيطان سلطاناً. والاستعاذة والاعتصام بهذا المعنىٰ هو المسلّم والمتيقّن في لسان الآيات الكريمة والأخبار والأدعية الشريفة. قال مولانا سيّد الساجدين، زين العابدين عليه السلام في دعائه لولده:

وأعذني وذرّيّتي من الشيطان الرجيم... وجعلتَ لنا عدوّاً يكيدنا، سلّطته منّا علىٰ مالم تسلّطنا عليه منه، أسكنتَه صُدُورنا، وأجريتَه مجاري دمائنا، لا يغفل إنْ غفلنا، ولا ينسى إن نسينا، يؤمننا عقابك ويخوّفنا بغيرك. إن هممنا بفاحشة شَجَّعَنا عليها، وإن هممنا بعمل صالح ثَبَّطَنا عنه، يتعرّض لنا بالشهوات، وينصب لنا بالشبهات، إن وَعَدَنا كَذِبَنا وإن منّانا أخلفنا، وإلّا تصرف عنّا كيده يضلّنا وإلّا تَقِنا خباله يستزلّنا. اللّهمّ فاقهر سلطانه عنّا بسلطانك حتّىٰ تحبسه عنّا

بكثرة الدعاء لكَ فنصبح من كيده في المعصومين بك.

قوله تعالىٰ: «فتقبّلها ربّها بقبول حسن».

استجابة لدعائها وهو قولها: «فتقبّل منّي إنّك أنت السميع العليم». وقبول لنذرها لما في بطنها محرّراً. وبديهيّ أنّ هذا التقبّل لايلائم بقبول النذر من حيث إنّه عمل لأمّ مريم بل تقبّل للمنذورة. وبديهيّ عند أولى الألباب أنّ تقبّله سبحانه ليس باللّفظ فقطّ، بل تقبّل بالعمل والفعل الخارجي أيضاً، وهو سبحانه يقبل المذنبين بغفران ذنوبهم، ويقبل العابدين بإكرامهم وإعزازهم بالعطايا والمواهب، فهو سبحانه يقبل من لايقبله البلاد، ويرحم من لايرحمه العباد. فلا محاله يكون تقبّله تعالىٰ للمذنبين بالغفران وللمحسنين بالإكرام والتطهير، وبالتأييد والتسديد والعصمة، فكلّ من الوافدين إليه ـ تعالىٰ ـ بحسب مقامه ينال من إكرامه ومواهبه بقبوله تعالىٰ.

والتقبّل هو القبول عن رضا ورغبة، والعناية في توصيف القبول بالحسن هي زيادة رغبته ـ تعالىٰ ـ بالعطاء فوق التقبّل بالعطاء زيادة تامّة كاملة فوق ما كانت ترجو وتتمنّىٰ. والتقبّل منه ـ سبحانه ـ حيث إنّه بالموهبة والكرامة، إحسان منه تعالىٰ، فهو حسن بالذات. فتوصيفه بالحسن مزيد علىٰ حسنه. اللّهمّ إنّي أسألك من إحسانك بأحسنه وكلّ إحسانك حسن، اللّهم إنّي أسألك بإحسانك كلّه.

قوله تعالىٰ: «وأنبتها نباتاً حسناً».

لا مانع من جعلها عطفاً تفسيريّاً علىٰ قوله: «فتقبّلها ربُّها بقبول حسن» فإنّ إنباتها بيد تربيته تعالىٰ، ومراقبتها تحت ولايته سبحانه، وتزكيتها وتأييدها وتطهيرها من أن تدنس بنفث الشيطان وهمزه ولمزه، مصداق للقبول الحسن. ولكنّ الإنصاف أنّ الإنبات أعمّ وأشمل وأعلىٰ وأجلّ، حتّىٰ إنّه مع قطع النظر عن لحاظ مزيد عطاياه ـ سبحانه ـ من جهة القبول الحسن، لا وجه لتقييد الإنبات بما بعد النذر، بل يشمل بعناياته الكريمة المبذولة لها بما قبل النذر وما بعده.

وما يتخيّل في بدو النظر من انصراف الإنبات بما بعد النذر وبما بعد القبول، فإنّما هو انصراف بدويّ عاميّ يزول ويرتفع بالتدبّر، فإنّ حيث القبول وحيث

الإنبات وحيث الكفالة لها من الأنبياء والأحبار، كلّ واحد منها منقبة وكرامة برأسه، لابدّ من أن يلاحظ ويعرف كلّ منها بما تيسّر لنا من معرفتها. فمن أظهر مصاديق الإنبات الحسن أنّ الله جعلها من أعلى البيوتات، بيوتات الأنبياء والمصطفين، لم يمسّها في آبائها وأمّهاتها دنس الجاهليّة، وألواث الكفر والوثنيّة الجاهليّة؛ وقد جعلها الله جلّ مجده في محفظة حصينة طاهرة، واختارها أُمّاً لحجّته ورسوله عيسىٰ صلوات الله عليه. ويمكن أن ينطبق هذا الإنبات علىٰ مقاماتها الشامخة مثل مقام تطهيرها وعصمتها، فالشجرة المباركة الطالعة من الأراضي الطيّبة بتربة صالحة تثمر ثمرات حسنة طيّبة عذبة، فيالحسنها المدهش العجيب!

قوله تعالىٰ: «وكفّلها زكريا».

قال في لسان العرب ٥٩٠/١١: «وكفّلها زكريّا» أي ضمّنها إيّاه حتّى تكفّل بحضانتها. ومن قرأ: «وكَفَلَها زكريّا» فالمعنىٰ: ضمن القيام بأمرها. وكَفَلَ المال وبالمال: ضمنه. وكَفَلَ بالرّجل يكفُلُ ويكفِلُ كَفلاً وكُفُولاً وكَفالة، وكَفُل وكَفِلَ وتكفَّل به، كلّه ضمنه. وأكفَلَهُ إيّاه وكَفَّله: ضمّنه.

أقول: لعلّ في التصريح باسم زكريّا إشعاراً بنبالتها من حيث تكفّل زكريّا لها، فإنّه كان نبيّاً كريماً على الله ربّانيّاً، وقد جعله الله سبحانه لتربية العباد وإصلاح البلاد.

في تفسير العيّاشي ١٧٠/١، عن إسماعيل الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

> إنّ امرأة عمران لمّا نذرت ما في بطنها محرّراً قال: والمحرّر للمسجد إذا وضعته [أو] دخل المسجد فلم يخرج [من المسجد] أبداً فلمّا ولدت مريم «قالت ربّ إنّي وضعتها أنثىٰ والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثىٰ وإنّي سمّيتها مريم ...» فساهم عليها النبيّون فأصاب القرعة زكريّا وهو زوج أختها وكفّلها وأدخلها المسجد، فلمّا بلغت ما تبلغ النساء من الطمث، وكانت أجمل النساء فكانت تصلّي ويضيء المحراب لنورها، فدخل عليها زكريّا فإذا عندها فاكهة الشتاء في

الصيف، ودخل عليها أخرىٰ فوجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، فقال: «أنّىٰ لكِ هذا قالت هو من عند الله ...».

قوله تعالىٰ: «كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّىٰ لك هذا قالت هو من عند الله».

فيه تصريح أنّ المحلّ أو الموقف ليس موقف اشتغالها بخدمة العبّاد والأحبار، فإنّ اختصاصها بمسكن ومأوى الّذي لابدّ من الدخول فيه لملاقاتها يدلّ علىٰ ذلك.

وفي تفسير العيّاشي أيضاً، عن حريز، عن أحدهما قال:

نذرت ما في بطنها للكنيسة أن تخدم العبّاد وليس الذكر كالأنثىٰ في الخدمة. قال: فشبت فكانت تخدمهم وتناولهم حتّىٰ بلغت فأمر زكريّا أن يتّخذ لها حجاباً دون العبّاد، فكان يدخل عليها فيرىٰ عندها ثمرة الشتاء في الصيف وثمرة الصيف في الشتاء فهنالك دعا وسأل ربّه أن يهب له ذكراً فوهب له يحيىٰ.

أقول: من هنا يعلم أنّ المراد من المحراب ليس ما هو المتعارف في زماننا. فإنّ ظاهر الآية يدلّ علىٰ أنّ المحراب هو المكان المنفرد عن الناس، وعن المسجد.

وقوله تعالىٰ: «وجد عندها رزقاً». أي عندها في محرابها المختصّ بها. وذكر تعالى هذا الرزق والتعرّض لشأنه، ونقل ما جرىٰ بين مريم القدّيسة وزكريا النبيّ عليه السلام يدّلنا ـ بعد التدبّر والتنقيب ـ أنّه ـ تعالىٰ ـ أكرم هذه الموعودة بالقبول الحسن، ثمّ ذكر إكرامها بالإنبات الحسن، ثمّ بكفالة زكريّا النبيّ عليه السلام، ثمّ بالكرامة الّتي أعجب زكريّا منها وأدهش، حتّىٰ وقعت مورداً للغبطة، وسأل زكريّا ربّه أن يكرمه بذرّيّة طيّبة كما أكرم مريم بالكرامة الّتي تبهر العقول.

ولا يخفىٰ أنّ «رزقاً» لمكان كونه نكرة لا إطلاق ولا عموم فيه. والروايات كما تقدّمت متّفقة الدلالة علىٰ أنّ الرزق المذكور نوع من الرزق غير العادي، وتعيين شخص هذا الرزق خارج عن غرض الآية، ولا يحتاج في إثبات كون الرزق كرامة إلىٰ تعيين شخص الرزق.

قال في المنار ٢٩٣/٣: قالوا: كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء

وفاكهة الشتاء في الصيف. والله لم يقل ذلك ولا قاله رسول (ص) ولا هو ممّا يعرف بالرأي، ولم يثبته تاريخ يعتدّ به. والروايات عن مفسّري السلف متعارضة. وفي أسانيدها ما فيها. وممّا قال ابن جرير في ذلك: أنّ بني إسرائيل أصابتهم أزْمَة حتّىٰ ضعف زكريّا عن حملها، وأنّهم اقترعوا علىٰ حملها فخرج السهم علىٰ نجّار منهم، فكان يأتيها كلّ يوم من كسبه بما يصلحها، فينميه الله ويكثّره، فيدخل عليها زكريّا فيجد عندها فضلاً من الرزق، فإذا وجد ذلك «قال يا مريم أنّىٰ لكِ هذا» أي من أين لك هذا؛ والأيام أيّام قحط؟.. وأنت ترىٰ أنّه لا دليل في الآية علىٰ أنّ الرزق كان من خوارق العادات... فعلينا أن لا نخرج عن سنّته، ولا نضيف إليه حكايات إسرائيليّة أو غير إسرائيليّة؛ لجعل هذه القصّة من خوارق العادات.

أقول: قد أخرج الآية عن سياقها وظاهرها، فإنّ الآية في سياق إثبات حنانه ـ تعالىٰ ـ وكرامته علىٰ مريم الطاهرة، من إعطائها الرزق غير العادي، واعتنىٰ بنقل خرافة ابن جرير في تفسير الآية بإثبات القحط، وعزل زكريّا عن كفالة مريم خلافاً لظاهر إطلاق الآية، وإثبات نجّار كفيلاً لمريم، الّتي تنازع الأحبار والعبّاد في كفالتها بإصابة القرعة له؛ والحال أنّ الله اختصّ زكريّا بهذه الموهبة بإصابة القرعة، وإثبات أنّ الله ينمي ويكثر ما يأتيه نجّار. أَليس إثبات البركة لرزق نجّار من خوارق العادات؟ أليس ما حكاه ابن جرير قصّة خرافيّة لا منشأ لها من الكتاب والسنّة والتاريخ المعتبر؟ وكيف كان، فقد جعل الله زكريّا كفيلاً لها في أوان احتياجها له، ولمّا شاهد منها الكرامة، وشاهد استمرار تلك الكرامة تعجّب منها فسأل مريمَ عنها وصارت ذكرىٰ وتذكرة له أنّ الله ـ سبحانه ـ يحقّق آمال السائلين.

قوله تعالىٰ: «إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب». (٣٧)

قد تقدم تفسيرها في قوله تعالى: «وترزق من تشاء بغير حساب». [آل عمران (٣)/٢٧]

قوله تعالىٰ: «هُنالكَ دعا زكريا رَبَّهُ».

لاخفاء عند أولي الألباب أنّ من طرق المعرفة بالله، وبنعوت ذاته وكمالاته هو التدبّر في آياته والتفكّر في علاماته، بل هو من أشرف الطرق وأسدّها المأمور

بها في الشرع وعند العقل. ولا فرق في ذلك بين المؤمن وغيره، ولا بين المؤمنين الكاملين ومن دونهم، فأعرفهم بالآيات أعرفهم بالله وأنورهم إيماناً، بداهة عدم تحديد المعرفة بالآيات وما يحصل منها من المعارف بحدود الأشخاص، فكلّما كان المتدبّر أفقه وأحكم وأبصر كانت المعرفة أنور وأجلىٰ. فهذا الطريق سلكه المؤمنون والأنبياء والمقرّبون. قال تعالىٰ:

«إنَّ في خلق السمٰوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار والفُلكِ الّتي تجري في البحر بما ينفعُ النَّاسَ وما أنزل اللهُ مِنَ السّماءِ من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتِها وبثَّ فيها من كلّ دابّةٍ وتصريفِ الرّياح والسَّحاب المسخّرِ بين السّماءِ والأرض لآياتٍ لقومٍ يعقلون».
[البقرة (٢)/١٦٤]

وأيضاً كلّما كانت الآياتُ أعظم، ولطائفُ الصنع وآياتُ القدرة والحكمة أتقن وأعجب، كانت المعرفة به ـ تعالىٰ ـ وبنعوت ذاته وكمالاته أجلّ وأبهى. وبما ذكر يعلم أنّ زكريّا عليه السلام لمّا شاهد مريم، وما خصّه ـ سبحانه ـ بها من الكرامات الباهرة، والمواهب العجيبة وإنباتها نباتاً حسناً في غاية الحسن والبهاء، والعظمة والضياء، وشاهد أنّ الله سلك بها مسالك الصدّيقين، وولّاها ولاية المتّقين، وربّاها تربية المصطفين، امتلأ قلبه ـ بمشاهدة هذه الآيات العظام ـ سكينةً وطمأنينةً ونوراً وعرفاناً وسكوناً بأنّ كرامة الله لا تحدّ، وليس وقفاً خاصّاً لقوم دون آخرين، فسألَ ربَّه أن يرزقه ولداً ذكراً صالحاً كريماً علىٰ الله تعالىٰ وذا مكانة وقرب عنده سبحانه.

فإن قلت: إنّ لازم ذلك أن لايكون زكريّا عليه السلام عالماً وعارفاً بأنّ الله تعالىٰ يقدر ويفعل أفعالاً خارقة للعادة.

قلت: لابدّ للمفسّر من أن يعرف ويفهم المواقف الّتي دعا فيها المخلصون والموحّدون وسألوا فيها ربّهم. فقول إبراهيم عليه السلام: «ربِّ أرِني كيفَ تُحيي الموتىٰ». [البقرة (٢)/٢٦٠] ينبغي للمفسّر أن يعرف الموقف الّذي وقف فيه إبراهيم عليه السلام، لا الحكم بعدم عرفانه وإيمانه بإحياء الموتىٰ.

ثمّ إنّ البحث عن «هُنالك» أنّه هل للزمان أو للمكان، ليس بشيء؛ وإنّما هو إشارة إلى الموقف المنوّر، الّذي وقف فيه زكريّا، غاية الأمر أنّه لاينفكّ عن الزمان والمكان.

ولا يخفىٰ أنّ الّذي حثّ زكريّا علىٰ أن يدعو ربّه بما دعا، هو مشاهدة هذه الآيات العجيبة والكرامات الباهرة، الّتي أفيضت علىٰ مريم بحيث صارت هي من الآيات، كانت تقوم في محرابها، ويضيء المحراب بنورها.

قوله تعالى: «قال ربّ هب لي من لدُنكَ ذرّيّة طيّبة».

قد تقدّم تفسير الذريّة وأنّها تطلق على الواحد والكثير، والطيّب ما يقرب معناه من الطهارة. ويستعمل كثيراً في الموارد الّتي استعملت فيها الطهارة. قال تعالىٰ:

«فهب لي من لدنك وليّاً يرثُني ويرثُ من آلِ يعقوبَ واجعله ربِّ رضيّاً». [مريم (١٩)/٥ و ٦]

فقوله تعالىٰ: «رضيّاً» حكاية عن دعاء زكريّا، قريب من دعائه عليه السلام في المقام، كما أنّ الحنان والزكاة من الله ـ سبحانه ـ متوجّه إلىٰ يحيىٰ. فالأقرب والأحرىٰ في تفسير الطيّب هو أنّ زكريّا دعا ربّه أن يهب له ولداً فائزاً بكراماته، ومعصوماً بعصمته، ومتحصّناً في حصن ولايته، كريماً علىٰ الله، وذا مكانة عنده جلّ ثناؤه، فاستجاب الله دعوته وأعطاه سؤله وأمنيّته فوق رغبته، ووهب له يحيىٰ صدّيقاً نبيّاً أشبه الناس بعيسى عليه السلام، ومصدّقاً وسيّداً وزاهداً حصوراً.

قوله تعالىٰ: «إنّكَ سميع الدّعاء». (٣٨)

قد تقدّم في قوله تعالىٰ: «إنّكَ أنت السميع العليم»، أنّ الظاهر من السميع ليس علمه بالمسموعات، بل الظاهر تمجيده ـ تعالىٰ ـ بإجابة دعاء الداعين، ولكن في المقام يمكن أن يكون تمجيداً له تعالىٰ بعلمه لمسألة السائلين.

قوله تعالىٰ: «فنادته الملائكة وهو قائم يصلّي في المحراب».

النداء من الملائكة صريح الآية الكريمة، وليس في الآية ما يدلّ علىٰ أنّ

المنادي هو جبرئيل عليه السلام. والموقف الّذي نادته الملائكة هو أشرف المواقف الّتي أكرم الله بها أهل توحيده وطاعته؛ وهي الصلاة الّتي هي منهاج الأنبياء ومعراج المقرّبين وقرّة عين سيّد المرسلين.

قال في المنار ٢٩٧/٣: فالظاهر من معناه المتبادر عندي أنّه نودي وهو قائم يدعو بذلك الدعاء... فالصّلاة دعاء والدعاء صلاة.

وفيه أنّ الصلاة ليست بمعنى الدّعاء ـ كما هو المتعارف في الألسنة ـ بل الصلاة بمعنى التوجّه واللّين والخشوع. والصّلاة تتحقّق بالدّعاء أيضاً فيكون الدعاء من مصاديق الصلاة فليس الدعاء والصلاة مترادفين، فلا يجوز تفسير أحدهما بالآخر.

والظاهر من الآية الكريمة أنّ بشارة الله ـ تعالىٰ ـ كانت بواسطة الملائكة، ولكن قوله تعالىٰ: **«يا زكريّا إنّا نُبشّرك بغلامٍ اسمه يحيىٰ»**. [مريم (١٩)/٧]، يدلّ على أنّ البشارة كانت من الله مباشرة من دون أيّ واسطة. ويمكن أن يكون النداء والبشارة في موقفين تارة بالوحي المباشر وأخرىٰ بواسطة الملائكة، فإنّ سنّة القرآن الكريم ـ في غير أفعال العباد وآثامهم وجناياتهم ـ نسبة جميع الحوادث الواقعة في العالم إلىٰ نفسه القدّوس سواء أكان وقوعها عن أسبابها أم لا، فالأفعال الصادرة عنه ـ تعالىٰ ـ بواسطة الملائكة المدبّرين، إنّما تصدر عنهم بأمره ـ تعالىٰ ـ وإذنه، فصحّت نسبتها إليه تعالى، فهذه الأفعال فعله ـ تعالىٰ ـ بالحقيقة، ونسبتهالمدبّرات بالعنايات المصحّحة لها. وأمّا ما نسب الله ـ تعالىٰ ـ إلىٰ نفسه فلا تجوز نسبته إلى المدبّرات، إلّا بعد قيام قرينة قطعيّة أنّ هذا الفعل قد وقع من المدبّرات المسخّرة تحت أمره تعالىٰ، فما لم تقم قرينة قطعيّة علىٰ ذلك لا وجه لحمله على المجاز.

قوله تعالىٰ: «أنّ الله يبشّرُكَ بيحيىٰ مصدّقاً بكلمة من الله وسيّداً حصوراً ونبيّاً من الصالحين». (٣٩)

أخبر الله ـ سبحانه ـ عن الغيوب، وبشّر زكريّا بغلام وسمّاه يحيىٰ، وأخبر بما يكرمه به من النبوّة، واصطفائه بكراماته ومواهبه. وقد استجاب دعاءه وأعطاه

سؤله وأمنيّته فوق رغبته.

والظاهر أنّ المراد من الكلمة هو عيسى بن مريم، وتصديق يحيى عليه السلام بعيسىٰ صلوات الله عليه، وبكونه من دعاة عيسىٰ ومن المروّجين لشريعة الإنجيل، كما أنّ الأنبياء بعد موسىٰ عليه السلام إلىٰ عيسى صلوات الله عليه كانوا علىٰ شريعة التوراة، ومن المروّجين والناشرين لأحكامه. وعيسىٰ عليه السلام نفسه أيضاً كان يعمل بالتوراة، ويأمر بالأخذ به، إلّا في بعض ما كان فيه من الآصار والأثقال كما سيجيء بيان ذلك في تفسير قوله تعالىٰ: «ولأُحلَّ لكم بعضَ الّذي حُرِّمَ عليكم». [آل عمران (٣)/٥٠]

قال في مجمع البيان ٤٣٨/٢: وكان يحيىٰ أكبر سنّاً من عيسىٰ بستّة أشهر وكلّف بالتصديق به، فكان أوّل من صدّقه، وشهد أنّه كلمة الله وروحه. وكان ذلك إحدى معجزات عيسىٰ عليه السلام، وأقوى الأسباب لإظهار أمره فإن الناس كانوا يقبلون قول يحيىٰ لمعرفتهم بصدقه وزهده.

في الكافي ٣٨٢/١، عن العدّة مسنداً عن يزيد الكناسي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام:

أكان عيسى بن مريم عليه السلام حين تكلّم في المهد حجّةً [ا] لله علىٰ أهل زمانه؟ فقال: كان يومئذٍ نبيّاً حجّة [ا] لله غير مرسل. أما تسمع لقوله حين قال: «إنّي عبدُ الله آتاني الكتابَ وجعلَني نبيّاً * وجعلَني مباركاً أينما كنتُ وأوصاني بالصلاةِ والزكاةِ ما دُمتُ حيًّا». [مريم (١٩)/٣١]

قلت: فكان يومئذٍ حجّة الله علىٰ زكريّا في تلك الحال وهو في المهد فقال: كان عيسىٰ في تلك الحال آية للنّاس، ورحمة من الله لمريم حين تكلّم فعبّر عنها، وكان نبيّاً حجّة علىٰ من سمع كلامه في تلك الحال. ثمّ صَمَتَ فلم يتكلّم حتّىٰ مضت له سنتان، وكان زكريّا الحجّة لله عزّ وجلّ على الناس بعد صمت عيسىٰ بسنتين، ثمّ مات زكريّا فورثه ابنه يحيىٰ وأخذ الكتاب والحكمة؛ وهو صبيّ صغير. أما تسمع لقوله

عزّ وجلّ: «يا يحيىٰ خُذِ الكتابَ بقوّة وآتيناه الحكمَ صبيّاً». [مريم (١٩)/١٣] فلمّا بلغ عيسىٰ عليه السلام سبع سنين تكلّم بالنبوّة والرّسالة حين أوحى الله تعالىٰ إليه، فكان عيسى الحجّة علىٰ يحيىٰ وعلى الناس أجمعين، وليس تبق الأرض ـ يا أبا خالد ـ يوماً واحداً بغير حجّة لله على الناس منذ يوم خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الأرض.

قوله تعالىٰ: «قال ربِّ أنّىٰ يكون لي غلامٌ وقد بلغني الكبرُ وامرأتي عاقر».

بعد ما استجاب الله ـ سبحانه ـ دعاء زكريّا في طلب الولد، أراد أن يعلم أنّه كيف يكون له ولد، وقد بلغ من الكبر إلىٰ حدٍّ فقدت شرائط التوالد وكانت امرأته عاقراً؟

قوله تعالىٰ: «قال كذلكَ الله يفعل ما يشاء». (٤٠)

جواب عن تعجّبه واستبعاده بأنّ الله قادر، يفعل ما يشاء.

قوله تعالىٰ: «قال ربِّ اجعل لي آية».

ليس سؤال زكريّا عليه السلام ربّه أن يجعل له آية لرفع الشكّ والترديد في وعده ـ سبحانه ـ بل الظاهر أنّه بعد الإيمان بتحقّق القضيّة وانبساطه وسروره بذلك، والإذعان لتحقّق وعده تعالىٰ، أراد أن يكون عارفاً وعالماً بحقيقة القضيّة، وتشخيص هذه الكرامة علىٰ ما هي عليه من الأسرار والرموز.

قوله تعالىٰ: «قال آيتك ألّا تكلّم النّاس ثلاثة أيّام إلّا رمزاً».

أي آيتك في ذلك أنّك لا تقدر على التكلّم بلسانكَ إلّا بذكر الله وتسبيحه وتقديسه. ومن عجائب القضيّة أنّ زكريّا لم يقدر على التكلّم في شأن هذا القضيّة، مع قدرته علىٰ تسبيحه ـ تعالىٰ ـ وتهليله وتقديسه.

قوله تعالى: «واذكر ربّك كثيراً وسبّح بالعشيّ والإبكار». (٤١)

الظاهر أنّه ـ تعالىٰ ـ أمر زكريّا بتسبيحه وتقديسه بالعشيّ والإبكار شكراً لهذه النعمة الكريمة والكرامة الباهرة.

وَإِذْ قَالَتِ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ
عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى
وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ
عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾
وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ
ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ
أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ

وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

قوله تعالىٰ: «وإذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله آصطفاك وطهّرك واصطفاك علىٰ نساء العالمين». (٤٢)

الآية الكريمة مسوقة لبيان الشؤون الراجعة إلىٰ مريم، فخاطبها الملائكة: يا مريم إنّ الله اختارك لهذه الكرامة الكبيرة، وجعلك من سلالة النبيّين، وجعلك بعصمته الكبرى مصونة ومعصومة ومحفوظة من كلّ سيّئة كبيرة وصغيرة. وفضّلك علىٰ نساء العالمين بأنّك تلدين من غير فحل.

في تفسير عليّ بن إبراهيم ١/١٠٢، عن أبيه مسنداً عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

> وقوله تعالىٰ: «وإذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله اصطفاك ...». قال اصطفاها مرّتين: أمّا الأولى اصطفاها أي اختارها. وأمّا الثانية فإنّها حملت من غير فحل فاصطفاها بذلك علىٰ نساء العالمين.

قال في في مجمع البيان ٢/٤٤٠: وقال أبو جعفر عليه السلام: معنىٰ الآية: اصطفاك من ذرّيّة الأنبياء وطهّرك من السفاح، واصطفاك لولادة عيسىٰ عليه السلام من غير فحل. وخرج بهذا من أن يكون تكراراً، إذ يكون الاصطفاء علىٰ معنيين مختلفين.

أقول: الظاهر من تكرار الاصطفاء في الآية الكريمة أنّ اصطفاء مريم عليها السلام علىٰ نساء العالمين ليس اصطفاءً مطلقاً، فعلى هذا تدلّ الآية الكريمة علىٰ اختصاصها بفضيلة خاصّة دون سائر النساء، ولا تدلّ علىٰ كونها أفضل من جميع النساء في جميع الفضائل والمكارم.

قوله تعالىٰ: «يا مريم اقنتي لربّكِ واسجدي واركعي مع الراكعين». (٤٣)

قال في لسان العرب ١٣٣/٨: ركع: الركوع: الخضوع.

أقول: الآية الكريمة تدلّ علىٰ أنّ مريم عليها السلام كانت محدّثة، تخاطبها الملائكة، وتأمرها بالقنوت والخضوع والخشوع والسجود في ساحته ـ سبحانه ـ مع الخاضعين الّذين يؤمنون بالله ـ سبحانه ـ وتوحيده، كما أنّ سيّدتنا الزهراء الطاهرة صلوات الله عليها كانت محدّثة، يخاطبها ويكلّمها الرّوح الأمين من وراء الحجاب. ولها كتاب يسمّىٰ بـ«مصحف فاطمة»؛ وهو من مفاخر مواريث الإمامة عند الحجّة القائم المنتظر عجلّ الله ـ تعالىٰ ـ فرجه الشريف. وهذا المصحف ليس فيه تشريع منه الحلال والحرام وغيرهما مثل القرآن، بل هو من قبيل البشارات والأحوال الشخصيّة والإخبار بالغيوب ونظائرها.

قوله تعالىٰ: «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك».

الظاهر أنّ ذلك إشارة إلىٰ قصّة مريم علىٰ ما بيّناه. وقد ذكرنا تفسير الغيب في قوله تعالىٰ: «الّذين يؤمنون بالغيب». [البقرة (٢)/٣]. وكون قصّة مريم غيباً إنّما هو من جهة أنّه يستحيل الاطلاع عليها، إلّا بوساطة وحي الله ـ تعالىٰ ـ إلىٰ أحد من رسله وأنبيائه.

قوله تعالىٰ: «وما كنتَ لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنتَ لديهم إذ يختصِمونَ». (٤٤)

الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وآله، يقول تعالىٰ: لستَ حاضراً عند سدنة الكنيسة إذ يقرعون لتحصيل كفالة مريم، ولستَ لديهم كي ترىٰ مخاصمتهم واختلافهم في إحراز هذه الكفالة، وانتهاء الأمر إلىٰ زكريّا عليه السلام.

قوله تعالىٰ: «إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه».

ظاهر الآية أنّ هذه البشارة بواسطة جماعة من الملائكة لا جبرئيل فقط.

ولا شاهد في الآية الكريمة علىٰ أنّ المبشّر هو جبرئيل، أو الرّوح الممّثل في مرتبة تمثّله لها، كما أنّه لا دليل علىٰ أنّ موقف هذه البشارة؛ هو موقف تمثّل الرّوح لها كي يهب لها بإذن الله غلاماً زكيّاً. ولا دليل أيضاً علىٰ أنّ مناجاة مريم بقولها: «ربّ أنّىٰ يكون لي ولدٌ ولم يمسسني بشر» هو بعينه ما قالت في جواب الروح عند تمثّله لها، حيث قالت: «أنّىٰ يكون لي غلامٌ ولم يمَسسني بشرٌ ولم أكُ بغيًّا». [مريم (١٩)/ ٢٠]

فالملائكة المبشّرين غير جبرئيل، وموقف البشارة غير موقف تمثّل الروح. ومناجاتها بحسب نصّ الآية صريح أنّها مناجاة مع الله ـ سبحانه ـ لا مع الملائكة المبشّرين.

والكلمة والكلام المستعمل في الكتاب والسنّة لها إطلاقات بحسب الموارد المستعملة. فقد استعملت وأُطلقت الكلمة علىٰ الأمور العينيّة الخارجيّة، وقد أُطلقت علىٰ الحكم والقضاء الإلهي. قال تعالىٰ:

«وتمّت كلمة ربّك الحسنىٰ علىٰ بني إسرائيل بما صبروا». [الأعراف (٧)/ ١٣٧]

«كذلكَ حقّت كلمة ربّك علىٰ الّذين فسقوا أنّهم لا يؤمنون». [يونس (١٠)/ ٣٣]

وتطلق علىٰ ظهور معرفته ـ تعالىٰ ـ علىٰ قلوب عباده الصالحين. قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام في النهج، الخطبة/ ٢٢٢:

وما برحَ اللهِ ـ عزّت آلاؤه ـ في البرهةِ بعد البرهةِ، وفي أزمانِ الفتراتِ، عبادٌ ناجاهُم في فكرِهم وكلّمهم في ذاتِ عقولِهم، فاستصبحُوا بنور يقظةٍ في الأبصار والأسماعِ والأفئدةِ...

وقد أطلق علىٰ الوحي الصادر من الله ـ سبحانه ـ إلىٰ أنبيائه بالألفاظ والحروف. فلا ينحصر إطلاق الكلمة في الأمور الخارجيّة العينيّة، بل ظاهر الإطلاقات بالأوّليّة والأولويّة راجع إلىٰ الكلام اللّفظي. والمتكلّم من أسمائه ـ تعالىٰ ـ باعتبار نسبة التكلّم إليه ـ سبحانه ـ علىٰ سبيل الاشتراك اللّفظي، ولا جامع بين كلامه ـ تعالىٰ ـ وكلام عباده بوجه من الوجوه. فلا وجه لتأويل الكلام اللّفظي إلىٰ الأعيان الخارجيّة. ولا يبعد أن تكون عناية إطلاق الكلمة علىٰ

المخلوقات بلحاظ استتباعها كلمة كن من حيث إطلاق السبب على المسبب، وإطلاق الكلمة علىٰ الملفوظات لا يحتاج إلىٰ هذه العناية، وإن صحّ الإطلاق بهذه العناية أيضاً. وحيث إنّ المخلوقات والنظرات الإلهيّة مختلفة من حيث الشرف والمنزلة، توصف الكلمة بأنّها تامّة أو عالية.

في الخصال ٢٥٨/١، عن أبيه مسنداً عن أحمد بن محمّد البزنطي، عن رجل من خزاعه، عن أسلمي، عن أبيه، عن أبي عبدالله السلام قال:

تعلّموا العربيّة فإنّها كلام الله الّذي تكلّم به خلقه.

قوله تعالىٰ: «اسمه المسيح عيسى ابن مريم».

ذكروا في اشتقاق المسيح، ووجه تسميته بهذا اللّفظ وجوهاً لا جدوى لذكرها، لعدم صلاحيّة شيء منها للرّكون إليه. ويشبه أن يكون فيه المعنى الوصفي، وعيسىٰ عطف بيان منه.

قوله تعالىٰ: «وجيهاً في الدّنيا والآخرة».

قال في لسان العرب ٥٥٧/١٣: والوجه: الجاه... ورجلٌ وجيهٌ: ذو وجاهة. وقد وَجُه الرّجل ـ بالضمّ ـ صار وجيهاً أي ذا جاه وقدر. وأوجهه الله أي صيّره وجيهاً.

أقول: وجاهة عيسىٰ عليه السلام وقدره في الدّنيا معلوم بالضرورة من اصطفائه تعالىٰ إيّاه بالنبوّة والشريعة والرسالة، وتكريمة بالآيات البيّنات الباهرات. وحمله عليه السلام الاسمَ الأعظم الّذي يحيي به الأموات و... وأمّا في الآخرة بتشريفه تعالىٰ بالكرامات والمقامات المعدّة لأحبّائه وبالشفاعة، يدعو ويشفع ولا تردّ شفاعته وتعطىٰ مسألته.

قوله تعالىٰ: «ومن المقرّبينَ». (٤٥)

أي من جملتهم: وهم الّذين حازوا مقام القرب منه ـ تعالىٰ ـ والمكانة منه سبحانه. وعند التحليل يرجع إلىٰ عناياته ـ سبحانه ـ الخاصّة ومواهبه وكراماته المكنونة لهم في الدنيا والآخرة. ولا موقع لتوهّم القرب المكاني، كما أنّه لا موقع لتوهّم القرب بحسب سلسلتي البدء والعود، إذ فيه أنّ أصل الفرض من حيث

صدور الكائنات منه تعالى الأوّل فالأوّل بحسب الذات. والتقدّم الذّاتي الواقعي، والحال أنّ القرب المذكور كسبيّ بعدما لم يكن لا أنّه ـ تعالىٰ ـ أوجده مقرّباً.

قال في رياض السالكين /٨٦، في شرح دعائه عليه السلام علىٰ حملة العرش في قوله عليه السلام: وجبرئيل الأمين علىٰ وحيك... المقرّب عندك: المقرّب قرب المنزلة والرتبة لا قرباً مكانيّاً. والعنديّة عنديّة إكرام وتشريف.

أقول: القرب منه ـ تعالىٰ ـ سواء أكان في الأنبياء أم في الملائكة ليس هبة جزافيّة أو كمالاً ذاتيّاً، بل هو منزلة ورفعة وإكرام منه ـ تعالىٰ ـ للمطيعين المخلصين. وكلمّا كانت المجاهدة أشقّ، والتحمّل في جنب الله الكريم أحمز كان القرب أتمّ وأكمل قال تعالىٰ:

«لن يستنكِفَ المسيحُ أن يكونَ عبداً لله ولا الملائكةُ المقرّبون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً». [النساء (٤)/١٧٢]

فالآية الكريمة ناصّة علىٰ أنّ العبوديّة التكليفيّة عبارة عن الخضوع والتذلّل. ولا فرق في هذا الحكم الواقعيّ بين الملائكة وغيرهم من العلماء العقلاء. وأنّ هذا القرب قُرب تكريميّ لا السِبْق بحسب مرتبة الوجود الواقعيّ أو ناشئُ منه.

في الاحتجاج ١٨٨/٢، في احتجاج الإمام الرّضا عليه السلام علىٰ أبي قرّة. قال أبو قرّة:

فمَن أقرب إلى الله، الملائكة أو أهل الأرض؟

قال أبو الحسن عليه السلام: إن كنت تقول بالشبر والذراع، فإنّ الأشياء كلّها باب واحد؛ هي فعله لا يشغل ببعضها عن بعض، يدبّر أعلى الخلق من حيث يدبّر أسفله، ويدبّر أوّله من حيث يدبّر آخره، من غير عناء ولا كلفة، ولا مؤونة، ولا مشاورة ولا نصب.

وإن كنت تقول: مَن أقرب إليه في الوسيلة؟ فأطوعهم له. وأنتم ترون أنّ أقرب ما يكون العبد إلىٰ الله وهو ساجد...

في البحار ٣٧٥/٦٩، عن أمالي الطوسي، عن المفيد، عن ابن قولويه مسنداً

عن الحسن بن زيد، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

أقربكم غداً منّي في الموقف أصدقكم للحديث، وأداء الأمانة، وأوفاكم بالعهد، وأحسنكم خلقاً، وأقربكم من الناس.

أقول: القرب من رسول الله صلّى الله عليه وآله قرينة علىٰ أنّ القرب من الله ـ تعالىٰ ـ والمراد منه هو القرب الإكرامي لا القرب الذّاتي.

فتلخّص أنّ الأنبياء والملائكة والأصفياء أكرمهم الله بالقرب التشريفي وعلوّ العظمة، ورفعة المقام، وأنّ الملائكة على اختلاف مقاماتهم وشؤونهم الّتي أمروا بها، ليس قربهم إلّا مثل قرب الأنبياء بالتشريف والتكريم؛ لشدّة مراقبتهم في حريم الملكوت، وكمال خلوصهم واجتهادهم في ذكر الله سبحانه، وعدم استنكافهم في شيء ممّا يرد عليهم من أوامر ربّهم، ووظائف حضورهم في محافل القدس ومجالس الأنس.

قوله تعالىٰ: «ويكلّم النّاس في المهد وكهلاً».

قال في التبيان ٤٦٣/٢: والكهل: من كان فوق الغلومة ودون الشيخوخة. ومنه اكتهل النبت: إذا طال وقوي: ومنه الكاهل فوق الظهر إلىٰ ما يلي العنق... وقيل الكهولة: بلوغ أربع وثلاثين سنة.

وقال في الميزان ٢١٣/٣: فكلام الصبيّ في المهد، وإن لم يكن في نفسه من خوارق العادة، لكن ظاهر الآية أنّه يكلّم الناس في المهد كلاماً تامّاً يعتني به العقلاء من الناس كما يعتنون بكلام الكهل. وبعبارة أخرىٰ يكلّمهم في المهد كما يكلّمهم كهلاً. والكلام من الصبيّ بهذه الصفة آية خارقة.

أقول: ظاهر الآية هو التكلّم بالنبوّة في المهد. فهذه قرينة أنّ تكلّمه في الكهولة أيضاً بالنبوّة، فالنبوّة في المهد خرق للعادة، وادّعاء النبوّة بالكلام في المهد برهان في مقام الإثبات، فإنّه عليه السلام قال: «... إنّي عبدُ الله آتاني الكتابَ وجعلني نبيًّا * وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلوٰة والزكوٰة ما دُمتُ حيًّا وبرًّا بوالدتي». [مريم (١٩)/٣٠ ـ ٣٢]

فهذا التكلّم وإن كان في أوائل ولادته، ولكنّه لو فرضناه في أثناء السنتين وأزيد فيكون آية أيضاً. بعبارة أخرى مورد البشارة أنّ مريم عليها السلام ستلد غلاماً مباركاً يتكلّم بالنبوّة من حيث الولادة في المهد وكهلاً. فبالحقيقة قيد المهد والكهل لإثبات آية النبوّة، فعليه لا يتوجّه السؤال بأن التكلّم في المهد يمكن أن يكون خارقاً للعادة وآية للنبوّة، ولكنّ تكلّمه كهلاً ليس أمراً خارقاً للعادة ليكون آية للنبوّة. والجواب أنّ التكلّم في المهد برهان لنبوّته عليه السلام، مع ما فيه من العناية والحكمة البالغة من الله في تنزيه ساحة مريم القدّيسة من الإثم والبغي، وعطف التكلّم في الكهولة علىٰ المهد ليس لبيان أنّ التكلّم في الطفولة كان مثل التكلّم في الكهولة، بل عطف آية مكان آية. إذ كلّ منها أمر خارق للعادة وآية بخصوصه، فإنّ التكلّم بالنبوّة كما أنّه آية للنبوّة في الطفولة كذلك هو آية في الكهولة. وكذلك ليس عطف الكهولة على الطفولة لبيان تحديد عمر المسيح عليه السلام ولا في سياقه.

قال في مجمع البيان ٤٤٣/٢: وفي ظهور المعجزة في المهد قولان: أحدهما أنّها كانت مقرونة بنبوّة المسيح؛ لأنّه ـ تعالىٰ ـ أكمل عقله في تلك الحال وجعله نبيّاً، وأوحىٰ إليه بما تكلّم به، عن الجبائي. وقيل كان ذلك علىٰ التأسيس والإرهاص[1] لنبوّته، عن ابن الإخشيد. ويجوز عندنا الوجهان. ويجوز أيضاً أن يكون معجزة لمريم تدلّ علىٰ طهارتها وبراءة ساحتها. إذ لا مانع من ذلك، وقد دلّت الأدلّة الواضحة علىٰ جوازه.

أقول: ليس كلّ خارق للعادة معجزاً بل الخارق إنّما يكون معجزاً إذا كان بالتحدّي، فإثبات الدّعوىٰ وتعجيز الخصم المقابل معجزة بالحقيقة لغة واصطلاحاً. وإذا كان الخارق لغير الغرض المذكور فهي كرامة. ولا احتياج في كون الخارق معجزاً بكونه عقيب الدّعوىٰ، بل ربّما يكون نفس الدعوىٰ إعجازاً مثل القرآن الكريم فإنّه مصداق للنبوّة والرسالة بالحقيقة، ومصداق للمعجزة أيضاً، وما نحن

---

١ ـ الإرهاص هو الأمر الخارق للعادة الّذي يظهر من النبيّ قبل بعثته.

فيه أيضاً من هذا القبيل فإنّ المسيح عند أوّل تكلّمه قال: «إنّي عبدُالله آتاني الكتابَ وجعلني نبيًّا». فتكلّمه إعجازاً عين إدّعائه النبوّة، وادّعاؤه النبوّة عين إثباتها.

علىٰ أنّه يمكن أن يكون تكلّمه عليه السلام في المهد إخباراً عن النبوّة المجعولة المحقّقة في حقّه علىٰ ما يدلّ عليه قوله: «وجعلني نبيًّا».

قوله تعالىٰ: «ومن الصّالحين». (٤٦)

أي من جملة الأولياء الصالحين. حال من الكلمة؛ وهو عيسى بن مريم عليه السلام.

قوله تعالىٰ: «قالت ربّ أنّىٰ يكون لي ولد ولم يمسسني بشر».

الظاهر أنت الخطاب مع الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ لا مع الملائكة المبشرين كما بيّناه. والجواب أيضاً منه ـ تعالىٰ ـ بخلاف الآيات الّتي في سورة مريم في بيان قصّتها، فانّ الظاهر منها أنّ الكلام من الروح الممّثل لا من الله ولا من الملائكة المبشّرين. والجواب أيضاً من الروح الممّثل. قال الروح في جواب مريم: «**قال كذلك قال ربّك هو عليّ هيّنٌ**». [مريم ٢١/١٩] وأسند الجواب إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ ولم يسند إلىٰ نفسه؛ وهذا نصّ في أنّ المخاطب هو الروح والكلام معه.

وهذا السؤال، سؤال استيضاح واستبصار لا استنكاف واستنكار، فإنّها كانت صدّيقة عارفة بمقام الربوبيّة وشؤون الألوهيّة.. وقياس الموقف وأهميّة هذه الآية العظيمة بالنسبة إلىٰ موقف زكريّا وبشارة الولد به ممّا لا يخفىٰ، فإنّه قد سأل زكريّا آية زيادة للاستبصار وتحصيلاً للطمأنينة، والسكينة الإلهيّة بخلاف مريم فإنّها تأيّدت بتأييد وتسديد ربّانيّ، فاستغاثت إلىٰ ربّها واستوضحت من عجيب شأنها، فهنيئاً لها قد شرّفت بخطاب ربّها وحلّ مشكلتها، وتثبيت كرامتها علىٰ خالقها ومكانتها من الله سبحانه، فإنّه ـ تعالىٰ ـ خاطبها بقوله: «**قال كذلك اللهُ يخلقُ ما يشاء إذا قضى أمراً فإنّما يقولُ له كن فيكون**». (٤٧)

يعني أنّ جريان أمر الخلق من مسير الأسباب والعلل، ليس بحيث يجب أن يتحقّق المشاء والمقضيّ بواسطة الأسباب والعلل، بأن يكون قانون العلّيّة والمعلوليّة

حاكماً على المشيئة والقضاء، بل حقيقة الأمر أنّ الأسباب والعلل، وجميع ما في طولها من الأعيان والحقائق بالنسبة إلىٰ المشيئة والقضاء علىٰ عرض واحد. وتنظيم أمور العالم بالأسباب والعلل إنّما هو لحكمة اقتضت وترجيح ورأي منه ـ سبحانه ـ اختار به. ومن الواضح أنّه لا تتعيّن ولا تنحصر الحكمة والترجيح بها بطور واحد ونهج فارد، لكون القدرة والعلم مطلقين بالنسبة إليها وغيرها، وعدم تعيّن أحدهما بشيء من المعلوم، بل الّذي لابدّ منه هو أن تكون الأمور وتتحقّق بالمشيئة والقضاء، فالاستئناس بخلقة الأعيان من مجاري الأسباب والعلل نظرة عامية ناشئة من الغفلة، وعدم التوجّه إلىٰ سعة قدرته ـ تعالىٰ ـ وعلمه. والحكم بأنّ نظام الأسباب والعلل هو بعينه نظام علمه ـ تعالىٰ ـ ومعلول لعلمه سبحانه، يوجب كون العلم والقدرة متعيّنين ومحدودين بما يحصل من مسير الأسباب والعلل، ولكنّ الله صرّح بأنّ ما يخلق لابدّ من أن يكون بالمشيئة والقضاء كائناً ما كان، سواءٌ كان عن سبب مستند إلىٰ المشيئة أم عن المشيئة من دون السبب.

والفرق بين هذه الآية وقوله تعالى: **«قال كذلك قال ربُّكِ هو عليَّ هيّنٌ ولنجعلَهُ آيةً للنّاس ورحمةً منّا وكان أمراً مَقضِيًّا»**. [مريم (١٩)/٢١]

أنّ الآية المبحوث عنها في مقام شرح سنّة الله الحكيمة القيّمة في باب الصنع والإيجاد، وتوضيح مسألة غامضة من المعارف الإلٰهيّة، وبيان حدوث المشيئة، وإبطال كون المشيئة أزليّة، وكونها مصداقاً للعلم، وبيان أنّ بعد المشيئة الحادثة لابدّ من القضاء، والمشيّة محلّ القضاء لا تأثير لها في وقوع الفعل قبل القضاء، كما أنّ القضاء لابدّ فيه من الأمر والإذن والإمضاء بقوله: «كن». فما لم يلحقه أمر لما يقع في الخارج ولما يتمّ أمر الخلقة، فلابدّ من تقييد إطلاق الآية في أمر الخلقة بالإرادة والتقدير أيضاً، فإنّ العلم حيث لا تناهي له لابدّ فيه من المشيئة أي تعيّن ما، ثمّ الإرادة ثمّ التقدير ثمّ القضاء ثمّ الإمضاء. والقرآن الكريم اتّكل في بيان هذا المورد على البيان المنفصل كما في غيره من الموارد. قال تعالىٰ:

«إنّما أمرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون». [يس (٣٦)/٨٢]

«إنّا كلَّ شيءٍ خلقناهُ بقدرٍ». [القمر (٥٤)/٤٩]

فالآيات والأخبار مشحونة بالمشيئة والإرادة والقدر والقضاء والإمضاء والأمر. وأمّا ما في سورة مريم فإخبار عن الأمر المقضيّ، وإخبار عن الله ـسبحانه ـ أنّ هذه القضيّة أمر هيّن عنده من دون تعرّض لجهات الفعل، وإخبار عن سرّ تغيير مسير الخلقة عن مجاريها العادية، وبيان لبعض الحكم فيها بأن يجعلها آية للنّاس.

قوله تعالىٰ: «ويعلّمه الكتاب والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل». (٤٨)

بشارة أخرى لمريم عليها السلام بأنّه ـتعالىٰ ـ يعلّم المسيح الكتاب؛ والمراد منه في المقام الكتب النازلة على الأنبياء السابقين، فعلىٰ هذا يكون اللّام للاستغراق. والشاهد علىٰ ذلك ذكر التوراة والإنجيل، فإنّ الظاهر أنّ ذكرهما تخصيص بعد التعميم؛ وهو المتناسب في المقام.

في كمال الدّين ٢٢٤/١، عن أبيه مسنداً عن محمّد بن إسماعيل القرشي، عمّن حدّثه، عن إسماعيل بن أبي رافع، عن أبيه أبي رافع قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

> إنّ جبرئيل عليه السلام نزل عليّ بكتاب فيه خبر الملوك ـ ملوك الأرض قبلي ـ وخبر من بعث قبلي من الأنبياء والرّسل... ففي سنة إحدىٰ وخمسين من ملك (أسبح بن أشجان) بعث الله عزّ وجلّ عيسى بن مريم عليه السلام، واستودعه النور والعلم والحكمة وجميع علوم الأنبياء قبله، وزاده الإنجيل وبعثه إلىٰ بيت المقدّس إلىٰ بني إسرائيل يدعوهم إلىٰ كتابه وحكمته وإلىٰ الإيمان بالله ورسوله....

و«**الحكمة**» قد تقدّم تفسيرها في قوله تعالى: «**ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً**». [البقرة (٢)/٢٦٩]، وقلنا هنا: إنّ الحكمة عبارة عن نفس العلوم الحقّة؛ وهي العلوم الضروريّة الفطريّة المعبّر عنها في عرف الفقهاء بالمستقلّات العقليّة، والعناية في إطلاق الحكمة علىٰ هذه المعارف والعلوم هي بلحاظ إتقانها وإحكامها. فعلىٰ هذا تكون الحكمة أخصَّ من الكتاب.

و«**التوراة والإنجيل**». قد ذكر المفسّرون أنّ ذكرهما بعد الكتاب تخصيص

بعد التعميم.

أقول: هو كذلك، خاصّة على ما اخترناه من كون اللّام في «الكتاب» للاستغراق. والعناية في ذكرهما بالخصوص، فالتوراة لأهمّيته والتماسّ المستقيم به في تحليل بعض محرّماته، وتخفيف بعض آصاره. والإنجيل لما فيه من الشرائع والتقنين الجديد.

قوله تعالىٰ: «ورسولاً إلىٰ بني إسرائيل».

قوله: «رسولاً» منصوب بعامل مقدّر. أي يجعله رسولاً، أو يرسله أو يبعثه. والجارّ ليس متعلّقاً بـ«رسولاً» لأنّ مرتبة جعله رسولاً، وتحميله الرّسالة أجنبيّ عن مرتبة إرساله، وبعثه إلى الناس كما لا يخفىٰ، فيكون متعلّقاً بعامل مقدّر غير العامل في «رسولاً». والجارّ والمجرور وصف لـ«رسولاً» فلا دلالة في الآية الكريمة على اختصاص نبوّة عيسىٰ ببني إسرائيل، إذ الوصف لا يدلّ علىٰ نفي الحكم في غير مورده لعدم المفهوم في الوصف.

والقول بعموميّة رسالته عليه السلام إلىٰ غير بني إسرائيل من الأمم يحتاج إلى الدليل.

قال في الميزان ٢١٦/٣: وقد مرّ الكلام على النبوّة في ذيل قوله تعالىٰ: «كان النّاسُ أُمةً واحدةً فبعثَ اللهُ النبيين» الآية. [البقرة (٢)/٢١٣]، أنّ عيسىٰ عليه السلام كموسى من أولي العزم، وهم مبعوثون إلىٰ أهل الدّنيا كافّة.... بعبارة أخرى: النبيّ هو الإنسان المبعوث لبيان الدّين للناس، والرسول هو المبعوث لأداء بيان خاصّ يستتبع ردُّه الهلاكَ، وقبولُه البقاءَ والسعادةَ... وإذا كان كذلك لم يستلزم الرسالة إلىٰ قوم خاصّ البعثة إليهم، وكان من الممكن أن يكون الرسول إلىٰ قوم خاصّ نبيّاً مبعوثاً إليهم وإلىٰ غيرهم كموسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام.... ونظير ذلك ما كان من أمر إيمان النّاس بعيسىٰ فلقد آمن به عليه السلام قبل بعثة النبيّ صلّى الله عليه وآله الروم وأمم عظيمة من الغربيّين... وأمم من الشرقيّين كنجران وهم جميعهم ليسوا من بني إسرائيل.

وفيه أنّ الدّليل لا يساعد على المدّعىٰ، فإنّ المدّعىٰ أنّ النبيّ المسؤول بدعوة

قوم بخصوصهم من قبل الله هل يجوز له التخطّي عن حدود مأموريّته، أو لا يجوز له بسط الدعوة إلىٰ سواهم؟ ومن الممكن أن يقال بعدم جوازه. وكونهم أولي العزم وأرباب الشرائع لا يدلّ علىٰ عموميّة نبوّتهم. وأمّا عقلاء الأمم بعد ما استشرقوا ونالوا حقيقة الأمر وعلموا حقّانيّة الدّعوة، هل يمكن أن يقال بحرمة الاتّباع وقبول الدّعوة أم لا؟ فالظاهر أنّ العلم والنور الساطع يستضيء به كلّ من أستضاء، سواءٌ كان ممّن اعتني به بالخصوص أم لا. ولكن هذا لا يدلّ علىٰ وجوب دعوة الكلّ.

فتحصّل في المقام أنّ الآية الكريمة لا دلالة فيها على اختصاص رسالة عيسى عليه السلام ببني إسرائيل، كما لا دلالة فيها علىٰ عموميّة دعوته لعامّة أهل الدّنيا، نعم في بعض الأخبار ما يدلّ علىٰ اختصاص دعوته ببني إسرائيل فقط.

في كمال الدّين ١/٢٢٠، عن محمّد بن إبراهيم مسنداً عن محمّد بن عليّ الباقر عليهما السلام قال:

... ثمّ إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ أرسل عيسىٰ عليه السلام إلىٰ بني إسرائيل خاصّة، فكانت نبّوته ببيت المقدّس.

وفي البحار ١٤/٢٥٣، عن قصص الأنبياء، في رواية: أتت عيسى امرأةٌ من كنعان بابنٍ لها مزمن فقالت: يا نبيّ الله ابني هذا زمن، أدع الله له. قال: إنّما أمرت أن أبرئ زمنىٰ بني إسرائيل. قالت: يا روح الله إنّ الكلاب تنال من فضول موائد أربابها إذا رفعوا موائدهم، فأنِلْنا من حكمتك ما ننتفع به، فاستأذن الله تعالىٰ في الدّعاء فأذن له فأبرأه.

أقول: الأخذ بهذه الروايات في أمثال المقام غير خال عن الإشكال. وحيث إنّه ليس في المقام دليل يسكن إليه القلب، ويعتمد عليه فالأولى السكوت عن إعطاء النظر.

قوله تعالىٰ: «أنّي قد جئتكم بآية من ربّكم».

الجملة إمّا حال عن «رسولاً» أو مقول لـ«قال» محذوف علىٰ سبيل الاستئناف. فالمقام مقام دعوى النبوّة متحدّياً بالإعجاز، والآية من الله سبحانه. وما آتاه من الآيات خمس آيات بيّنات. ولا ريب في أنّ هذه الآيات إنّما هي من

عند الله بالحقيقة، وظهرت عند دعائه عليه السلام في مقام إثبات نبوّته، وليست دخالة عيسىٰ عليه السلام فيها إلّا الدعاء والسؤال.

قوله تعالىٰ: «أنّي أخلق لكم من الطّين كهيئة الطّير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله».

قال في لسان العرب ٨٥/١٠: وأصل الخلق التقدير... والخلق في كلام العرب: ابتداع الشيء علىٰ مثال لم يسبق إليه. وكلّ شيء خلقه الله فهو مبتدؤه علىٰ غير مثال سبق إليه... قال أبو بكر بن الأنباري: الخلق في كلام العرب علىٰ وجهين: أحدهما الإنشاء علىٰ مثال أبدعه، والآخر التقدير. وقال في قوله تعالىٰ: «**فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ**». [المؤمنون ١٤/٢٣]، معناه: أحسن المقدّرين... وقوله تعالىٰ: «**أنّي أخلق لكم من الطّين**»، خلقه، تقديره. ولم يرد أنّه يحدث معدوماً.

وقال في المنار ٣١١/٣: قال الأستاذ الإمام: الخلق: التقدير والترتيب لا الإنشاء والاختراع. ويقرب أن يكون هذا إجماعاً من المفسّرين. وفسّره الجلال هنا بالتصوير لأنّه من التقدير... وغاية ما يفهم منها أنّ الله ـ تعالىٰ ـ جعل فيه هذا السرّ، ولكن لم يقل أنّه خلق بالفعل. ولم يرد عن المعصوم أنّ شيئاً من ذلك وقع. وقد جرت سنّة الله ـ تعالىٰ ـ أن تجري الآيات علىٰ أيدي الأنبياء عند طلب قومهم لها، وجعل الإيمان موقوفاً عليها، فإن كانوا سألوه شيئاً من ذلك فقد جاء به.

أقول: الظاهر أنّ الطين صار بأمر الله لحماً وعظماً ودماً وأعصاباً وعروقاً ثمّ نفخ فيه الحياة بإذن الله. ولم تُذكر في الآية المباركة كلمة الإذن في الخلق وفي النفخ فيتوهّم في بادئ الرأي أنّ قوله: أخلق وأنفخ ليسا من الآية والمعجزة، بل الآية هو قوله تعالى: «**فيكون طيراً بإذن الله**» إلّا أنّ التأمّل في الآية يرشدنا إلىٰ أنّ جميع المراتب آية بإذن الله، وقد اكتفى في جميعها بقوله: «**بإذن الله**» عند تمام الخلقة. والشاهد علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: «**إذ قال الله يا عيسى ٱبنَ مريمَ ٱذكر نعمتي عليكَ وعلى والدتِكَ إذ أيّدتك بروح القدس تكلّم النّاس في المهد وكهلاً وإذ علّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطّين كهيئة الطّير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتىٰ بإذني**».

[المائدة (٥)/١١٠]

فعلم من هذه الآية أنّ عدم ذكر لفظ الإذن في الآية المبحوث عنها في بعض الآيات، لا باعتبار أنّه ليس بآية بل باعتبار الاعتماد علىٰ ما ذكر في بعضها، وبالأتكاء علىٰ أدلّة التوحيد في الآيات الأخرىٰ.

فتحصّل أنّ «الخلق» بالمعنى المتعارف في الطير من أوّله خلقاً بعد خلق إلىٰ أن يصير طيراً يطير آية من الله ـ سبحانه ـ وليس بمعنى التقدير والتصوير.

ولا يخفىٰ علينا أنّ ظاهر هذه الآية، وصريح الآية في سورة المائدة، وهي آيات أيّد الله ـ تعالىٰ ـ بها عيسىٰ عليه السلام بإذن الله وأمره، لا ما قاله في المنار من أنّه لم يرد عن المعصوم أنّ شيئاً من ذلك وقع، فإنّه قد غفل عن قوله تعالىٰ: «أنّي قد جئتكم بآية» الظاهر في التحقّق والوقوع، وعن قوله تعالىٰ: «إن كنتم مؤمنين» في ذيل الآية، الظاهر في التقريع والتوبيخ للمنكرين للآيات.

في تفسير عليّ بن إبراهيم ١٠٢/١، عن أحمد بن محمّد الهمداني مسنداً عن أبي الجارود، عن أبي جعفر محمّد بن علي عليهما السلام في قوله: «وأُنبئكم بما تأكلونَ وما تدّخرونَ في بيوتكم»:

فإنّ عيسىٰ عليه السلام كان يقول لبني إسرائيل: إنّي رسول الله إليكم وإنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمة والأبرص. الأكمة هو الأعمىٰ. قالوا: ما نرى الّذي تصنع إلّا سحراً فأرنا آية نعلم أنّك صادق. قال: أرأيتم إن أخبرتكم «بما تأكلون وما تدّخرون»؟ يقول ما أكلتم في بيوتكم قبل أن تخرجوا وما ذخرتم اللّيل، تعلمون أنّي صادق؟ قالوا: نعم، فكان يقول للرّجل أكلت كذا وكذا.، وشربت كذا وكذا، ورفعت كذا وكذا، فمنهم من يقبل منه فيؤمن، ومنهم من ينكر فيكفر وكان لهم في ذلك آية إن كانوا مؤمنين.

صرّح عليه السلام بتحقّق الآيات وأنّ المقام مقام التحدّي بالآيات، وأنّ ذيل الآية في مقام التوبيخ والتقريع.

وفي الكافي ٢٤/١، عن الحسين بن محمّد، عن أحمد بن محمّد السيّاريّ، عن أبي يعقوب البغدادي قال:

قال ابن السكّيت لأبي الحسن عليه السلام، لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا ويده البيضاء وآلة السحر؟ وبعث عيسى بآلة الطبّ وبعث محمّداً ـ صلّى الله عليه وآله وعلىٰ جميع الأنبياء ـ بالكلام والخطب؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: إنّ الله لمّا بعث موسى عليه السلام كان الغالب علىٰ أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم. وإنّ الله لمّا بعث عيسىٰ عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات واحتاج الناس إلىٰ الطبّ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيى لهم الموتى، وأبرأ الأكمة والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم...

في الحديث الشريف تصريح بتحقّق الآيات وثبوت الحجّة عليهم. وحيث إنّ الإيمان والكفر لابدّ من كونهما عن بيّنة وبرهان، فلابدّ من تحقّق الآيات سواء أكانوا مؤمنين قبل الآية أم منكرين.

وفي الاحتجاج ٣٣٣/١، عن موسىٰ بن جعفر، عن أبيه، عن آبائه، عن الحسين بن عليّ، عن عليّ عليهم السلام في احتجاجه علىٰ اليهود:

... قال له اليهوديّ: فإنّ عيسىٰ يزعمون أنّه أحيىٰ الموتىٰ بإذن الله.
قال له علي عليه السلام: لقد كان كذلك. ومحمّد سبّحت في يده تسع حصيات تسمع نغماتها في جمودها، ولا روح فيها لتمام حجّة نبوّته. ولقد كلّمه الموتىٰ من بعد موتهم، واستغاثوه ممّا خافوا تبعته. ولقد صلّىٰ بأصحابه ذات يوم فقال: ما هاهنا من بني نجّار أحد، وصاحبهم محتبس علىٰ باب الجنّة بثلاثة دراهم لفلان اليهوديّ ـ وكان شهيداً ـ ولئن زعمت أنّ عيسىٰ كلّم الموتىٰ فلقد كان محمّد ما

هو أعجب من هذا. إنّ النبيّ لما نزل بالطائف وحاصر أهلها بـعثوا إليه بشاة مسلوخة مطليّة بسمّ، فنطق الذراع منها فقالت: يا رسول الله لا تأكلني فإنّي مسمومة. فلو كلّمته البهيمة وهي حيّة لكانت من أعظم حجج الله على المنكرين لنبوّته، فكيف وقد كلّمته من بعد ذبح وسلخ وشيّ. ولقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يدعو بالشجرة فتجيبه، وتكلّمه البهيمة وتكلّمه السباع، وتشهد له بالنبوّة وتحذّرهم عصيانه، فهذا أكثر ممّا أعطي عيسىٰ عليه السلام...

قال له اليهوديّ: فإنّ عيسىٰ يزعمون أنّه خلق من الطّين كهيئة الطّير فنفخ فيه فكان طيراً بإذن الله.

فقال له عليّ عليه السلام: لقد كان كذلك، ومحمّد صلّى الله عليه وآله قد فعل ما هو شبيه هذا، إذ أخذ يوم حنين حجراً فسمعنا للحجر تسبيحاً وتقديساً، ثمّ قال للحجر: انفلق فانفلق ثلاث فلق، يسمع لكلّ فلقة منها تسبيحاً لا يسمع للأخرىٰ. ولقد بعث إلىٰ شجرة يوم البطحاء فأجابته، ولكلّ غصن منها تسبيح وتهليل وتقديس، ثمّ قال لها: انشقّي فانشقّت نصفين، ثمّ قال لها: التزقي فالتزقت، ثمّ قال لها: اشهدي لي بالنبوّة فشهدت، ثمّ قال لها: ارجعي إلىٰ مكانك بالتسبيح والتهليل والتقديس ففعلت، وكان موضعها حيث الجزارين بمكّة...

أقول: لا إشكال في أنّ هذه الروايات موافقة لظاهر الآية الكريمة من وقوع هذه المعجزات والآيات بإذن الله. والشواهد علىٰ ذلك كثيرة. وفي الروايات ما يدلّ علىٰ أنّ المعجزات والآيات ليست من فعل الأنبياء والأوصياء، بل الله يفعل بإجابة دعائهم.

في الاحتجاج ٢/٢٨٥، في التوقيع الصادر من الناحية المقدّسة:

إنّ الله ـ تعالىٰ ـ هو الّذي خلق الأجسام وقسّم الأرزاق؛ لأنّه ليس بجسم ولا حالّ في جسم، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وأمّا الأئمّة عليهم السلام فإنّهم يسألون الله فيخلق، ويسألونه فيرزق

إيجاباً لمسألتهم وإعظاماً لحقّهم.

وفيه أيضاً/ ٢٣٣، عن أبي محمّد العسكري عليه السلام أنّ أبا الحسن الرضا عليه السلام قال:

إنّ مَن تجاوز بأمير المؤمنين عليه السلام بالعبوديّة فهو من المغضوب عليهم ومن الضالّين. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: لا تتجاوزوا بنا العبوديّة، ثمّ قولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا. وإيّاكم والغلوّ كغلوّ النصارىٰ فإنّي بريئ من الغالين.

فقام إليه رجل فقال: يابن رسول الله صف لنا ربّكَ، فإنّ من قبلنا قد اختلفوا علينا.

فوصفه الرّضا عليه السلام أحسن وصف، ومجّده ونزّهه عمّا لا يليق به تعالىٰ.

فقال الرّجل: بأبي أنت وأمّي يابن رسول الله، فإنّ معي من ينتحل مولاتكم، ويزعم أنّ هذه كلّها من صفات عليّ عليه السلام، وأنّه هو الله ربّ العالمين.

قال: فلمّا سمعها الرّضا عليه السلام ارتعدت فرائصه وتصبّب عرقاً وقال: سبحان الله عمّا يشركون: سبحانه الله عمّا يقول الكافرون علوّاً كبيراً! أَو ليس عليّ كان آكلاً في الآكلين، وشارباً في الشاربين، وناكحاً في الناكحين، ومحدثاً في المحدثين؟ وكان مع ذلك مصلّياً خاضعاً بين يدي الله ذليلاً وإليه أوّاهاً منيباً؟! أفمن هذه صفته يكون إلهاً؟! فإن كان هذا إلهاً، فليس منكم أحد إلّا وهو إله؛ لمشاركته له في هذه الصفات الدالّات علىٰ حدث كلّ موصوف بها.

فقال الرّجل: يابن رسول الله؛ إنّهم يزعمون أنّ عليّاً لمّا أظهر من نفسه المعجزات، الّتي لا يقدر عليها غير الله دلّ علىٰ أنّه إلـه، ولمّا ظهر لهم بصفات المحدثين العاجزين ليس ذلك عليهم وامتحنهم ليعرفوه، وليكون إيمانهم اختياراً من أنفسهم.

فقال الرّضا عليه السلام: أوّل ما هاهنا أنّهم لاينفصلون ممّن قلب هذا عليهم فقال: لمّا ظهر منه (الفقر والفاقة) دلّ علىٰ أنّ من هذه صفاته، وشاركه فيها الضعفاء المحتاجون لاتكون المعجزات فعله، فعلم بهذا أنّ الّذي أظهره من المعجزات إنّما كانت فعل القادر الّذي لا يشبه المخلوقين، لا فعل المحدث المشارك للضعفاء في صفات الضعف.

قوله تعالىٰ: «وأحيي الموتىٰ بإذن الله».

إحياء الأموات في معجزات الأنبياء لا يختصّ بهذا المورد، فلا استعجاب ولا استعظام في ذلك فقد أحيى الله ـ تعالىٰ ـ قتيل بني إسرائيل لموسى عليه السلام، وأحيا ألوفاً للّذي مرّ علىٰ قرية، وهي خاوية علىٰ عروشها، فأماته الله مائة عام ثمّ أحياه وحماره، وأحيا لإبراهيم عليه السلام الطيور.

ثمّ إنّ الآية مطلقة من حيث إنّ الميّت هل كان رطباً فأحياه، أو بعد ما صار رميماً، وهل كان مقبوراً أو كان غير مقبور؟ وصريح قوله تعالىٰ: «وإذ تخرج الموتىٰ بإذني». [المائدة (٥)/١١٠]، أنّ الموتىٰ كانت مقبورة. وظاهر الآية المبحوث عنها، وكذلك ظاهر آية سورة المائدة أنّ إحياء الميّت قد تكرّر منه عليه حيث أُتي «الموتى» في السورتين بلفظ الجمع دون المفرد.

ولا يخفىٰ أنّ هذه الآيات والمعجزات إنّما كانت بدعائه عليه السلام، وليست من فعل نفسه، بأن يكون هو علّة قريبة للإحياء بإذن الله ـ تعالىٰ ـ بأن يحيي الله ـ تعالىٰ ـ الموتىٰ بإرادة عيسىٰ، وليست في هذا عليّة ولامعلوليّة بل دعاءٌ وإجابة.

في تفسير العيّاشي ١٧٤/١، عن أبان بن تغلب قال:

سئل أبو عبدالله عليه السلام: هل كان عيسى بن مريم أحيى أحداً بعد موته حتّىٰ كان له أكل ورزق ومدّة وولد؟ قال: فقال: نعم، إنّه كان له صديق مؤاخٍ له في الله، وكان عيسىٰ يمرّ به فينزل عليه، وإنّ عيسىٰ غاب عنه حيناً ثمّ مرّ عليه ليسلم عليه، فخرجت إليه أمّه فسألها عنه، فقالت أمّه: مات يا رسول الله. فقال لها: أتحبّين أن ترينه؟ قالت: نعم، قال لها: إذا كان غداً أتيتك حتّىٰ أحييه لكِ بإذن

الله. فلمّا كان من الغد أتاها فقال لها: انطلقي معي إلىٰ قبره فـانطلقا حتّىٰ أتيا قبره، فوقف عيسىٰ عليه السلام، ثمّ دعا الله فانفرج القبر وخرج ابنها حيّاً، فلمّا رأته أمّه ورآها بكيا فرحمهما عيسى فقال له: أتحبّ أن تبقى مع أمّك في الدّنيا؟ قال: يا رسـول الله بأكـل ورزق ومدّة أو بغير مدّة ولا رزق ولا أكل؟ فقال له عيسىٰ: بل برزق وأكل ومدّة تعمر عشرين سنّة وتزوّج ويولد لك. قال: فـنعم إذاً. قـال: فدفعه عيسىٰ إلىٰ أمّه فعاش عشرين سنة وولد له.

وفي الكافي ٧٢/٣، عن علي بن محـمّد، عن بعض أصـحابنا مسـنداً عـن عبدالله بن سليم العامري، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

إنّ عيسىٰ بن مريم عليه السلام جاء إلىٰ قبر يحيى بن زكريّا عليهما السلام، وكان سأل ربّه أن يحييه له، فدعاه فأجابه وخرج إليه من القبر فقال له: ما تريد منّي؟ فقال له: أريد أن تؤنسني كما كنت في الدّنيا. فقال له: يا عيسىٰ ما سكنت عنّي حرارة الموت، وأنت تريد أن تعيدني إلى الدّنيا، وتعود إلىٰ حرارة الموت. فتركه فعاد إلىٰ قبره.

وليعلم أنّ كلمة الإذن كما تطلق في الأمور الّتي تتحقّق عن الأسباب العادية بأمره تعالىٰ وإذنه ورأيه، كذلك تطلق في الأمور الّتي تتحقّق بحسب سنّة التكوين من دون وساطة الأسباب العادية مثل إبراء الأكمه، وإحياء الموتىٰ، وخلق الطين طائراً، فلا يمكن الاستشهاد بكلمة الإذن بوجود الأسباب العادية في حصول الأمر وتحقّقه، ولابدّ من تشخيص المورد بحسب الأدلّة الأخرىٰ. مثلاً غـفران الذنـوب بالشفاعة، تطلق عليه كلمة الإذن والغافر هو الله بالحقيقة. والشفاعة من الشفيع وإجابة دعائه ترجيح للفعل، فيغفر الله ـ تعالىٰ ـ ذنوب المذنبين عند الشفاعة، وهذا بخلاف أثر الدواء مثلاً فإنّه ـ تعالىٰ ـ يشفي المـريض بالدواء، فـفي كـلا المـوردين تستعمل كلمة الإذن بحسب التوحيد مع الفرق بينهما، فإنّ فعله ـ تعالىٰ ـ من مجاري الأسباب والعلل العادية فعل له ـ تعالىٰ ـ مع نفي الاستقلال عـن الأسـباب، والله سبحانه هو مسبّب الأسباب، ومعطي الأثر عند تأثيرها، وليست معجزة، ولا يعدّ

كرامة فإنّها سنّة دائمة أو عادية له ـ تعالىٰ ـ بخلاف ما إذا كان من غير واسطة.

قوله تعالىٰ: «وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم».

قال في المنار ٣١٢/٣: وأمّا الإخبار ببعض المغيبات فقد أوتيه كثيرون من الأنبياء وممّن دون الأنبياء.

أقول: إن أراد من غير الأنبياء الأشخاص العادية من المرتاضين والمنجّمين والكهنة، والّذين يتمكّنون من تجريد الأرواح، ويحضرون عند الحادثة، ويشهدون عين الواقعة فهذه كلّها أعمال عادية، وبعض منها ممنوع عقلاً وشرعاً، وإن أراد من غير الأنبياء والأولياء الأصفياء من أصحاب العصمة فلا نزاع، وإن كان هذا بعيداً من مذهبه.

وكيف كان فالآية والمعجزة إنّما هو العلم بالمغيبات علماً عيانيّاً خارجاً عن سنّة الأسباب والعلل، وخارجاً عن الاختيار، والعلم الحاصل للمرتاض والساحر مباين سنخاً وذاتاً مع العلوم المفاضة على الأنبياء، فبعض أقسام السحر والرياضة والنجوم ليس بعلم، بل حكم علىٰ سبيل الأسباب والمحاسبات الدقيقة العلميّة، والتجريد والحضور عند الحادثة من قبيل العلم بالمحسوسات؛ وهو عمل طبيعيّ وعاديّ يتمكّن به من الحضور عند الحادثة ومع ذلك لايتمكّنون من مشاهدة أكثر الغيوب علىٰ ما هو عليه. مثلاً لايتمكّنون من مشاهدة الحقائق البرزخيّة وأحوال الموتى، وما يجرىٰ عليهم في البرازخ، ولايتمكّنون من معاينة الأمور المستقبلة إلّا علىٰ سبيل الحكم، قد يتصادف وقد يتخلّف بخلاف الوجدان النور الصريح والعيان الواقعي، فإنّه بيد الله وإذنه ورأيه ورضاه ـ سبحانه ـ بالحقيقة. وهذا النور الصريح وحمل عرش العلم مبائن مع القطع والحكم يؤتي الله من يشاء بما يشاء كيف يشاء.

قوله تعالىٰ: «إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين». (٤٩)

ليس الشرط لإفادة ثبوت الآيتيّة بالمؤمنين فقطّ، بداهة أنّ الآية المعجزة حجّة على المعاند، ودليل وهداية وإرشاد للمنصف المستهدي، وتثبيت وتبصّر وزيادة علم وإيمان للمؤمن.. فالآية الكريمة ظاهرة في توبيخهم وتقريعهم، وإلزامهم الإيمانَ في مقابل البيّنة والبرهان الإلهيّ. فالأنبياء يتحدّون الناس بالإعجاز، ولا

دليل على اختصاص المعجزة في دعوة الّذين آمنوا بالله وأنكروا الرسول.

قال في مجمع البيان ٤٤٥/٢: «الآية» أي حجّة ومعجزة ودلالة. «لكم إن كنتم مؤمنين» بالله. إذ كان لا يصحّ العلم بمدلول المعجزة إلّا لمن آمن بـالله، لأنّ العلم بالمرسل لابدّ من أن يكون قبل العلم بالرسول.

أقول: تقدّم المعرفة والعلم بالله رتبة علىٰ معرفة الرسول أجنبيّ عن تعيين مورد المعجزات وموقفها، فالأنبياء يأتون بالمعجزات في مقابل الكفّار مثل فرعون ونمرود وأمثالها؛ لإثبات دعواهم من الدّعوة إلى الله ويوم المعاد، ومن جملة دعاويهم رسالتهم.

قوله تعالىٰ: «ومصدّقاً لما بين يديه من التوراة».

كان عيسىٰ عليه السلام يصدّق جميع ما بين يديه من الكتب والرّسل كما هو شأن جميع الأنبياء عليهم السلام؛ لاتّفاق كلمتهم على الحقّ وعصمة علومهم عن الخطإ، فلا يعقل الاختلاف إلّا بين الجهّال والضلّال، وإنّما يكون اختلافهم في نسخ بعض أحكام الشرائع السابقة باللّاحقة. وأمّا أنّه عليه السلام كان مصدّقاً للتوراة فلأنّه كان مأموراً بالعمل بما فيه، باستثناء ما فيه من الآصار والأثقال.

في تفسير العياشي ١٧٥/١، عن محمّد الحلبيّ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

> ... وكان شريعة عيسىٰ أنّه بعث بالتوحيد والإخلاص، وبما أوصىٰ به نوح وإبراهيم وموسىٰ، وأنزل عليه الإنجيل وأخذ عليه الميثاق الّذي أخذ علىٰ النبيّين، وشرّع له. وفي الكتاب أقام الصلاة مع الدّين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحريم الحرام وتحليل الحلال، وأنزل عليه في الإنجيل مواعظ وأمثال [وحدود] ليس فيها قصاص ولا أحكام حدود ولا فرض مواريث. وأنزل عليه تخفيف ما كان نزل علىٰ موسىٰ عليه السلام في التوراة؛ وهو قول الله في الّذي قال عيسىٰ بن مريم لبني إسرائيل: «ولأحلّ لكم بعض الّذي حرّم عليكم» وأمر عيسىٰ من معه ممّن اتّبعه من المؤمنين أن يؤمنوا

بشريعة التوراة والإنجيل.

أقول: صرّح عليه السلام في ذيل الحديث أنّ عيسىٰ عليه السلام أمر أمّته أن يؤمنوا بشريعة التوراة والإنجيل. وفيه إشعار بأنّ موقعيّة التوراة عند المسيح عليه السلام وأمّته ليست كما هو المتعارف من تصديق كلّ لاحق بما أتىٰ به السابق، فإنّ التصديق من ناحية القرآن لمن كان قبله من الأنبياء وكتبهم، ليس إلّا لإثباتهم وتأييدهم وتثبيتهم لا للعمل. ولا لاحتياج أمّة القرآن لبعض ما في تلك الكتب من علومها وشرائعها وحقائقها وعقائدها، فإنّ القرآن أجمع جميع الأفراد والأزمان والأوضاع والأحوال إلىٰ يوم القيامة بخلاف الكتب السابقة، فإنّ كتاب نوح عليه السلام مع سبقه زماناً علىٰ الكتب النازلة، كان الأنبياء بعده مروّجين له، عاملين به. وكذلك التوراة كان رائجاً ومتداولاً بين أنبياء بني إسرائيل، وكانوا مأمورين بالعمل بما فيه سواء أكان لهم كتاب مثل زبور داود أم لا، وعيسىٰ عليه السلام كان من أنبياء بني إسرائيل وليس كتابه الإنجيل يستغني عن التوراة، بل صريح الرواية أنّه ليس فيه قصاص وأحكام حدود ولا فرض ميراث، فالمنسوخ من التوراة بالإنجيل ليس إلّا بعض الآصار والأثقال لا كلّه؛ وهو الظاهر من الآية الكريمة حيث يقول: **«ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .... مصدّقاً لما بين يديه من التوراة»** فذكر التوراة في أول الآية في مقام الامتنان منه ـ سبحانه ـ علىٰ عيسىٰ عليه السلام بأنّه ـ تعالىٰ ـ يعلّمه الكتاب. واعتنىٰ بذكر التوراة من بين الكتب أجمع ثانياً في مقام التصديق ولم يذكر الكتب الأخرىٰ، مع أنّه عليه السلام كان مصدّقاً لجميع ما بين يديه من الكتب، فإفراده بالذكر فيه عناية خاصّة، وإشعار بأنّ التوراة كان كتاب العمل لعيسى وأمّته.

في البحار ٥٦/١١، عن المحاسن، عن عثمان بن عيسىٰ عن سماعة قال:

قلت لأبي عبدالله عليه السلام قوله الله: **«فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرّسلِ»**. [الأحقاف (٤٦)/٣٥] فقال: نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمّد صلوات الله عليهم وعلىٰ جميع أنبياء الله ورسله. قلت: كيف صاروا أولي العزم؟ قال: لأنّ نوحاً بعث بكتاب

وشريعة، فكلّ مَن جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه، حتّى جاء إبراهيم عليه السلام بالصحف وبعزيمة ترك كتاب نوح لا كفراً به. فكلّ نبيّ جاء بعد إبراهيم جاء بشريعته ومنهاجه وبالصحف، حتّىٰ جاء موسىٰ بالتوراة وبعزيمة ترك الصحف، فكلّ نبيّ جاء بعد موسىٰ أخذ بالتوراة وشريعته ومنهاجه حتّى جاء المسيح بالإنجيل وبعزيمة ترك شريعة موسىٰ ومنهاجه. فكلّ نبيّ جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهاجه حتّىٰ جاء محمّد صلّى الله عليه وآله فجاء بالقرآن وشريعته ومنهاجه، فحلاله حلال إلىٰ يوم القيامة، وحرامه حرام إلىٰ يوم القيامة، فهؤلاء أولو العزم من الرسل.

قوله تعالىٰ: «ولأحلّ لكم بعض الّذي حرّم عليكم».

قال البيضاوي في تفسيره ١٦٢/١: **«لأحلّ لكم»... «بعض الّذي حرّم عليكم»**. أي في شريعة موسى عليه السلام كالشحوم والثروب والسمك ولحوم الإبل والعمل في السبت.

أقول: المنسوخ من التوراة وإن كان قابلاً للانطباق على اللّحوم والشحوم، إلّا أنّه لا دليل شرعاً لتفسير هذه الآية بما ذكر. ولا دليل أيضاً علىٰ أنّ مورد التحليل في هذه الآية هو الّذي في قوله تعالىٰ: **«فبظُلم من الّذين هادوا حرّمنا عليهم طيّباتٍ أُحلّت لهم»**. [النساء (٤)/١٦٠] فمجرّد كونه قابلاً للانطباق غير كاف، إلّا أن يدّعى أنّ المحرّم في التوراة منحصر باللّحوم والشحوم والسبت؛ وهو خلاف صريح الآية حيث ذكر أنّ المحلّل بعض ما حرّم عليهم لا كلّه.

قوله تعالىٰ: «وجئتكم بآية من ربّكم».

أي حجّة قاطعة صادقة علىٰ نبوّتي.

قوله تعالىٰ: «فاتّقوا الله وأطيعون». (٥٠)

فإنّ عيسىٰ عليه السلام حيث سجّل عليهم حقّانيّةَ دعوته بالبراهين القيّمة، يذكّرهم بأنّه يجب عليكم تقوى الله ـسبحانه ـ ولا يحلّ لكم التساهل والتسامح

فيه، ويجب عليكم طاعتي بإيجاب الله تعالىٰ.

قوله تعالى: «إنّ الله ربّي وربّكم فاعبدوه».

موقع هذه الآية الكريمة، والغرض المسوق له الكلام التذكرة بأنّ الله ـسبحانه ـ ربّي وربّكم، فيجب عليّ وعليكم الإيمان به وطاعته في أوامره ونواهيه بالوجوب الذّاتي.

قوله تعالىٰ: «هذا صراط مستقيم». (٥١)

فطاعته ـسبحانه ـ وامتثال أوامره ونواهيه صراطه الّذي بيّنٌ برهانُه وجليّ مفاده بضرورة العقول، فلا مجال لأحد بالخدشة والتوقّف في وجوب الامتثال والخضوع في قبال الحقّ.

۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَمَا

لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

قوله تعالىٰ: «فلمّا أحسّ عيسىٰ منهم الكفر قال من أنصاري إلىٰ الله».

لمّا رأى عيسى وعلم من قومه الكفر قال: مَن أنصاري إلىٰ اتّباع دين الله ومرضاته والتصديق والإيمان به ـ تعالىٰ ـ ووحدانيّته سبحانه.

قوله تعالىٰ: «قال الحواريّون نحن أنصار الله آمنّا بالله».

قال في لسان العرب ٤/ ٢٢٠: والحواريّون: الأنصار وهم خاصّة أصحابه. فالحواريّون قالوا: نحن أنصار الله آمنّا بالله وصدّقنا جميع ما جاء به رسل الله سبحانه وأنبياؤه.

قوله تعالىٰ: «واشهد بأنّا مسلمون». (٥٢)

قالوا: نحن نشهدك بأنّا مسلمون ومؤمنون بالله ونقرّ به وبتوحيده وطاعته جلّ ثناؤه فأشهد لنا بذلك.

في العلل/ ٨٠، عن محمّد بن إبراهيم مسنداً عن عليّ بن الحسن بن عليّ بن فضّال، عن أبيه قال:

> قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: لم سمّي الحواريّون الحواريّين؟ قال: أمّا عند الناس فإنّهم سمّوا حواريّين لأنّهم كانوا قصّارين يخلصون الثياب من الوسخ بالغسل؛ وهو اسم مشتقّ من الخبز الحوار. وأمّا عندنا فسمّي الحواريّون: الحواري لأنّهم كانوا مخلصين في أنفسهم ومخلّصين لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكير.

قوله تعالىٰ: «ربّنا آمنّا بما أنزلت واتّبعنا الرسول».

هذا القول من الحواريّين تجديد إقرار وتأكيد إيمان بالله ـ سبحانه ـ واتّباعهم دينه مع الجدّ البالغ والإخلاص الكامل.

قوله تعالىٰ: «فاكتبنا مع الشاهدين». (٥٣)

سألوا ربّهم أن يقبل إيمانهم ويكتبهم مع المؤمنين الشاهدين الّذين شهدوا شهادة حقّ وإيقان وعرفان بأنّ الله ـ سبحانه ـ خالقهم ورازقهم وقيّومهم وحده لا شريك له.

قوله تعالىٰ: «ومكروا ومكر الله».

لا يخفىٰ أنّ الله ـ سبحانه ـ مقدّس عن المكر وغنيّ عنه، فإنّ الله ـ سبحانه ـ يأخذ العاصين والمجرمين بسخطه في عين اشتغالهم بشهوات الدنيا ولذّاتها أخذ عزيز مقتدر. والمراد من الماكرين في الآية الكريمة هم الّذين لم يؤمنوا بعيسىٰ عليه السلام وعارضوه وكذّبوه، وسعوا في إبطال دعوته وأنوار بلاغه بأنواع المكائد والحيل.

قوله تعالىٰ: «والله خير الماكرين». (٥٤)

أي أنّ أخذه تعالى العاصين الظالمين، وإنزاله بأسه وسخطه ونقمته عليهم عبرة لمن اعتبر ووعظ لمن اتّعظ.

في التوحيد/ ١٦٣، عن محمّد بن إبراهيم مسنداً عن عليّ بن الحسن بن عليّ ابن فضّال، عن أبيه، عن الرّضا عليّ بن موسى عليهما السلام قال:

سألته عن قول الله عزّ وجلّ: «سَخَّرَ اللهُ منهم». [التوبة (٩)/٧٩] وعن قول الله عزّ وجلّ: «الله يستهزئ بهم» [البقرة (٢)/١٥] وعن قوله: «ومكروا ومكر الله» وعن قوله: «يخادعون الله وهو خادعهم». [النساء (٤)/١٤٢]

فقال: إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يسخر ولا يستهزئ ولا يمكر ولا يخادع، ولكنّه ـ عزّ وجلّ ـ يجازيهم جزاء السخريّة وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة. تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

قوله تعالىٰ: «إذ قال الله يا عيسىٰ إنّي متوفّيك».

قال في الآء الرحمٰن / ٢٨٨: أي آخذك من بين الناس ومن عالم الأرض.

قوله تعالى: «ورافعك إليّ ومطهّرك من الّذين كفروا».

وعد من الله ـ تعالىٰ ـ لعيسىٰ عليه السلام وكرامة من الله له بتشريفه إلىٰ لقائه وتطهيره عن الافتراءات والخرافات الّتي نسبها إليه اليهود وغيرهم من الأجلاف والأراذل.

قوله تعالىٰ: «وجاعل الّذين اتّبعوك فوق الّذين كفروا إلىٰ يوم القيامة».

إخبار عن الغيب الّذي سيتحقّق. ولا يبعد أن يكون قضيّة شخصيّة مختصّة للّذين آمنوا بعيسىٰ عليه السلام وأطاعوه في جميع ما جاء به ولم يخالفوه في شيء من دعوته؛ وهم الحواريّون.

قوله تعالى: «ثمّ إلىٰ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون». (٥٥)

فإنّ مصيركم ـ بعد اللّتيا والّتي ـ إلىٰ يوم القيامة فأحكم بينكم بالحقّ الصريح والقضاء المبين؛ من المؤاخذة والمجازاة فيما كنتم اختلفتم وافتريتم علىٰ عيسى عليه السلام ودعوته الحقّة.

قوله تعالىٰ: «فأمّا الّذين كفروا فأعذّبهم عذاباً شديداً في الدّنيا والآخرة».

فالّذين كفروا بالمسيح وأنكروا البيّنات القاهرة والحجج القاطعة من شفاء الأكمه وإحياء الموتىٰ وغيرهما، استحقّوا العذاب والجزاء بالشدائد القارعة والمصائب الهائلة في الدّنيا والآخرة.

قوله تعالىٰ: «وما لهم من ناصرين». (٥٦)

أي ليس لهم ناصر يردّ عنهم ما قضينا فيهم من المجازاة الحقّة والانتقام.

قوله تعالىٰ: «وأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم».

أمّا الّذين آمنوا بما جاء به رسل الله ـ تعالىٰ ـ وأنبياؤه من الأحكام الشرعيّة والمعارف الحقّة والفضائل الحسنة، والأعمال الصالحة، وأعرضوا عمّا يرتكبه المفسدون والجاهلون، فيصلح الله شؤونهم وعاقبة أمرهم في الدّنيا والآخرة، فإنّ الله لا يضيع لديه أجر المحسنين.

قوله تعالىٰ: «والله لا يحبّ الظّالمين». (٥٧)

الغرض من هذا البيان بعد ذكر عنايته ـ تعالىٰ ـ وإكرامه لأهل التقوىٰ

والصلاح هو التذكرة بأنّ الله ـ تعالىٰ ـ لا يرضىٰ بفعال الظالمين ولا يحبّهم، فيأخذهم بفعالهم وظلمهم أخذَ عزيز مقتدر في الدّنيا والآخرة.

قوله تعالىٰ: «ذلك نتلوه عليك من الآيات».

إشارة إلىٰ ما تقدّم من الآيات. ونسبته تعالىٰ التلاوة إلىٰ نفسه ـ والحال أنّ التلاوة كانت بواسطة ملك الوحي ـ باعتبار أنّه ـ سبحانه ـ هو التالي الأوّل وجبرئيل واسطة بينه ـ تعالىٰ ـ وبين رسوله صلّى الله عليه وآله.

قوله تعالى: «والذّكر الحكيم». (٥٨)

الذكر من أسماء القرآن الكريم. وتسمية القرآن ذكراً بعناية أنّ القرآن تذكرة وإرشاد إلىٰ الحقائق البيّنة والمستقلّات العقليّة يتذكّر به القارئ والمستمع، ويستنير كلّ واحد بما يجده فيه من المعارف والحقائق الأصيلة البيّنة. وهذا هو معنىٰ كون القرآن ذكراً ونوراً. وكون القرآن حكيماً باعتبار شموله علىٰ الحقائق والمعارف المحكمة المتقنة.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالىٰ: «إنّ مثل عيسىٰ عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون». (٥٩)

جواب لما يمكن أن يقال: إنّ عيسىٰ عليه السلام ليس له أب فكيف يكون الإنسان موجوداً من غير وساطة الأب، فأجاب الله ـ تعالىٰ ـ أنّه لا احتياج في تحقّق الإنسان إلى الأب، كما أنّ الله ـ تعالىٰ ـ خلق آدم عليه السلام من تراب من دون أب وأمّ. وإنّما يوجد الله ـ تعالىٰ ـ كلّما يوجد بكلمة الإيجاد طبق سنّته الكريمة، ولا احتياج له في إيجاد شيء إلى الأسباب والعلل والوسائط.

في تفسير عليّ بن إبراهيم ١/١٠٤، عن أبيه مسنداً عن ابن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

إنّ نصارىٰ نجران لمّا وفدوا علىٰ رسول الله صلّى الله عليه وآله وكان سيّدهم الأهتم والعاقب والسيّد.. وحضرت صلاتهم فأقبلوا يضربون الناقوسَ وصلّوا، فلمّا فرغوا دنوا من رسول الله صلّى الله عليه وآله فقالوا: إلىٰ ما تدعون؟ فقال: إلىٰ شهادة أَن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، وأنّ عيسىٰ عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث. قالوا: فمَن أبوه؟ فنزل الوحي علىٰ رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: قل لهم: ما تقولون في آدم عليه السلام؟ أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب وينكح؟ فسألهم النبيّ صلّى الله عليه وآله فقالوا: نعم، فقال: فمن أبوه؟ فبهتوا ساكتين فأنزل الله: **«إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم....»**.

قوله تعالىٰ: «الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين». (٦٠)

الآية الكريمة في مقام تثبيت رسول الله صلّى الله عليه وآله وإرشاد وتذكرة له صلّى الله عليه وآله لئلّا يعتني بكلّ ما قيل في حقّ المسيح من الأوهام والأباطيل. ولا دلالة في الآية علىٰ كونه صلّى الله عليه وآله في الريب والشكّ في حقّ المسيح. ولا يبعد أن تكون الآية الكريمة من باب القضيّة الحقيقيّة لا القضيّة الشخصيّة، أي

لا يجوز لأحد الشكّ والتردد في بطلان ما نسب إلى المسيح من الأباطيل والأوهام.

قوله تعالىٰ: «من حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءَنا وأبناءكم ونساءَنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين». (٦١)

قال الرازي في تفسيره ٨٠/٨: روي أنّه عليه السلام لمّا أورد الدلائل علىٰ نصارىٰ نجران، ثمّ إنّهم أصرّوا علىٰ جهلهم فقال عليه السلام: إنّ الله أمرني إن لم تقبلوا الحجّة أن أُباهلكم. فقالوا: يا أبا القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثمّ نأتيك. فلمّا رجعوا قالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ: يا عبد المسيح ما ترىٰ؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارىٰ أنّ محمّداً نبيّ مرسل، ولقد جاءكم بالكلام الحقّ في أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبيّاً قطّ فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لكان الاستئصال، فإن أبيتم إلّا الإصرار علىٰ دينكم والإقامة علىٰ ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلىٰ بلادكم وكان رسول الله(ص) خرج وعليه مرط من شعر أسود، وكان قد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي رضي الله عنه خلفها؛ وهو يقول: إذا دعوت فأمنوا. فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى؟ إنّي لأرىٰ وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض نصراني إلىٰ يوم القيامة... واعلم أنّ هذه الرواية كالمتّفق علىٰ صحّتها بين أهل التفسير والحديث.... المسألة الرابعة: هذه الآية دالّة علىٰ أنّ الحسن والحسين عليهما السلام كانا ابني رسول الله (ص)... وممّا يوكّد هذا قوله ـ تعالىٰ ـ في سورة الأنعام: «ومن ذريته داودَ وسليمانَ» إلىٰ قوله: «وزكريّا ويحيىٰ وعيسىٰ». ومعلوم أنّ عيسىٰ عليه السلام إنّما انتسب إلىٰ إبراهيم عليه السلام بالأمّ لا بالأب فثبت أنّ ابن البنت قد يسمّى ابناً والله أعلم.

وقال في الكشّاف ٣٦٩/١: فإن قلت: ما كان دعاؤه إلىٰ المباهلة إلّا ليتبيّن الكاذب منه ومن خصمه، وذلك أمر يختصّ به وبمن يكاذبه، فما ضمّ الأبناء والنساء؟ قلت: ذلك آكد في الدلالة علىٰ ثقته بحاله واستيقانه بصدقه، حيث استجرأ علىٰ تعريض أعزّته، وأفلاذ كبده، وأحبّ الناس إليه لذلك، ولم يقتصر

علىٰ تعريض نفسه له، وعلىٰ ثقته بكذب خصمه حتّىٰ يهـلك خصمه مـع أحـبّته وأعزّته هلاك الاستئصال إن تمّت المباهلة. وخصّ الأبناء والنسـاء؛ لأنّهـم أعـزّ الأهل وألصقهم بالقلوب وربّما فداهم الرجل بنفسه، وحارب دونهم حتّىٰ يقتل... وفيه دليل لا شيء أقوىٰ منه علىٰ فضل أصحاب الكساء عليهم السلام.

وقال في المنار ٣٢٢/٣: وفي رواية لمسلم والترمذي وغيرهما عن سعد قال: لمّا نزلت هذه الآية: «قل تعالوا» دعا رسول الله (ص) عليّاً وفـاطمة وحسَـنَيناً وقال: اللّهمّ هؤلاء أهلي. وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمّد عن أبيه «قل تعالوا ندع أبناءنا» الآية. قال: فـجاء بأبي بكـر وولده، وبـعمر وولده، وبـعثمان وولده، وبعليّ وولده. والظاهر أنّ الكلام في جماعة المؤمنين. قال الأستاذ الإمام: الرّوايات متّفقة علىٰ أنّ النبيّ (ص) اخـتار للـمباهلة عـليّاً وفـاطمة وولديهـما. ويحملون كلمة «نساءنا» علىٰ فاطمة، وكلمة «أنفسنا» عليّ فقط. ومصادر هذه الروايات الشيعة ومقصدهم منها معروف؛ وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتّى راجت علىٰ كثير من أهل السنّة. ولكنّ واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآية، فإنّ كلمة «نساءنا» لا يقولها العربيّ ويريد بها بنته ولاسيّما إذا كان له أزواج، ولا يفهم هذا من لغتهم. وأبعد من ذلك أن يراد بأنفسنا عليّ عليه الرضوان. ثمّ إن وفد نجران الّذين قالوا: إنّ الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نساؤهم وأولادهم. وكلّ ما يفهم من الآية أمر النبيّ (ص) أن يدعو المحاجّين والمجادلين في عـيسىٰ مـن أهـل الكتاب إلىٰ الاجتماع رجالاً ونساءً وأطفالاً ويجمع هـو المـؤمنين رجـالاً ونسـاءً وأطفالاً ويبتهلون إلى الله تعالىٰ بأن يعلن الكاذب فيما يقول عن عيسىٰ.

قال في لسان العرب ٧٢/١١: باهل القوم بعضهم بعضاً وتباهلوا وابتهلوا: تلاعنوا والمباهلة: المـلاعنة. يقال: باهلت فلاناً أي لاعنته. ومـعنى المـباهلة أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله علىٰ الظالم منّا.

أقول: قد صرّح الله ـ تعالىٰ ـ بأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان عالماً بحقيقة الأمر وواضح أنّ علمه صلّى الله عليه وآله ليس من العلوم العادية الّتي لا تمنع من وقوع الخطأ فيها، بل علمه صلّى الله عليه وآله من قبل الوحي والرسالة

والبيّنات الّتي أكرم الله بها رسول صلّى الله عليه وآله. فعلىٰ هذا يكون المأمور بالمباهلة هو نفسه صلّى الله عليه وآله مع وفد نجران، ولا معنىً لإشراك غيره صلّى الله عليه وآله من الصحابة في المباهلة، كما أنّ المقطوع من شأن نزول الآية بحسب الأدلّة القطعيّة من الروايات والتاريخ أيضاً كذلك. ومورد النزول وإن ذكرنا غير مرّة أنّه لا يصلح أن يكون مخصّصاً لعموم الآية، إلّا أنّا ذكرنا أنّ ذلك فيما ذكروا من شأن النزول وليس له دليل يعتمد عليه. وأمّا المقام فالدليل علىٰ كون القضيّة شخصيّة خاصّة به صلّى الله عليه وآله قطعيّ متواتر فلا يجوز إلغاء الخصوصيّة فيه، فإنّ وفد نجران حاولوا إنكار نبوّته صلّى الله عليه وآله وإبطال دعوته وهو صلّى الله عليه وآله أنكر أُلوهيّة عيسىٰ ورام إثبات مخلوقيّته. فالمباهلة كانت لتمييز المحقّ من المبطل، والصادق من الكاذب وجعل اللّعن علىٰ الكاذبين. فعلىٰ هذا فاحتمال أنّ يكون المأمور بالمباهلة من قبل الله هو رسول الله صلّى الله عليه وآله وغيره من المؤمنين جماعة ـ كما هو صريح مقالة المنار ـ ساقط رأساً. إذ من الواضح أنّ التكليف بالمباهلة إنّما هو باعتبار أنّه صلّى الله عليه وآله كان عالماً بالتعليم الإلهي بحقّانيّة نفسه وبطلان خصمه، لا عموم المسلمين وفيهم المنافقون والشكّاكون والمستضعفون والمقلّدة، الّذين لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلتجئوا في الدّين إلىٰ ركن وثيق وبرهان إلهيّ. علىٰ أنّا قد ذكرنا أنّ وفد نجران قد قصدوا رسول الله صلّى الله عليه وآله ومجادلته ومحاربته في أمر رسالته وهو يريد إبطال دعواهم، فأيّ تماسّ لهم بالمسلمين والمؤمنين.

فالحقّ أنّ الآية الكريمة قضيّة شخصيّة راجعة إلىٰ نفس الرسول، وقد أمر الله ـ تعالىٰ ـ أن يدعو كلّ من الطرفين أهلَهم؛ ممن هو بمنزلة أنفسهم ونسائهم وأبنائهم، ولا تتجاوز هذه الدعوة إلىٰ سواهم. فليس هنا عموم كي يطالب بدليل تخصيصه، فلو لم يكن لأحد إلّا نفس واحدة وبنت واحدة وابنان فلا يضرّ بإتيان لفظ الجمع، ولو لم يكن لأحد المتخاصمين بنون أو لم يكن إلاّ ابن واحد أو بنت واحدة فتعيّن المصداق بالموجود منهم ويكون هو متعلق الدعوة.

فتبيّن ممّا ذكرنا أنّه لا سبيل إلىٰ دعوة العموم في نفس المتباهلين

والمتخاصمين ولا في المدعوّين. ولا يجوز إسراء الدعوة إلىٰ من ليس من أبناء المتخاصمين ولا من أنفسهم ونسائهم. فالآية أسدّ سند علىٰ مشروعيّة المباهلة في حقّه صلّى الله عليه وآله بالنحو المذكور في الآية، فلا وجه للتكلّف في بيان الملاكات والمناسبات في عمله صلّى الله عليه وآله. وليس له صلّى الله عليه وآله إلّا امتثال ما أمر الله ـ تعالىٰ ـ من دعوة الأبناء والأنفس والنساء. وحاشا عصمته وقدسه صلّى الله عليه وآله أن لا يمتثل أمر ربّه، أو يُدخل فيه من ليس مأموراً بدعوته وإحضاره.

فإن قيل: سلّمنا ما ذكرت من أنّ المدعوّين بنصّ الآية في طرف الإسلام هم أبناء الرسول صلّى الله عليه وآله وأنفسه ونساؤه، فلابدّ في مقام الامتثال من دعوة جميع من ينتسب إليه صلّى الله عليه وآله بالعناوين المذكورة.

قلت: حيث إنّ المكلّف والمأمور به هو نبيّ معصوم، فعمله في مقام الامتثال شرح وتفسير للآية الكريمة، فعدم إحضاره صلّى الله عليه وآله جميع نسائه وأبنائه وأحبّته من المؤمنين كاشف قطعيّ عن المأمور به، إمّا لعدم صلاحيّة من سواهم أو لأنّهم أفاضل خاصّته وخواصّ أحبّته.

فتحقّق أنّ المقام مقام دعوة كلّ من المتخاصمين خواصّ أهل بيتهم. فرسول الله صلّى الله عليه وآله في مرحلة الامتثال جاء بعليّ عليه السلام والحسنين وفاطمة صلوات الله عليهم. وأمّا النصارىٰ فعدلوا عن المباهلة. والإتيان بلفظ الجمع لا ينافي ذلك. قال تعالىٰ:

«فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا علىٰ أنفسِكم تحيّةً من عند الله مباركةً طيّبةً». [النور (٢٤)/٦١]

فلا إشكال في صدق الأمر بالتسليم ولو كان في البيت واحد من أهل البيت. فالتسليم علىٰ أهل البيت سلام علىٰ الأنفس.

في العيون ٢٣١/١، عن علي بن الحسين مسنداً عن ريّان بن صلت في مجلس الرضا عليه السلام مع المأمون في الفرق بين العترة والأمّة:

... فقال الرضا عليه السلام: فسّر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن

في اثني عشر مواطناً وموضعاً... وأمّا الثالثة فحين ميّز الله الطاهرين من خلقه، فأمر نبيّه بالمباهلة بهم في آية الابتهال فقال عزّ وجلّ: يا محمّد «فمَن حاجّكَ فيه من بعدِ ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين». فبرَّز النبيُّ صلّى الله عليه وآله عليّاً والحسن والحسين وفاطمةَ صلوات الله عليهم وقرن أنفسَهم بنفسه، فهل تدرون ما معنىٰ قوله: «وأنفسنا وأنفسكم»؟ قالت العلماء: عنىٰ به نفسه.

فقال أبو الحسن عليه السلام: لقد غلطتم إنّما عنىٰ بها عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وممّا يدلّ علىٰ ذلك قول النبيّ صلّى الله عليه وآله حين قال: لينتهين بنو وليعة أو لأبعثنّ إليهم رجلاً كنفسي. يعني عليّ ابن أبي طالب عليه السلام. وعنىٰ بالأبناء الحسن والحسين عليهما السلام. وعنىٰ بالنساء فاطمة عليها السلام. فهذه خصوصيّة لا يتقدّمهم فيها أحد، وفضل لايلحقهم فيه بشر، وشرف لايسبقهم إليه خلق، إذ جعل نفس عليّ عليه السلام كنفسه.

وفي الاحتجاج ١٦٤/٢، في أجوبة موسى بن جعفر عليه السلام عن أسئلة الرشيد:

ثمّ قال (الرشيد): كيف قلتم: إنّا ذرّيّة النبيّ، والنبيُّ لم يعقب، وإنّما العقب الذكر لا الأنثى، وأنتم ولد الابنة ولا يكون ولدها عقباً له.

فقلت: أسألك بحقّ القرابة والقبر ومَن فيه إلّا أعفيتني عن هذه المسألة. فقال: لا، أو تخبرني بحجّتكم فيه يا ولد عليّ! وأنت يا موسىٰ يعسوبهم وإمام زمانهم. كذا أنهي إليّ. ولست أعفيك في كلّ ما أسألك عنه حتّىٰ تأتيني فيه بحجّة من كتاب الله، وأنتم تدّعون معشر ولد عليّ أنّه لا يسقط عنكم منه شيء ألف ولا واو إلّا تأويله عندكم واحتججتم بقوله عزّ وجلّ: «ما فرّطنا في الكتاب من شيء»

[الأنعام (٦)/٣٨] واستغنيتم عن رأى العلماء وقياسهم.
فقلت: تأذن لي في الجواب؟
قال: هات.
فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: «ومن ذريّته داود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسىٰ وهارون وكذلك نجزي المُحسنين * وزكريّا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس كلٌّ من الصَّالحين». [الأنعام (٦)/٨٤ و ٨٥]
مَن أبو عيسىٰ يا أمير المؤمنين؟
فقال: ليس لعيسىٰ أب.
فقلت: إنّما ألحقناه بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام. وكذلك ألحقنا بذراري النبيّ صلّى الله عليه وآله من قبل أمّنا فاطمة. أزيدك يا أمير المؤمنين؟
قال: هات.
فقلت: قول الله عزّ وجلّ: «فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين». ولم يدّع أحدأدخله النبيُّ صلى الله عليه وآله تحت الكساء عند مباهلة النصارىٰ إلّا عليّ بن أبي طالب عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين. أبناؤنا: الحسن والحسين، ونساؤنا: فاطمة، وأنفسنا: عليّ ابن أبي طالب عليه السلام. علىٰ أنّ العلماء قد أجمعوا علىٰ أنّ جبرئيل قال يوم أحد: يا محمّد! إنّ هذه لهي المواساة من عليّ، قال: لأنّه منّي وأنا منه....

وأمّا ما قاله صاحب المنار من أنّ مصادر هذه الرّوايات الشيعة فهو ادّعاء صرف لا دليل عليه بل الدّليل علىٰ خلافه، فإنّه قال في الآء الرحمٰن/ ٢٩١، بعد بسط الكلام في نقل هذا الحديث من مصادر أهل السنّة والشيعة: فهذا الحديث

مرويّ بالأسانيد المتعدّدة عن تسعة من الصحابة وخمسة من التابعين وستّة من أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

قوله تعالىٰ: «إنّ هذا لَهُو القصص الحقّ».

إشارة إلىٰ قصّة امرأة عمران، وكيفيّة ولادة عيسىٰ من غير فحل، وكذلك إشارة إلىٰ قصّة ولادة يحيى بدعاء زكريّا. علىٰ تفصيل تقدّم في الآيات المباركة.

قوله تعالىٰ: «وما من إلٰه إلّا الله».

حيث جرىٰ في المقام ذكر عيسىٰ عليه السلام، وما توهّم النصارى في حقّه ممّا يخالف التوحيد، صرّح تعالىٰ لإبطال هذه الأوهام والخرافات ونبّه بأنّه لا إلٰه إلّا الله الواحد الحقّ المبين.

قوله تعالىٰ: «وإنّ الله لهو العزيز الحكيم». (٦٢)

إنّ في هذه القصص الحقّ من أفعاله ـ تعالىٰ ـ الحكيمة القيّمة ما لا يخفىٰ، وأفعاله تعالىٰ لا تصدر إلّا عن عزّة وحكمة مشتملة علىٰ المصالح والفوائد.

قوله تعالىٰ: «فإن تولّوا فإنّ الله عليم بالمفسدين». (٦٣)

فإن أعرضوا عن الإيمان بما ذكر من الحقّ في القصص، وأنكروا الحقائق والمعارف الّتي فيها فإنّه ـ سبحانه ـ يعلم المفسدين فيجازيهم ويواخذهم بما يعملون من المفاسد وما يرتكبون من القبائح.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا

تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالىٰ: «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلىٰ كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئًا».

استنهاض للنصارىٰ أن يجتمعوا على الحقّ المبين الّذي اتّفقت عليه كلمة الأنبياء، واجتمعت عليه دعوة الأصفياء والحجج والرسل من توحيد الله جلّ ثناؤه ونفي الأنداد، وإخلاص الطاعة لله، وأنّ سلطان التشريع والأمر والنهي حقّ ثابت بالضرورة لمالك الخلق، وأنّه هو المتفرّد بالرّبوبيّة يتصرّف في شؤون خلقه تشريعاً وتكويناً، وبذلك يصلح شأنهم ويصونهم ويحفظهم عمّا يفسدهم ويوجب إهمالهم.

والكلمة السواء هي الكلمة الحقّة والقول الفصل. والسواء في اللّغة بمعنى المعتدل، فعليه يكون المراد وسط الطريق الّذي هو مصون من الاعوجاج والانحراف. والدعوةُ إلى الكلمة، واستنهاض الناس إليها دعوة إلىٰ مفادها ومدلولها، ومدلولها قوله تعالىٰ: «ألّا نعبد إلّا الله....» فهذا تفسير للكلمة بالحقيقة، ووجه كونها سواءً هو أنّ مفادها وثبوت مدلولها عند الجميع بديهي لا اختلاف فيه، وما يترأىٰ من الاختلاف فيه في الخارج منشأه البغي والعناد من حملة الكتاب. قال تعالىٰ:

«كان النّاس أمّةً واحدةً فبعث اللهُ النبيّين مبشّرين ومنذرين وأَنزل معهم الكتاب بالحقِّ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه وما اختلف

فيه إلّا الّذين أُوتوه من بعد ما جـاءتهم البـيّنات بـغياً بـينهم ...».
[البقرة (٢)/٢١٣]
و«وآتيناهم بيّنات من الأمر فما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إنَّ ربّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون».
[الجاثية (٤٥)/١٧]

فما ضلّوا وما أضلّوا إلّا عن حجّة، وما اختلفوا وما هلكوا إلّا عن بـيّنة، فرفضُ الهوىٰ واتّقاء كتمان الحقّ ومخالفته، واجتنابُ الاختلاف فيه، فريضة عقليّة بالضرورة.

فالدّعوة إلىٰ هذه الكلمة المباركة والاجتماع عليها، والقيام والوفـاء بهـا، والدفاع عنها ليست دعوةً خطابيّة وإقناعيّة، ولا أمراً نظريّاً يحتاج إلى الإثبات، بل إرشاداً وتذكرةً إلىٰ ما هو الواجب بالضرورة، وإرشاداً إلى أنّ الاختلاف فيها وتعميتها جناية وقحة تجب التوبة عنها والاعـتذار إلى الله ـتـعالىٰـ وإلى دعـاته وحججه.

والعبادة بمعنى الطاعة والخضوع والتذلّل. يقال: أرض معبّدة أي مذلّلة. والظاهر أنّ سياق قوله تعالى: «ألّا نعبد إلّا الله» ليس لحصر العبادة لله الحقّ، ونفيه عمّا سواه، وإثباته له علىٰ طريق الاستثناء، بل المراد نفي معبود سواه.

توضيح ذلك أنّ (إلّا) في كلمة الإخلاص ليست بمعنى الاستثناء كي يكون إثباتاً بعد النفي، فإنّ ثبوته ـسبحانهـ مفروغ عـنه وضروريّ بـناءً عـلىٰ دعـوة القرآن، وإنّما الكلام نفي إلٰه سواه ـتعالىٰـ وتقديسه عن الأضداد والأنداد، فتكون (إلّا) بمعنى الغير فالمعنىٰ: لا إله غير الله. وكذلك الكلام في المقام، فليس معنىٰ «ألّا نعبد إلّا الله» نفي الآلهة المعبودة أوّلاً، واستثناء المعبود بالحقّ من المنفيّ ثانياً، بـل المراد بعد بداهة ثبوته تعالىٰ تقديسه ـسبحانهـ ونفي معبود سواه. وهـذا الّـذي ذكرنا بناءً علىٰ عدم شمـول الإله المسـتثنىٰ مـنه لله تـعالىٰ، فـتكون إلّا في كـلمة الإخلاص بمعنى الغير وفيما نحن فيه، حيث إنّ الاستثناء مفرّغ يكون العامل فيما بعد إلّا ما قبلها، وليس ما بعد إلّا داخلاً فيما قبله ليخرج بـ«إلّا».

فتلخّص أنّ الآية الكريمة لبيان توحّده ـ تعالىٰ ـ في المعبوديّة، وإبطال معبود سواه في مقابل من عبد آلهة من دون الله. بعبارة أخرىٰ إبطال لمقالة من اتّخذ سوى الله ـ تعالىٰ ـ معبوداً، وإنكار عليه وكفر بكلّ مطاع دونه سبحانه، وكلّ معبود سواه. فعلى هذا يكون قوله تعالىٰ: «ولا نشرك به شيئًا» جملة مستقلّة في إبطال الشركاء في عرضه ـ تعالىٰ ـ وفي طوله.

قوله تعالىٰ: «ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله».

قد تقدّم تفسير الربّ في سورة الفاتحة. فربوبيّته ـ تعالى ـ المطلقة إعمال التدبير العمدي في جليل أمور الخلقة ودقيقها. وهذا إنّما هو بلحاظ مالكيّته ـ تعالى ـ علىٰ الخلق بالمالكيّة الذاتيّة، وهو يتصرّف في خلقه كيف شاء طبق حكمته البالغة، وهذا حقّ ثابت له تعالىٰ لا شريك له ولا ضدّ ولا ندّ، وله سلطان كلّ شيء والتصرّف فيه بما يراه ويريده. ومن جملة هذا التدبير التصرّف في خلقه في أمور تشريعهم وتقنينهم، ووضع الحدود والأحكام لهم. فله ـ سبحانه ـ سلطان التكوين والتشريع؛ وهو وليّ الأمر والنهي في خلقه ومالك القبض والبسط، فجميع ما سواه ـ سبحانه ـ عباد مربوبون لا يجوز لهم التصرّف في شؤونهم وشؤون ما سواهم إلّا عن إذن من الله سبحانه، فليس لأحد التصرّف في سلطان المولى واغتصاب مقام التشريع، ولو ارتكب محرّماً وأحدث حدثاً وأبدع بدعة يردّ عليه ويضرب به وجهه، وليس لأحد أيضاً الإذعان لحكم المتجاوزين والائتمار بأمرهم والانتهاء بنهيهم، ولو فعل وأطاع فقد اتّخذ هوى نفسه ربّاً، وعبد صنماً من دون الله. قال تعالىٰ:

«أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون» و«أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين». [النمل (٢٧)/٦١ و ٦٤]

و«أفحكم الجاهليّة يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون». [المائدة (٥)/٥٠]

فتبيّن أنّه لا يصحّ اتّخاذ بعض الناس بعضهم أرباباً من دون الله بالضرورة العقليّة، كما لا يصحّ لهم أن يجعلوا أنفسهم أرباباً من دون الله. قال تعالى:

«اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون ٱلله والمسيح ٱبن مريم وما أُمروا إلّا ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلّا هو سبحانه عمّا يشركون». [التوبة (٩)/٣١]

في تفسير علي بن إبراهيم ٢٨٩/١، في رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: «اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم ...». قال:

أمّا المسيح فعصوه وعظّموه في أنفسهم حتّىٰ زعموا أنّه إله، وأنّه ابن الله. وطائفة منهم قالوا: ثالث ثلاثة. وطائفة منهم قالوا: هو الله. وأمّا أحبارهم ورهبانهم فإنّهم أطاعوهم وأخذوا بقولهم، واتّبعوا ما أمروهم به، ودانوا بهم، فنبذوه وراء ظهورهم، وما أمرهم به الأحبار والرهبان اتّبعوه، وأطاعوهم وعصوا الله، وإنّما ذكر هذا في كتابنا لكي نتّعظ بهم فعيّر الله بني إسرائيل بما صنعوا، يقول الله: «وما أمروا إلّا ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلّا هو سبحانه عمّا يشركون». [التوبة (٩)/٣١]

وفي تفسير العيّاشي ٨٦/٢، عن جابر، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

سألته عن قول الله: «اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» قال: أما إنّهم لم يتخذوهم آلهة إلّا أنّهم أحلّوا حراماً فأخذوا به، وحرّموا حلالاً فأخذوا به فكانوا أربابهم من دون الله.

وفيه أيضاً / ٨٧، عن أبي بصير، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

مادعوهم إلىٰ عبادة أنفسهم، ولو دعوهم إلىٰ عبادة أنفسهم ما أجابوهم، ولكنّهم أحلّوا لهم حراماً، وحرّموا عليهم حلالاً، فكانوا يعبدونهم من حيث لا يشعرون.

ظاهر هذه الروايات كما هو ظاهر الآيات تقريع أهل الكتاب وتوبيخهم لخضوعهم وتسليمهم لبدع علمائهم وأحبارهم الباطلة، الّذين هتكوا حريم التشريع جرأةً على الله. وكذلك الآية المبحوث عنها تنهىٰ عن اتّخاذ الأرباب من دون الله، فلا يجوز لهم تمكين الأحبار والرهبان من التجاوز لحريم التشريع. فهؤلاء الجهلة

لانغمارهم في الشهوات واستغراقهم في المعاصي قد تراضوا بينهم أن يخضعوا ويتذلّلوا لأحبارهم ورهبانهم في معصية الله، وانقادوا لعدّة من المتشبّهين بالعلماء من الأراذل والأغبياء، فأعطوا حقّ الربّ المولى الكريم لهم مجّاناً.

فتبيّن أنّ الآية الكريمة تذكرة وإرشاد إلىٰ تحريم التذلّل والتواضع في مقابل المتجاوزين للتشريع، والهاتكين لمقام الربوبيّة، وليس مسوقاً للنهي عن بدع الجاهلين الغافلين، الّذين استذلّوا واستعبدوا الأحرار فاتّخذوا عباد الله خولاً ومال الله دولاً.

فالكلمة العادلة السويّة هي أن لايلحدوا في ذات الله، وأن لايعبدوا غيره، وأن لايشركوا به شيئاً، وأن لايمكّنوا الأراذل من أنفسهم ولايحملوهم علىٰ رقابهم. فيعملوا فيهم ما شاؤوا ويحكموا فيهم بما أرادوا؛ في نفوسهم وأعراضهم وأموالهم. فهذه الكلمة المباركة الطيّبة في عين أنّها حقّ طلق لله سبحانه، وثابت له تعالى ثبوتاً ضرورياً ذاتياً. وهي تعطي المجتمع حياةً سعيدة هنيئة، ويعيش فيها الناس في ظلال الأمن والسعادة.

قوله تعالىٰ: «فإن تولّوا فقولوا اَشهدوا بأنّا مسلمون». (٦٤)

أي إن تولّوا عن هذه الدّعوة المباركة، وتراضوا بخسارة أنفسهم وبذلّة الاستعباد والاستعمار كفىٰ بهم حمقاً وضلالاً: «فقولوا» أنتم يا معشر المسلمين الّذين خرجوا من ذلّ عبادة الناس إلىٰ عزّ عبادة الله: «اشهدوا» يا أهل الكتاب «بأنّا مسلمون» لله الحقّ جلّ سلطانه، ولا نتّخذ إلٰهاً سواه، ولا نشرك به شيئاً في ألهيّته وعبادته، ولا نطيع أحداً في معصية الله.

والظاهر أنّ العناية في قوله تعالىٰ: «اشهدوا» أنّه قد طلعت شمس الهدىٰ، وانبسطت أنوارها في أقطار الأرض، وأخرجت الأمم من ظلم الجهالات والخرافات، وهذا بمنظركم وأنتم ترون، وقد أقيمت عليكم الحجج والبراهين النيّرة، واستضاء عندكم البلاغ وأنتم في سكرتكم تائهون وفي غفلاتكم تعمهون.

ويقرب من سياق هذه الآية ما في روضة الكافي/ ٣٨٦، عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته في ذي قار، قال عليه السلام:

أمّا بعد فإنّ الله بعث محمّداً صلّى الله عليه وآله بالحقّ؛ ليخرج عباده من عبادة عباده إلىٰ عبادته، ومن عهود عباده إلىٰ عهوده، ومن طاعة عباده إلىٰ طاعته، ومن ولاية عباده إلىٰ ولايته، بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه. وسراجاً منيراً عوداً وبدءاً، عذراً ونذراً، لحكم قد فصّله، وتفصيل قد أحكمه، وفرقان قد فرّقه، وقرآن قد بيّنه ليعلمالعباد ربّهم إذ جهلوه، وليقرّوا به بعد إذ جحدوه، وليثبتوه بعد إذ أنكروه، فتجلّىٰ لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه...

أقول: قوله عليه السلام: ليعلم العباد...، صريح أنّ خروج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله و...، إنّما هو في نتيجة المعرفة بالله والإقرار به وبمقاماته وحقوقه جلّ ثناؤه، حتّى صارت عبادة الناس للناس متروكة ومهجورة.

قوله تعالىٰ: «يا أهلَ الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلّا من بعده أفلا تعقلون». (٦٥)

إنّ إبراهيم عليه السلام كان وجيهاً ومقبولاً عند العامّة حتّى أنّ الوثنيّين ومشركي قريش سمّوا أنفسهم حنفاء، وادّعوا أنّهم من نحلة إبراهيم عليه السلام وعلىٰ منهاجه. واليهود والنصارىٰ جادلوا في إبراهيم، فقالت اليهود: إنّ إبراهيم عليه السلام كان يهوديّاً. وقالت النصارىٰ: أنّه كان نصرانيّاً، فردّ الله عليهم بأنّ التهوّد والتنصّر نشأ بعد التوراة والإنجيل وإبراهيم عليه السلام كان قبلهما بقرون، فكيف يمكن أن يكون إبراهيمُ عليه السلام يهوديّاً أو نصرانيّاً؟ فمالكم كيف تعقلون وكيف تحكمون!؟

قوله تعالىٰ: «ها أنتم هؤلاءِ حاججتهم فيما لكم به علمٌ فلم تحاجُّون فيما ليس لكم به علم واللهُ يعلم وأنتم لا تعلمون». (٦٦)

الظاهر أنّه كان منهم حجاجاً فيما كانوا به عالمين، وحجاجاً فيما ليس لهم به علم.

قال البيضاوي في تفسيره ١٦٥/١: أي أنتم هؤلاء الحمقیٰ؛ وبيان حماقتكم أنّكم جادلتم فيما لكم به علم، ممّا وجدتموه في التوراة والإنجيل عناداً، أو تدّعون وروده فيه، فلم تجادلون فيما لا علم لكم به، ولا ذكر في كتابكم من دين إبراهيم.

قال في التبيان ٤٩١/٢: فإن قيل: ما الّذي حاجّوا فيه ممّا لهم به علم؟ قلنا: أمّا الّذي لهم به علم فما وجدوه في كتبهم؛ لأنّهم يعلمون أنّهم وجدوه فيها. وأمّا الّذي ليس لهم به علم فشأن إبراهيم.

قوله تعالى: «ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين». (٦٧)

قال في لسان العرب ٥٧/٩: والحنيف: المسلم الّذي يتحنّف عن الأديان أي يميل إلیٰ الحقّ... وقال أبو عبيدة في قوله عزّ وجلّ: «**قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً**» قال: مَن كان على دين إبراهيم فهو حنيف عند العرب. وكان عبدة الأوثان في الجاهليّة يقولون: نحن حنفاء علیٰ دين إبراهيم، فلمّا جاء الإسلام سمّوا المسلم حنيفاً. وقال الأخفش: الحنيف: المسلم. وكان في الجاهليّة يقال من اختتن وحجّ البيت: حنيف؛ لأنّ العرب لم تتمسّك في الجاهليّة بشيء من دين إبراهيم غير الختان وحجّ البيت... والحنفاء: جمع حنيف؛ وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه.

أقول: الظاهر أنّ الحنيف هو التمايل الفطريّ إلیٰ الحقّ.

في الكافي ١٢/٢، عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

> سألته عن قول الله عزّ وجلّ: «**حنفاءَ لله غير مشركين به**». [الحجّ (٢٢)/٣١] قال: الحنيفيّة من الفطرة الّتي فطر الله الناس عليها، لا تبديل لخلق الله. قال: فطرهم على المعرفة به....

قوله تعالیٰ: «إنَّ أولى النّاس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النبيُّ والّذين آمنوا والله وليّ المؤمنين». (٦٨)

إبطال لما ادّعوا من تهوّد إبراهيم وتنصّره، وأنّهم أقرب الناس إليه وهم علیٰ سنّته ومنهاجه. ووزان هذه الأولويّة وزان قوله تعالیٰ: «**وأُولوا الأرحامِ بعضهم**

أولىٰ ببعض في كتاب الله». [الأنفال (٨)/٧٥]، فمَن كان أقرب رحماً وأشدّ تماسّاً فهو أولىٰ بالميراث، فأقرب الناس من إبراهيم وأمسّهم به مَن كان أعمل بطاعته، وأقوم منهاجاً وأهدىٰ سبيلاً. فهم الّذين اتّبعوا إبراهيم وهذا النبيّ المعظّم الممجّد، وأولياؤه الطاهرون والمؤمنون.

في الاحتجاج ٢٦١/١، في احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام في جواب كتاب إلىٰ معاوية:

كتاب الله يجمع لنا ما شذّ عنّا؛ وهو قوله تعالىٰ: «وأولوا الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض في كتاب الله». وقوله تعالىٰ: «إنّ أولى النّاس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النّبيّ والّذين آمنوا والله وليّ المؤمنين» فنحن مرّة أولىٰ بالقرابة وتارة أولىٰ بالطاعة.

وفي معاني الأخبار/ ٩٧، عن محمّد بن إبراهيم مسنداً عن عبد العزيز بن مسلم، عن الرضا عليه السلام قال:

... قال الله تبارك وتعالىٰ: «لاينال عهدي الظالمين» فأبطلت هذه الآية إمامة كلّ ظالم إلىٰ يوم القيامة فصارت في الصفوة... فلم تزل في ذرّيّته (إبراهيم عليه السلام) يرثها بعض عن بعض قرناً فقرناً حتّى ورثها النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال جلّ جلاله: «إنّ أولى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النبيّ ...» فكانت له خاصّة فقلّدها رسول الله صلّى الله عليه وآله عليّاً بأمر الله عزّ وجلّ علىٰ رسم ما فرضها الله فصارت في ذرّيّته الأصفياء الّذين آتاهم الله العلم والإيمان.

وفي تفسير العيّاشي ١٧٧/١، عن علي بن النعمان، عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله: «إنّ أولى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه ...». قال:

هم الأئمّة وأتباعهم.

وَدَّت طَّآيِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ

وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ
وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟
بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ
عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ
يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا
مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَا

خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالىٰ: «ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلّونكم».

إخبار عن حالهم وآمالهم وولعهم بإغواء المسلمين، وتقريع لعلمائهم. والظاهر أنّ الآية الكريمة شاملة لليهود والنصارىٰ، إذ الآيات السابقة وإن كانت مسوقة في شأن عيسىٰ عليه السلام وأُمّه إلّا أنّه انجرّ الكلام إلىٰ جدالهم في إبراهيم، ودعوىٰ تهوّده وتنصّره، وقد حكم عليهم القرآن ونزّه ساحة إبراهيم عن التهوّد والتنصّر والشرك.

قوله تعالىٰ: «وما يضلّون إلّا أنفسهم».

فيكونون مواجهين بالخيبة والخسران. والظاهر أن المراد عدم تمكّنهم من إضلالهم المؤمنين أصلاً.

قال في الميزان ٢٧٩/٣: وأمّا ضلال مَن ضلّ بإضلالهم فليس بتأثير منهم، بل هو سوء فعال الضالّ الغاوي وشآمة إرادته بإذن من الله... وهذا الّذي ذكرناه من المعارف القرآنيّة الّتي يفيده التوحيد الأفعالي الّذي يتضرّع علىٰ شمول حكم الربوبيّة والملك. وبه يوجّه ما يفيده قوله تعالىٰ: «وما يُضلّون إلّا أنفسهم وما يشعرُون» من الحصر.

أقول: القول بالتوحيد الأفعالي بمعنىٰ نسبة فعل الإنسان المختار إلىٰ الله تعالىٰ

بالحقيقة، وأنّ حيثيّة نسبة الفعل إلىٰ العبد هي بعينها حيثيّة نسبته إلىٰ الربّ، وأنّ الفعل صادر من العبد من الوجه الّذي هو صادر من الربّ. (الأسفار ٣٨٧/٦) وأنّ الله سبحانه عال في دنوّه، ودانٍ في علوه، وواسع برحمته، كلّ شيء لا يخلو من ذاته شيء من الذّوات، ولا من فعله شيء من الأفعال، ولا من شأنه شيء من الشؤون، ولا من إرادته ومشيئته شيء من الإرادات والمشيئات. (الأسفار ٣٧٦/٦)، معلوم البطلان بضرورة العقل والدّين. وغرض الآية إنّما هو توبيخ المضلّين وأهمـيّة مـا تصدّوا من الجناية الوقيحة لو علموا أنّ ضلالة من أضلّوا مـن جـناياتهم، فـهم مأخوذون به أيضاً. وهكذا لو لم يتمكّنوا من إضلال أحد. وليس في الآيـة مـن ضلالة الضالّين عين ولا أثر. والبحث إنّما هو في إضلال المضلّين وقد صرّحت الآية بأنّهم لايضلّون إلّا أنفسهم.

قوله تعالىٰ: «وما يشعرون». (٦٩)

أي أنّهم لا يعرفون وقاحة هذه الجناية ومجازاتها..

قوله تعالىٰ: «يا أهلَ الكتابِ لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون». (٧٠)

يا أهل الكتاب ما الّذي يغريكم ويحملكم علىٰ الكفر بآيات الله وارتكاب هذه الوقيحة عن علم ومعرفة؟

قوله تعالىٰ: «يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحقّ بالباطل وتكتمون الحقَّ وأنتم تعلمون». (٧١)

أي لم تجعلون الحقّ أمراً متشابهاً ومشكوكاً بالمغالطات والأبـاطيل، الّـتي تتوسّلون بها إلىٰ إخفاء الحقّ وإبراز الباطل بصورة الحقّ، وأنتم تعلمون أنّ هـذه سيّئة كبيرة ترتكبونها ولا تستحيون من الله ولا تخافون نقمته؟

قوله تعالىٰ: «وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالّذي أنزل علىٰ الّذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلّهم يرجعون». (٧٢)

هذا تلبيس من أهل الكتاب، فإنّ تصديق شيء في أوّل النّهار وتكذيبه في آخره تلبيس للحقّ بالباطل. وهذا أضرّ شيء وأكبر جناية علىٰ ضعفاء الناس، وحرمانهم من نيل الحقّ. ويوجب اضطراباً في نيل الحقّ، ولا يـبقي شيء يـعتمد

عليه الناس في دينهم ودنياهم.

قوله تعالىٰ: «ولا تؤمنوا إلّا لمن تبع دينكم».

أي وقالت هذه الطائفة أيضاً: لا تقبلوا شيئاً من أحد إلّا ممّن تبع دينكم.

قوله تعالىٰ: «قل إنّ الهدىٰ هدى الله».

خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وآله أنّ الهداية منحصرة بالّتي يعطيها الله لمن يشاء من عباده.

قوله تعالىٰ: «أن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم».

تفصيل وتفسير للهداية، فإنّه لايعطي الله أحداً من الهداية مثل ما آتاكم وهداكم به ومكّنكم منه.

قوله تعالىٰ: «أويحاجّوكم عند ربّكم».

أي يحاجّ الكفّار عند ربّكم بالمغالطة والجدال عناداً وإنكاراً عليكم وعلى الله.

قوله تعالىٰ: «قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء».

إرشاد وتذكرة بأنّ الله ـ سبحانه ـ هو المالك بذاته علىٰ جميع ما سواه وخاصّة الفضل والكرامة، يعطيها الله ـ تعالىٰ ـ من يشاء من عباده الصالحين فضلاً وإحساناً.

قوله تعالىٰ: «والله واسع عليم». (٧٣)

أي ذو سعة من حيث المالكيّة لجميع ما سواه. وعليم يعلم أين يضع الفضل ولمن يعطيه.

قوله تعالىٰ: «يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم». (٧٤)

فقد عمّت ووسعت رحمته كلَّ شيء، إلّا أنّ الله لا يعطيها إلّا من يشاء من عباده طبق حكمته القيّمة والمصالح الحسنة.

قوله تعالىٰ: «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك».

أي طائفة من أهل الكتاب أمناء، فإن تأمنهم بمال كثير يؤدّوه إليك من دون ادّعاء حقّ عليك.

قوله تعالىٰ: «ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليكَ إلّا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنّهم قالوا ليس علينا في الأميّين سبيل».

ومنهم طائفة يزعمون أنّه ليس للأميّين الّذين لم يتعلّموا علىٰ يد أحد أو يدرسوا كتاباً ولا شريعة، فيحلّ لهم أن يتصرّفوا في أموالهم كيف يشاؤون من دون منع من الله تعالىٰ، وبهذه الجهة لا يؤدّون إليك ما تأمنهم من دينار إلّا أن تكون مراقباً وملازماً لهم وتتقاضاه منهم.

قوله تعالىٰ: «ويقولون علىٰ الله الكذب وهم يعلمون». (٧٥)

أي كذبوا فيما يقولون ويزعمون، فإنّ القرآن الكريم ـ الّذي اعترف به جميع أهل اللغة والفصاحة والبلاغة وعجزوا عن معارضته والإتيان بمثله ـ وحي إلهيّ مشتمل على الشرائع القيّمة والأحكام الفاضلة إلىٰ يوم القيامة وهم يعلمون ذلك.

في تفسير عليّ بن إبراهيم ١٠٦/١، قال عليّ بن إبراهيم في قوله: **«ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار ...»**. فإنّ اليهود قالوا: يحلّ لنا أن نأخذ مال الأُميّين. والأميّون الّذين ليس معهم كتاب، فردّ الله عليهم فقال: **«ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»**.

قوله تعالىٰ: «بلىٰ من أوفىٰ بعهده واتّقىٰ فإنّ الله يحبّ المتّقين». (٧٦)

عهده ـ تعالىٰ ـ وميثاقه هو الإيمان بالله الّذي لا شريك له متوحّداً في ذلك. والمراد من الوفاء بالعهد هو التسليم والانقياد لجميع ما جاء به رسل الله وأنبياؤه عليهم السلام من الشرائع والأحكام قلباً وقالباً. ويجب تقوى الله ـ تعالىٰ ـ وعدم التغافل عن ساحة حسابه أو الاستهانة بها، فإنّ التّقوى في ساحته ـ سبحانه ـ من أجلّ المكارم وأشرف المحاسن عنده سبحانه. والله تعالىٰ يحبّ المتّقين، ومَن أحبّه الله يؤيّده ويسدّده بكراماته الحسنة الجميلة ويقبله بحضوره وساحته.

قوله تعالىٰ: «إنّ الّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم». (٧٧)

الآية الكريمة مسوقة للتوبيخ والردّ علىٰ من يحلف بالله كاذباً؛ كي يأخذ به

قليلاً من أموال الناس، وليس لهم في الآخرة نصيب من الخير لا قليلاً ولا كثيراً، ولا يكلّمه الله سبحانه، ولا ينظر إليه نظرة رحيميّة ينتفع بها، ولا يؤيّده الله ـ تعالىٰ ـ كي يزكّي نفسه من الأعمال الفاسدة والمنويّات الباطلة، ويذره في طغيانه وبغيه وله في الآخرة عذاب أليم.

قوله تعالىٰ: «وإنّ منهم لفريقاً يلون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولونَ هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون علىٰ الله الكذب وهم يعلمون». (٧٨)

قال في لسان العرب ٢٦٢/١٥: لَوَيْتُ الحبل ألويه ليّاً: فَتَلتُه... والْتَوى الماء في مجراه وتلوّى: انعطف ولم يجر علىٰ الاستقامة... وأولىٰ بالكلام: خالف به عن جهته... ولَوَيْت عنه الخبر: أخبرته به علىٰ غير وجهه. ولوىٰ فلان خبره إذ اكتمه.

والعجب أنّ فريقاً من أهل الكتاب يحرّفون الكتاب ويقلّبونه طوراً آخر؛ كي يُروا في أنظار الناس أنّه من الكتاب وما هو من الكتاب حقيقةً. ويقولون هو من عند الله افتراءً وكذباً علىٰ الله وليس هو من عند الله بالحقيقة. وبكلّ ذلك كانوا عالمين وعامدين.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ

وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالىٰ: «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثمّ يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربّانيّين بما كنتم تُعلّمون الكتاب وبما كنتم تَدرسون». (٧٩)

لا يجوز لبشر آتاه الله الحكم والنبوّةَ والكتابَ المشتمل على الشرائع والأحكام والمعارف والحقائق أن يدّعي مقام الألوهيّة كذباً وعدواناً، ويدعو الناس إلىٰ طاعته وعبادته. فالله ـ تعالىٰ ـ يأمر الناس أن يكونوا ربّانيّين قانطين

وخاضعين له في ساحته بما وفّقهم وأيّدهم من تعليم الكتاب وتدريسه. قال تعالىٰ:

«وإذ قال اللهُ يا عيسى ٱبن مريم ءأنت قلت للنّاس ٱتّخذوني وأُمّي إلٰهين من دون الله قال سُبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقٍّ إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنّك أنت علّام الغيوب * ما قلت لهم إلّا ما أمرتني به أن ٱعبدوا الله ربّي وربّكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلمّا توفّيتني كنت أنت الرّقيب عليهم وأنت علىٰ كلّ شيءٍ شهيد». [المائدة (٥)/١١٦، ١١٧]

قوله تعالىٰ: «ولا يأمركم أن تتّخذوا الملائكة والنبيّينَ أرباباً».

أي ليس من المعقول أن يتّخذ الناسُ من الملائكة والأنبياء أرباباً ويعبدوها، ضرورة أنّ كلّ ما سوى الله ـ سبحانه ـ بلا استثناء شيء، مركوز في حاقّ العبوديّة يستحيل أن يكون معبوداً.

قوله تعالىٰ: «أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون». (٨٠)

إنّ الله سبحانه قدّس نفسه علىٰ سبيل الإنكار. فإنّه كيف يأمركم بالكفر بعد ما كنتم من المسلمين القائلين بالله ووحدانيّته؟

قوله تعالىٰ: «وإذ أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثمّ جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرنّه قال ءأقررتم وأخذتم علىٰ ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين». (٨١)

بيان: دين الله الّذي ارتضاه لأنبيائه واحد، وكلّ واحد منهم مأمور بالإبلاغ على حدّ ما رسم له، وعلى الشرعة والمنهاج الّذي عيّن لكلّ واحد منهم، وكذلك الأحكام المشتركة بينهم، فهم يعلّموا أممهم وحدة الدّين، ووحدة الغرض الموجب لإرسال الرسل، وتنظيم البراهين، وتثبيت الحجج. فهؤلاء الرجال المتّقون المطهّرون متعاونون ومتظاهرون علىٰ تبليغ الدين وتكميل الغرض، فلا يجوز لأممهم التفريق بين الرسل أن يؤمنوا ببعض ويكفروا بآخرين، فإنّ الكفر بواحد منهم كفر بجميعهم. فهؤلاء الأعاظم المطهّرون أخبر السابق منهم بصدق الآخر، وكذلك

اللاّحق يصدّق السابق ويعظّمه ويقدّسه، ويؤمن به وبما جاء به، عدا بعض ما كان منسوخاً، تحفّظاً لوحدة الكلمة ووحدة الغرض. وبلّغوا ذلك أممهم، وشرطوا عليهم الوفاء، والقيام والعمل بما بلّغوا وأخذوا منهم العهود المؤكّدة، والمواثيق الغليظة منهم بأمر الله سبحانه. وعرّفوا أممهم أنّه إذا جاءكم بعدي رسول بكتاب وحكمة، وقامت البراهين والحجج عندكم للنبيّ الموعود، وأنّ كتابه وحكمه موافق لمن تقدّم من الرسل، وكان مصدّقاً لجميعهم في علومهم فيما جاؤوا به من عند الله، فيجب عليكم الإيمان به، ونصرته، فمَن تولّىٰ منهم بعد قيام الحجّة وأنكر العهد المأخوذ منهم والميثاق السابق فقد عصى النبيّ السابق وكفر باللّاحق وهو من الفاسقين.

لقد أخذ الله ميثاق النبيّين علىٰ أممهم بواسطة النبيّين للنبيّ اللّاحق، فإنّ إطلاق الخطاب وسوقه إلىٰ الأمم ـ مع أنّ المواجه بالخطاب هو نفس النبيّ ـ إطلاق شائع. قال تعالىٰ:

«ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشّيطان إنّه لكم عدوّ مبين». [يس (٣٦)/٦٠]

و«يا أيّها النّاس قد جاءَكم برهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً». [النساء (٤)/١٧٤]

وقوله: «لما آتيتكم من كتاب وحكمة».

أي جاءكم كتاب وحكمة بإرسال الرسل وبعث الأنبياء.

وقوله: «ثمّ جاءكم رسولٌ مصدّق لما معكم».

أي تحقّق عندكم توافقهما وتصادقهما، فلابدّ من الإيمان به والنصرة له.

والشاهد لما ذكرناه في تفسير الآية هو أنّ مجيء الرسول لجماعة النبيّين فرض باطل، فيكون القوم الّذين جاءهم الرسول هي أمّة النبيّ السابق المتدينة بكتابه وشريعته.

فالله ـ تعالىٰ ـ يقول لهم بإبلاغ النبيّين: «أأقررتم ...» فقالوا في جواب نبيّهم: «أقررنا». فقال الله لهم: فأشهدوا علىٰ أنفسكم هذا العهد المأخوذ، وتذكّروه

وأوفوا به ولا تكفروا به وأنا معكم من الشاهدين.

قوله تعالىٰ: «فمن تولّىٰ بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون». (٨٢)

هذه قرينة قطعيّة لما استظهرنا من أنّ العهد من النبيّين علىٰ أممهم للنبيّ اللّاحق. فمن تولّى بعدما عاهد وشهد على نفسه، وشهد الله عليه فهو من الفاسقين. فإنّ هذا التوبيخ الشديد لا يناسب مقام الرسل المعصومين المتطهّرين.

والروايات الواردة في تفسير الآية لاتعارض ولا تدافع بينها. وما ورد في كثير منها من إيمان الأنبياء عليهم السلام لعليّ صلوات الله عليه في الرجعة، إنّما هو من باب التأويل والباطني وليس من باب التفسير؛ وكلّ من التفسير والتأويل حقّ في مورده، وليسا واردين علىٰ مورد واحد كما لا يخفىٰ.

فصفوة القول في المقام أنّ الميثاق المضاف إلىٰ النبيّين من باب إضافة المصدر إلى فاعله. وهذا الميثاق في ظاهر القرآن هي دعوة الأنبياء، فإنّهم صلوات الله عليهم قد بلّغوا رسالات ربّهم في أمّهات الشرائع وأصول الأديان، وأحكموا عقد الطاعة لله ـ عزّ وجلّ ـ بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً إلىٰ آخر أبواب الطاعة. وقد تمّت الحجّة ببلاغهم. فإطلاق العهد علىٰ هذه الأحكام إطلاق شائع. قال تعالىٰ:

«ألم أعهَد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين». [يس (٣٦)/٦٠]

فالموقف الجليل لهذا العهد، والمقام المنير لهذا الميثاق هو موقف الإيمان والتسليم والانقياد بعد تمام البلاغ بالوجوب الضروريّ العقليّ؛ ومن جملة هذه المواثيق هو القيام بنصرة أوليائه، وكلّ نبيّ ووصيّ أتىٰ بحكمة وشريعة، أو قام بوظيفة وإصلاح طريقة، فقد أقررنا بذلك عند إسلامنا لله ـ سبحانه ـ ونجدّد هذا العهد بين يدي ربّنا في كلّ صباح ومساء، فمَن نكث ونقض طاعة الله، وأبطأ عن نصرة أوليائه والإيمان بهم، فهو من الفاسقين الخارجين عن حريم التوحيد والإسلام لله.

ولا ينافي هذا العهد في تفسير القرآن ومحكماته وظواهره عهداً سابقاً بين الله

وخلقه، فإثبات شيء في ظاهر القرآن لا ينافي ثبوت شيء آخر في تأويله وبطونه. ولو قام دليل موثّق علىٰ التأويل والباطن لأخذنا به أيضاً كما نأخذ بـالظاهر. في تفسير العيّاشي ١٨١/١، عن سلام بن المستنير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

لقد تسمّوا باسم ما سمّى الله به أحداً إلّا عليّ بن أبي طالب [عليه السلام] وما جاء تأويله. قلت: جعلت فداك متىٰ يجيء تأويله؟ قال: إذا جاء جمع الله أمامه النبيّين والمؤمنين حتّىٰ ينصروه؛ وهو قول الله: **وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة**»قوله: «**وأنا معكم من الشاهدين**». فيومئذٍ يدفع راية رسول الله صلّى الله عليه وآله إلىٰ عليّ بن أبي طالب فيكون أمير الخلائق كلّهم أجمعين، يكون الخلائق كلّهم تحت لوائه، ويكون هو أميرهم. فهذا تأويله.

أقول: هذه الرواية شارحة ومفسّرة لجميع الروايات الواردة بهذا المعنىٰ في تفسير الآية، وتبيّن أنّها راجعة إلىٰ البطون والتأويلات.

في تفسير عليّ بن إبراهيم ١٠٦/١، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن ابن مسكان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

ما بعث الله نبيّاً من لدن آدم فهلّم جرّاً إلّا ويرجع إلىٰ الدّنيا، وينصر أمير المؤمنين عليه السلام؛ وهو قوله: «**لتؤمننَّ به**» يعني رسول الله صلّى الله عليه وآله «**ولتنصرنّه**» يعني أمير المؤمنين عليه السلام. ثمّ قال لهم في الذرّ: «**أأقررتم وأخذتم علىٰ ذلكم إصري**» أي عهدي «**قالوا أقررنا قال**» الله للملائكة «**فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين**». وهذه مع الآية الّتي في سورة الأحزاب في قوله: «**وإذ أخذنا من النّبيّينَ ميثاقَهم ومنكَ ومن نوح**». الآية، [الأحزاب (٣٣)/٧] والآية الّتي في سورة الأعراف قوله: «**وإذ أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم**». [الأعراف (٧)/١٧٢] قد كتبت هذه الآيات الثلاث سورة في ثلاث.

وفيه أيضاً/ ٢٤٦، عن أبيه مسنداً عن ابن سنان قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

أوّل من سبق من الرسل إلىٰ «بلىٰ» محمّد صلّى الله عليه وآله وذلك أنّه كان أقرب الخلق إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ... فأوّل ما أخذ الله عزّ وجلّ الميثاق علىٰ الأنبياء له بالربوبيّة؛ وهو قوله: **«وإذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم»** [الأحزاب ٣٣/٧]، فذكر جملة الأنبياء ثمّ أبرز أفضلهم بالأسامي فقال: ومنك يا محمد، فقدّم رسول الله صلّى الله عليه وآله لأنّه أفضلهم ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم، فهؤلاء الخمسة أفضل الأنبياء.. ثمّ أخذ بعد ذلك ميثاق رسول الله صلّى الله عليه وآله علىٰ الأنبياء بالإيمان به، وعلىٰ أن ينصروا أمير المؤمنين عليه السلام فقال: **«وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثمّ جاءكم رسول مصدّق لما معكم»**. يعني رسول الله صلّى الله عليه وآله **«لتؤمننّ به ولتنصرنّه»** يعني أمير المؤمنين عليه السلام. وأخبروا أممكم بخبره وخبر وليّه من الأئمّة عليهم السلام.

وفي تفسير العيّاشي ١٨١/١، عن فيض بن أبي شيبة قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول وتلا هذه الآية: **«وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة»** إلىٰ آخر الآية. قال:

لتؤمننّ برسول الله ولتنصرنّ أمير المؤمنين عليه السلام. قلت: ولتنصرنّ أمير المؤمنين؟ قال: نعم، من آدم فهلمّ جرّاً. ولا يبعث الله نبيّاً ولا رسولاً إلّا رُدّ إلىٰ الدّنيا حتّىٰ يقاتل بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام.

هذه الروايات كلّها وردت في تأويل الآية. وورد في تفسير الآية مارواه في تفسير العيّاشي ١٨٠/١، عن حبيب السجستاني قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: **«وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين ... ولتنصرنّه»**، فكيف يؤمن موسىٰ بعيسىٰ وينصره ولم يدركه؟ وكيف يؤمن عيسىٰ بمحمّد صلّى الله عليه وآله ولم

يدركه؟ فقال:

يا حبيب... «وإذ أخذ الله أمم النبيّين...»... يا حبيب فو الله ما وفت أمّة من الأمم الّتي كانت قبل موسىٰ بما أخذ الله عليها الميثاق لكلّ نبيّ بعثه الله بعد نبيّها، ولقد كذبت الأمّة الّتي جاءها موسىٰ لما جاءها موسىٰ، ولم يؤمنوا به ولا نصروه إلّا القليل منهم. ولقد كذبت أمّة عيسىٰ بمحمّد صلّى الله عليه وآله ولم يؤمنوا به ولا نصر[و]ه لما جاءها إلّا القليل منهم. ولقد جحدت هذه الأمّة بما أخذ عليها رسول الله صلى الله عليه وآله من الميثاق لعليّ بن أبي طالب عليه السلام يوم أقامه للناس ونصبه لهم ودعاهم إلىٰ ولايته وطاعته في حياته و وأشهدهم بذلك علىٰ أنفسهم، فأيّ ميثاق أوكد من قول رسول الله صلّى الله عليه وآله في عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فوالله ما وفوا به بل جحدوا وكذبوا.

وفي مجمع البيان ٤٦٨/٢ قال: وقال الصادق: تقديره: وإذ أخذ الله ميثاق أمم النبيّين بتصديق نبيّها والعمل بما جاءهم به، وأنّهم خالفوهم فيما بعد وما وفوا به، وتركوا كثيراً من شريعته وحرّفوا كثيراً منها.

وقال في المنار ٣٥٠/٣: وفي قوله: «ميثاق النبيّين» وجهان: أحدهما: أنّ معناه الميثاق من النبيّين. فالنبيّون هم المأخوذ عليهم... وثانيهما أنّ إضافة ميثاق إلىٰ النبيّين علىٰ أنّهم أصحابه فهو مضاف إلىٰ الموثق لا إلىٰ الموثق عليه كما تقول: عهد الله وميثاق الله. وحينئذ يكون المأخوذ عليه مسكوتاً عنه، للعلم به، وتقديره: وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين علىٰ أممهم... أو التقدير: ميثاق أمم النبيّين. وكلّ من القولين مرويّ عن السلف. وممّن قال بالثاني من آل البيت جعفر الصادق، قال: هو علىٰ حدّ «يا أيّها النبيُّ إذا طلّقتم النساءَ». [الطلاق (٦٥)/١]، فالخطاب فيه للنّبيّ والمراد أمّته عامّة.

وقال فيه أيضاً/ ٣٥٣، في تفسير قوله تعالى: «فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين»: وقيل معناه فاعلموا ذلك علماً يقيناً كالعلم المشاهد بالبصر. وقال

الأستاذ: إنّ هذا الأمر بالشهادة دليل علىٰ ترجيح قول جعفر الصادق: إنّ العهد مأخوذ من الأنبياء علىٰ أممهم، والمعنىٰ: إنّ الله ـتعالىٰ ـ أمر الأنبياء بأن يشهدوا علىٰ أممهم بذلك وهو سبحانه معهم شهيد.

قوله تعالىٰ: «أفغير دين الله يبغون».

الآية مرتبطة بما قبلها، فإنّه ـتعالىٰ ـ لمّا ذكر التوحيد والإخلاص والإسلام لله عزّ اسمه، وأخذ الميثاق من الأمم علىٰ ذلك، وبيّن أنّ دين الله هو الإسلام لله وحده؛ وهو دين الأنبياء والمرسلين وملائكة الله المقرّبين، فكيف ينبغي أن يتّخذ أحد غيره ديناً، ويبتغي من دونه بدلاً. وفيه استعجاب من حال من ابتغى غير دين الله ديناً.

قوله تعالىٰ: «وله أسلم من في السمٰوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يُرجعون». (٨٣)

هل الآية تمجيد لله ـتعالىٰ ـ بنفوذ قدرته وسلطانه وأمره علىٰ من في السماوات والأرض، وأنّ رجوع الكلّ ومصير الجميع إليه ـتعالىٰ ـ فلا ينبغي التمرّد علىٰ أمره والانحراف عن منهاج رسله، أَو ليس سياق الآية في مقام التمجيد والتعظيم؟ الظاهر أنّ الآية الكريمة في مقام تتميم البيان السابق، وإشباع الكلام في بيان دين الإسلام، وأنّه حقيقة ربط الموجودات الحيّة الشاعرة لله ـ سبحانه ـ بحيث لا ينفكّون عنه لقضاء نور الفطرة وحكومتها علىٰ القلوب والأرواح، ونفوذ شعاعها عليهم حتّى عندما كانوا أسارى هوسهم. فإنّهم لايتمكّنون من تبديل فطرتهم، وهي مسيطرة عليهم وقاهرة علىٰ قلوبهم، تبرق أحياناً فتكون حجّة عليهم في آونة حياتهم ولحظات عمرهم، فلا محالة هم المحكومون بالعيان وبالضرورة للانقياد والتسليم والاحترام بمقام مولاهم؛ كلّ منهم علىٰ مراتب عملهم وإخلاصهم، فمنهم من يقرّ له تعالىٰ بالألوهيّة بالإيمان والإيقان والعيان، ومنهم من يعترف استدلالاً، ومنهم من يعترف اضطراراً بمعارف قلوبهم كما في المعاندين، ففي النهج، الخطبة/ ٤٩ قال عليه السلام:

فهو الّذي تَشهدُ لَهُ أعلامُ الوجودِ، علىٰ إقرارِ قلب ذي الجُحودِ.

فالظاهر من الإسلام لله ـ تعالىٰ ـ هو التسليم العبادي والخضوع التكليفي. فجميع من في السماوات والأرض مخلصون له ـ تعالىٰ ـ وأسلموا له منقادين موحّدين، فلا وجه لتفكيك المعاندين الذين هلكوا عن بيّنة وكفروا عن حجّة، والمستضعفين الّذين لهم معرفة بسيطة غير شاعرين بها يتوجهون إليه ـ تعالىٰ ـ بمقدار معارفهم البسيطة قضاءً لمقدار الفطرة، عن أولياء الله الصالحين وأنبيائه العارفين، وعباده المؤمنين، فإنّهم أسلموا له ـ تعالىٰ ـ بالحقيقة مخبتين قانتين. فلا وجه لتأويل الآية عن ظاهره بالنسبة إليهم، غاية الأمر أنّ عبادَ الله المتّقين المخبتين يبتهجون بلقاء ربّهم وبالتذلّل بين يديه ناشطين راغبين، وغيرهم كارهون غير راضين، لما في ذلك هلاك آلهتهم وقطع دابر أربابهم، الّذين اتّخذوهم من دون الله آلهة وأرباباً.

فتلخّص أنّ الظاهر من الآية الكريمة هو الإسلام والتسليم لله طاعة وتكليفاً لا تكويناً وقهراً من حيث نفوذ قضائه وأمره. فالآية الكريمة بمثابة قوله تعالىٰ: «**ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولنَّ الله**». [الزمر (٣٩)/٣٨]

في الكافي ١٢/٢، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

كلّ مولودٍ يولدُ علىٰ الفِطرةِ، يعني المعرفة بأنّ الله عزّ وجلّ خالقه. وكذلك قوله: «**ولئن سألتهم ...**».

وفي التوحيد/ ٨٣، مسنداً عن أبي هاشم الجعفري قال:

سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام ما معنىٰ الواحد؟ قال: الّذي اجتماع الألسن عليه بالتوحيد. كما قال الله عزّ وجلّ: «**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله**».

وفي تفسير العياشي ١٨٢/١، عن عمّار بن أبي الأحوص، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

إنّ الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ خلق في مبتدإ الخلق بحرين: أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج. ثمّ خلق تربة آدم من البحر العذب

الفرات، ثمّ أجراه علىٰ البحر الأجاج فجعله حمأً مسنوناً وهو خلق آدم... قال أبو عبدالله عليه السلام فأمر أصحاب اليمين وهم ذرّ بين يديه فقال: ادخلوا هذه النار طائعين. قال: فطفقوا يتبادرون في دخولها فولجوا فيها جميعاً، فصيّرها الله عليهم برداً وسلاماً، ثمّ أخرجهم منها. ثمّ إنّ الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ نادىٰ في أصحاب اليمين وأصحاب الشمال: ألست بربّكم؟ فقال أصحاب اليمين: بلىٰ ربّنا نحن بريّتك وخلقك مقرّين طائعين. وقال أصحاب الشمال: بلىٰ يا ربّنا نحن بريّتك وخلقك. كارهين وذلك قول الله: «**وله أسلم من في السمٰوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون**» قال: توحيدهم لله.

وفي التوحيد/ ٤٦، عن أبيه مسنداً عن زرارة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول في قوله عزّ وجلّ: «**وله أسلم من في السموات والأرض طَوعاً وكَرهاً**». قال:

هو توحيدهم لله.

أقول: لا تدافع بين هذه وبين غيرها من الروايات الواردة في تأويل الآية أنّها عند قيام القائم وعند الرجعة، لما ذكرنا في الآية السابقة من وجوب المحافظة على كلّ من مرتبة التفسير والتأويل.

قوله تعالىٰ: «قل آمنّا بالله وما أُنزل علينا وما أُنزل علىٰ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسىٰ وعيسىٰ والنبيُّون من ربّهم لا نفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون». (٨٤)

الآية الكريمة مرتبطة بسابقتها وهو الإسلام لله وحده، فالمعنى: أنّهم إن استكبروا عن الإقرار والإسلام له ـ تعالىٰ ـ مخلصين له الدّين وأصرّوا علىٰ ذلك فقل: آمنّا بالله عزّ وجلّ وما أنزل علىٰ أنبيائه ورسله ـ صلوات الله عليهم ـ من دون فرق بين أحد منهم، فإنّ التفريق بين الرسل بالتصديق ببعض والتكذيب بآخرين مع كون الدّين والملّة واحداً، كفر بجميعهم وخروج عن منهاج هدايتهم

أجمعين إذ لا اختلاف بينهم أصلاً.

قال الرازي في تفسيره ١٢٤/٨: قدّم الإيمان بالله علىٰ الإيمان بالأنبياء؛ لأنّ الإيمان بالله أصل الإيمان بالنبوّة. وفي المرتبة الثانية ذكر الإيمان بما أنزل عليه؛ لأنّ كتب سائر الأنبياء حرّفوها وبدّلوها، فلا سبيل إلىٰ معرفة أحوالها إلّا بما أنزله الله علىٰ محمّد (ص) فكان ما أنزل علىٰ محمّد كالأصل لما أنزل علىٰ سائر الأنبياء، فلهذا قدّمه عليه.

أقول: ما قاله من تحريف كتب سائر الأنبياء حقّ لا ريب فيه إلّا أنّ الكلام في دلالة الآية عليه كما لا يخفىٰ.

وقال في آلاء الرحمٰن/ ٣٠٧، في تفسير الأسباط: وهم قبائل بني إسرائيل المنتسبين إلىٰ أولاد يعقوب. فيمكن أن يكون المراد بالإنزال عليهم باعتبار الإنزال على أنبيائهم... ويمكن أن يرد بالأسباط أنبياؤهم كموسىٰ ومن بعده.

في تفسير العيّاشي ١٨٤/١، عن حنان بن سدير عن أبيه قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام:

> هل كان ولد يعقوب أنبياء؟ قال: لا، ولكنّهم كانوا أسباطاً، أولاد الأنبياء، لم يكونوا يفارقون الدنيا إلّا سعداء تابوا وتذكّروا ما صنعوا.

وقال في الميزان ٣٧٠/٣: ولا تخلوا الآية من إشعار بأنّ المراد بالأسباط هم الأنبياء من ذرّيّة يعقوب، أو من أسباط بني إسرائيل كداود وسليمان.

أقول: الظاهر من ترتيب الآية أنّهم كانوا قبل موسىٰ. وحيث إنّه لا تخلو الأرض من الحجّة، فلابدّ أن يكون بين يوسف وموسىٰ أنبياءَ وأوصياءَ لم يقصصهم سبحانه في القرآن.

فتلخّص أنّ الأنبياء كلّهم أهل الإسلام لله وجاؤوا بالإسلام له ـ تعالىٰ ـ وبلّغوا رسالات ربّهم بأن اتّقوا الله حقّ تقاته، ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون.

قوله تعالىٰ: «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين». (٨٥)

فليس لله ـ سبحانه ـ في الأرض ولا في السماء؛ من ملائكته ورسله وجميع

الموحّدين دينٌ سوى الإسلام لله ، فمن اختلق ديناً سوى الإسلام فقد أحدث حدثاً وأبدع بدعة ، وهو أولىٰ بما جاء به ، ويضرب به وجه صاحبه ، فلا يقبل منه وليس لأحد أن يتديّن به ، ويجب عليه الارتداع والرجوع إلىٰ الدّين الحقّ ، أي الإسلام لله . فلو أصرّ علىٰ ذلك فلا دين له في الواقع يموت علىٰ غير دين الإسلام ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

فعدم قبول الدين منه من حيث إنّه مفتر كذّاب ، أمر تكوينيّ واقعي ، ليس بأمر تشريعيّ تعبديّ . فعدم القبول التشريعي لا بدّ من أن يلتمس من أدلّة أخرىٰ ، فلا دلالة في الآية علىٰ ذلك . والآية في مقام بيان حاقّ الواقع ، وأنّ من ابتغىٰ ديناً غير الإسلام فهو صفر اليد من الدّين بالضرورة ، ولا حجّة له عند الله .

في النهج ، الخطبة/ ١٦١ ، قال عليه السلام :

> أرسله بحجّة كافية ، وموعظة شافية ، ودعوة متلاقية ، أظهر به الشرائع المجهولة ، وقمع به البدع المدخولة ، وبيّن به الأحكام المفصولة . فمن يبتغ غير الإسلام ديناً تتحقّق شقوته ، وتنفصم عروته ، وتعظم كبوته ، ويكن مآبه إلىٰ الحزن الطويل والعذاب الوبيل .

كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

بيان: قال في آلاء الرحمٰن/ ٣٠٩: قيل الآيات نزلت في الحارث بن سويد، رجل من الأنصار ارتدّ وتاب وتاب الله عليه. وفي مجمع البيان؛ وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام. أقول: ولم أجد الرواية مسندة. والروايات في الدرّ المنثور في هذا المقام متدافعة.

أقول: الحقّ في المقام الأخذ بمفاد الآيات، لا تطبيق الآية على الموارد الّتي لا تدلّ عليها إلّا الضعاف من الأخبار.

قوله تعالىٰ: «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم».

الاستفهام استبعاد عن نيلهم الهداية بعد كفرهم وظلمهم الحقَّ والعلمّ وأهلَه. والمراد من الهداية، الهداية التامّة النافعة؛ وهو العلم الصريح البيّن، أي الهداية والعرفان بحقّانيّة الدعوة ودين الإسلام، والتذكّر بوجوب ما علم من الانقياد والامتنان في مقابل ما علم وعرف من الحقّ، لا الهداية الّتي كان واجداً لها لإتمام الحجّة والبيّنة، الّتي لابدّ منها في آونة كفره كي لا يهلك إلّا عن بيّنة.

وقوله تعالى: **«بعد إيمانهم»** ظاهر في أنّ إيمانهم هذا هو الإيمان العلميّ عن هداية تامّة كاملة.

قوله تعالىٰ: «وشهدوا أنّ الرسول حقّ».

ليس الشهادة هذه في مرحلة الأداء، بل الشهادة في مرحلة التحمّل، أي عرفوا عرفاناً حقيقيّاً أنّ الرسول حقّ.

قوله تعالىٰ: «وجاءهم البيّنات واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين». (٨٦)

فعند أهل الكتاب البشارات لنّبينا صلى الله عليه وآله صريحة. وانطباق الصفات المذكورة في الكتابين علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وآله مع ما يشاهدون منه صلّى الله عليه وآله من المعجزات والكرامات، بدهي. وكذلك المشركون والوثنيّون يشاهدون منه صلّى الله عليه وآله بيّنات صدقهِ وحقانيّته ليلاً ونهاراً في سفره وحضره بما لا يمكن الريب فيه. فالآية قابلة الانطباق لأهل الكتابين، ولكلّ مَن آمن وكفر بعد إيمانه كائناً مَن كان، وهؤلاء الظالمون لمكان عنادهم وبغيهم على الحقّ الصريح وأهله حريّ أن يسجّل عليهم الحرمان من هداية الله والعرفان به، بل يضرب عليهم الهوان والإبعاد جرياً علىٰ مقتضى العدل والحكمة، وحفظاً لمناعته وكبريائه من إفاضة الهداية على الظالمين.

قوله تعالىٰ: «أولئك جزاؤهم أنّ عليهم لعنةَ الله والملائكة والناس أجمعين». (٨٧)

الظاهر أنّ الآية في مقام الإخبار لا الدّعاء عليهم، وإن كان إخباره ـ تعالىٰ ـ عين الهوان بهم، وعين نزوله لساحتهم، فهم المبعدون من ساحته ـ تعالىٰ ـ ومن برّه وإحسانه. والمراد من لعنة الملائكة والناس إمّا دعاء منهم عليهم، أو إظهار لإعراضهم عنه، وبغضهم وعداوتهم إيّاهم عملاً بما يجب على الموحّدين من براءَتهم من أعداء الله، وتولّيهم لأولياء الله. ثمّ الظاهر أنّ المراد بالنّاس هم المؤمنون الموحّدون فلا إطلاق لغيرهم.

قوله تعالىٰ: «خالدينَ فيها لا يُخفّفُ عنهم العذابُ».

أي في اللّعنة أو ما يلازمها من العذاب. والظاهر هو الثاني فإنّ قوله: «**لا يخفّف عنهم العذاب**» بيان لشدّة العذاب المدلول عليه بقوله: «**فيها**»..

قوله تعالىٰ: «ولا هم ينظرون». (٨٨)

الإنظار الإمهال أي لا يمهل لهم في العذاب، بل يؤخذون به على التوالي،

ويصبّ عليهم علىٰ التواتر ولا مهلة.

قوله تعالىٰ: «إلّا الّذين تابوا من بعد ذلكَ وأصلحوا».

أي رجعوا عن كفرهم وتمرّدهم وأصلحوا سرائرهم وبواطنهم. فقوله: «**وأصلحوا**» عطف علىٰ تابوا، وتوضيح وتشريح للتوبة، أي توبة مصلحة للضّمائر والسرائر كاملة نافعة ومرجعها إلىٰ التوبة الناصحة أي الخالصة. وليس له مفهوم بمعنى أنَّ ما ليس من التوبة مصلحة ليس نوبة كالندم والاستغفار.

قال في المنار ٣٦٥/٣: «**وأصلحوا**» أعمالهم بما صار للإيمان الراسخ من السلطان علىٰ نفوسهم، والتصريف لإرادتهم، أو أصلحوا نفوسهم بالأعمال الصالحة الّتي تمدّ الإيمان وتغذّيه، وتمحو من لوح القلب تلك الصفات الذميمة، وتثبت فيها أضدادها.

أقول: إن كان المراد أنّ إصلاح الأعمال شرط في التوبة، أو أنّه عين التوبة وداخل في حقيقتها، فلا دليل عليه، بل الدليل علىٰ خلافه فإنّ مَن أسلم وتاب عن كفره فمات قبل أن يوفّق لإصلاح أعماله فهو مسلم قطعاً، وكذا مَن تاب من الفسّاق عن فسقه، ومات بدون إصلاح أعماله فهو تائب بلا إشكال. ولا دلالة في الآية أنّ إصلاح الأعمال شرط في التوبة كي تعارض ما يخالفها من الأدلّة. غاية ما يستفاد من الآية أنّ إصلاح الأعمال ممّا يلازم التوبة.

فإن قيل: لاريب في أنّ تحقّق التوبة في بعض الموارد متوقّف علىٰ العمل بعد التوبة من ترك واجب لا يكون إلّا بإتيانه، ومن ارتكاب حرام لا يكون إلّا بتركه.

قلت: العزم في الواجبات والمحرّمات يكفي في تحقّق التوبة إلّا أنّه يجب عليه إصلاح توبته هذه بتدارك ما ضاع منه بترك الواجبات وارتكاب المحرمات.

قال في مجمع البيان ٤٧٢/٢: أي تابوا من الكفر ورجعوا إلىٰ الإيمان وأصلحوا ضمائرهم، وعزموا علىٰ أن يثبتوا علىٰ الإسلام. وهذا أحسن من قول من قال: وأصلحوا أعمالهم بعد التوبة وصلّوا وصاموا، فإنّ ذلك ليس بشرط في صحّة التوبة، إذ لو مات قبل فعل الصالحات مات مؤمناً بالإجماع.

قوله تعالىٰ: «فإنّ الله غفور رحيم». (٨٩)

أي يغفر للتائبين المصلحين، ويرحمهم برحماته الخاصّة. وفي الإتيان بالجملة الاسميّة دلالة علىٰ استمرار الغفران والرحمة.

قوله تعالىٰ: «إنّ الّذين كفروا بعد إيمانهم ثمّ ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هَم الضالّون». (٩٠)

بيان: حيث إنّ من قطعيات الكتاب والسنّة صحّة إسلام كلّ مَن تاب عن كفره، وقبول توبة من تاب عن فسقه، اضطربت كلمات المفسّرين في تفسير الآية.

قال في الكشاف ٣٨٢/١: فإن قلت: قد علم أنّ المرتدّ كيفما ازداد كفراً فإنّه مقبول التوبة إذا تاب، فما معنىٰ: لن تقبل توبته؟ قلت: جعلت عبارة عن الموت على الكفر؛ لأنّ الّذي لا تقبل توبته من الكفّار هو الّذي يموت علىٰ الكفر.

قال في الجوامع /٦٣: يعني اليهود الّذين كفروا بعيسىٰ بعد إيمانهم بموسىٰ، ثمّ ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمّد صلّى الله عليه وآله، أو كفروا برسول الله بعد أن كانوا به مؤمنين قبل مبعثه، ثمّ ازدادوا كفراً بإصرارهم علىٰ ذلك وعداوتهم له ونقضهم عهده، وصدّهم عن الإيمان به، ولن تقبلَ توبتهم؛لأنّها لا تقع علىٰ وجه الإخلاص... وقيل لن تقبل توبتهم عند رؤية البأس، والمعنىٰ: أنّهم لا يتوبون إلّا عند معاينة الموت وماتوا وهم كفّار أي علىٰ كفرهم.

وقال في آلاء الرحمٰن/ ٣٠٩: والظاهر إجماع المسلمين علىٰ قبول التوبة الصادقة قبل حضور الموت، وحينما تكون دواعي الهوىٰ ونزعات النفس الأمّارة تبعثه علىٰ القبيح، يصدّها عقله وتوبته وخوفه من الله وتقواه، فتكون واردة في توبة الذين كفروا بعد إيمانهم عند معاينة الموت. أو ماتوا وهم كفّار، وفي يوم القيامة يحاولون التوبة. وربما يرشد إلىٰ ذلك العدول عن قوله تعالى: «لا تقبل توبتهم» إلىٰ قوله: «لن تقبل توبتهم» الّذي هو نصّ علىٰ النفي في المستقبل مع أنّ قبول التوبة مقارن لها، فيكون في ذلك إشارة إلىٰ أنّ توبتهم المستقبلة المتأخّرة عن حياتهم العادية وآمالهم فيها لن تقبل منهم.

أقول: الوجه منحصر بهذا الأخير، ومحصّله حمل إطلاق التوبة من حيث الموقف والمورد علىٰ موقف القيامة والآخرة.

قوله تعالىٰ: «إنّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدىٰ به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين». (٩١)

الفرق بين هذه الآية وسابقتها أنّ السابقة في بيان موقف التوبة أو شرط صحّتها؛ وهو الجدّ في التوبة بخلاف توبة المنافق فإنّه لا توبة له، مثل قوله تعالىٰ: «**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تَستغفر لهم سبعين مرّةً فلن يغفر الله لهم**»، [التوبة (٩)/٨٠]. وأمّا هذه الآية فهي في مقام بيان حلول العذاب لساحة الكفّار، وأنّه لا مطمع في نجاتهم بالفداء، ولا بشفاعة الشافعين فإنّ مورد الشفاعة مَن ارتضاه الله من حيث دينه؛ والدّين المرضيّ عند الله هو الإسلام.

والظاهر أنّ قوله تعالىٰ: «**فلن يقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهباً**» أي علىٰ فرض إنفاقه في الدنيا. وكذا قوله: «**ولو افتدىٰ به**» فلا تنفعه الفدية بملءِ الأرض ذهباً.

قوله تعالىٰ: «لن تنالوا البرَّ حتىٰ تنفقوا ممّا تحبّون».

قال في لسان العرب ٥٢/٤: وبَرَّ يَبَرُّ إذا صلح. وبرّ في يمينه يبرّ إذا صدّقه ولم يحنث. وبرّ رحمه يَبَرُّ إذا وصله. ويقال: فلان يَبَرّ ربّه أي يطيعه... والبَرُّ: الصادق. وفي التنزيل العزيز: «**إنّه هو البَرُّ الرحيم**».

قال في مجمع البيان ٤٧٣/٢: واختلف في البرِّ هنا فقيل: هو الجنّة، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: هو الطاعة والتقوىٰ، عن مقاتل وعطا. وقيل معناه: لن تكونوا أبراراً أي صالحين أتقياء، عن الحسن.

أقول: ظاهر أنّ البرّ الّذي ينالونه بإنفاق ما يحبّون إنّما هو في مرتبة الجزاء. وحيث إنّ منشأ كلّ جزاء والمعطي لكلّ خير وبرّ هو الله جلّ ثناؤه فيكون المعنىٰ: لن تنالوا برّ الله وكرامته لأهل الإنفاق وأهل طاعته حتّىٰ تنفقوا من جياد أموالكم ومن نفائسها. فالمراد من البرّ المذكور في الآية هو جزاؤه تعالىٰ للأبرار والمنفقين والمحسنين.

في الكافي ١٥٧/٢، عن محمّد بن يحييٰ مسنداً عن أبي ولّاد الحنّاط قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: «**وبالوالدين إحساناً**».

[الإسراء (١٧)/٢٣]، ما هذا الإحسان؟ فقال:

الإحسان أن تحسن صحبتها، وأن لا تكلّفهما أن يسألاك شيئاً ممّا يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين، أَليس يقول الله عزّ وجلّ: «**لن تنالوا البرّ حتّىٰ تنفقوا ممّا تحبّون**»...

وفي البحار ٨٩/٤٦، عن شرف العروس، عن أبي عبدالله الدامغاني أنّه كان عليّ بن الحسين عليهما السلام يتصدّق بالسكّر واللّوز، فسئل عن ذلك فقرأ قوله تعالى: «**لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون**»، وكان عليه السلام يحبّه..

وفيه أيضاً ٥٣/٤٧، عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه كان يتصدّق بالسكّر، فقيل له: أيتصدّق بالسكّر؟ فقال: نعم، إنّه ليس شيء أحبّ إلىٰ منه. فأنا أحبّ أن أتصدّق بأحبّ الأشياء إليّ.

وفي تفسير العيّاشي ١٨٤/١، عن مفضّل بن عمر قال:

دخلت علىٰ أبي عبدالله عليه السلام يوماً ومعي شيء فوضعته بين يديه فقال: ما هذا؟ فقلت: هذا صلة مواليكَ وعبيدكَ. فقال لي: يا مفضّل إنّي لا أقبل ذلك وما أقبله من حاجتي إليه. وما أقبله إلّا ليزكوا به. ثمّ قال: سمعت أبي يقول:

مَن مضت له سنة لم يصلنا من ماله قلّ أو كثر، لم ينظر الله إليه يوم القيامة إلّا أن يعفو الله عنه. ثمّ قال: يا مفضّل إنّها فريضة فرضها الله على شيعتنا في كتابه إذ يقول: «**لن تنالوا البرّ حتّىٰ تنفقوا ممّا تحبّون**». فنحن البرّ والتقوىٰ، وسبيل الهدىٰ، وباب التقوىٰ. ولا يحجب دعاؤنا عن الله...

أقول: هذه الرواية راجعة إلىٰ تأويل الآية يعني: إنّكم لن ترزقوا محبّة أهل البرّ، ولن تصلوا إلىٰ باب التقوىٰ، ولن يهديكم الله سبيل الهدىٰ إلّا ببرّكم إلىٰ أهل البرّ. وهذا وإن كان تأويلاً إلّا أنّه ممّا ينطبق علىٰ الظاهر بضرب من التدبّر والتطبيق، فيكون من الأدلّة علىٰ ما قصدناه في مرحلة التفسير من عموم إطلاق البرّ علىٰ كلّ خير وفضل. وأنّ البرّ الّذي ندب الله إليه هو برّه ـ تعالىٰ ـ وإكرامه.

ولو أبيت ذلك فنقول : إنّ التأويل فيه دلالة علىٰ التفسير ، فيرشدنا إلىٰ أنّ التفسير من المصاديق العادية والتأويل من المصاديق غير العادية ؛ وهو ظاهر .

قوله تعالىٰ : «وما تنفقوا من شيء فإنّ الله به عليم» . (٩٢)

جاء بالفاء في جواب الشرط أي إن تنفقوا شيئاً قلّ أو كثر فإنّ الله ـ تعالىٰ ـ يعلمه فيحتمل أن يكون في مقام الحثّ والتشويق، ويحتمل أن يكون في مقام التهديد بأنّ الّذي ترغبون عنه لا يصلح أن تنفقوه في سبيل الله . ثمّ لا يخفى أنّ الإنفاق يوجب استجلاب برّه ورحمته ـ تعالىٰ ـ وليس معناه أنّ من يكون فاقداً لما ينفقه فهو محروم من رحمته تعالىٰ . وأيضاً لابدّ من تقييد البرّ الّذي يوجب برّه ـ تعالىٰ ـ بالشرائط العامّة في صحّة الطاعات وقبولها وهو ظاهر .

وقد تمّ تفسير الجزء الثالث بحول الله وقوّته . والحمد لله ربّ العالمين كما هو أهله .